

هَذَا تَحْرِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فتنة السلطان

رواية ورؤية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
٢٠١٨/هـ ١٤٣٩ م

رقم الإيداع
٢٠١٧/٢٨٠٧٢



دار الإيمان للمعرفة
١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
تليفون / ٠١٠٠٥٧٦٠٦٦٣ - ٠١١١٨٩٣٣٦٢٤

بريد الكتروني / elhbibmohamed@gmail.com

هَذَا تَحْرِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِئْتَةُ السُّلْطَانِ

رَوَايَةُ وَرُؤْيَا

تَوْحِيدُ الزَّهْرِي



١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

تليفون/٠١٠٠٥٧٦٠٦٦٣ -

٠١١١٨٩٣٣٦٢٤



تقديم

يعد هذا الكتاب حلقة جديدة من سلسلة الأعمال التي تتناول سيرة النبي في صياغة "روائية" تلتزم أو تستجيب لمقتضيات "الفن" ولا تحيد عن حقائق التاريخ، في سياق رؤية إنسانية واسعة الآفاق للعصر الذي شهد تنزيل القرآن الكريم، وبمنهج جديد في تفسيره وفي تدوين الأحاديث النبوية، حيث يرى القارئ آيات القرآن الكريم وهي تأتي من الغيب إلى الشهادة في الأحداث التاريخية (الدنيوية) التي شهدت نزولها، ويسمع الأحاديث النبوية في نصوصها الكاملة كما قيلت في الأحداث التي وردت فيها.

وتعالج هذه الحلقة نهاية السنة الثامنة بعد الهجرة النبوية، وبداية العام التاسع الذي عُرف باسم "عام الوفود".

هذا من الناحية الزمنية "التاريخية". أما من الناحية العقلية (الموضوعية) فإنه يعالج - في سياق قصصي - مشكلات الحكم (السلطة السياسية) كما تجلت في سيرة النبي؛ لتكون سراجاً يهدي الناس في هذا الميدان الممتلئ بالأشواك، والذي ما يزال يشهد المزيد من سفك الدماء؛ ولذلك أعطيناه اسم "فنتة السلطان".

وأعلم أنني لم التزم بالترتيب الزمني (التاريخي) في الحلقات التي أخرجتها حتى الآن من سيرة النبي؛ لأنني قصدت المبادرة إلى بيان الجوانب الغامضة التي أهملها السابقون، والإجابة عن الأسئلة الشائكة المملغة التي تحير فيها الناس، وكانت سبباً في الضلال والخلاف.



ولكننى أدعو الله ﷻ أن يمنحنى الوقت والقوة لإتمام هذه الملحمة الهائلة التى
تقص حياة أعظم المخلوقات، وأن أتمكن يوما ما من إعادة إخراجها كاملة فى ذلك
الترتيب المنشود. وعسى أن يكون قريباً.

توحيد الزهري

*** **

الرواية

(١)

خولة بنت حكيم

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]^(١)

لاذت فلول قبيلة ثقيف - التى شاركت قبائل هوزان فى القتال يوم حنين - بالفرار إلى قريتهم الطائف؛ ليتحصنوا بحصنهم الذى كان لا مثيل له فى العرب، من الهجوم المنتظر من "محمد" الذى رأوا أنه لا بد أن يرد على عدوانهم عليه؛ باشتراكهم فى القتال مع هوزان.

وقد لحق بهم فى الطائف مالك بن عوف - قائد جيش هوزان - بعد أن استطاع أن يدير انسحاباً منظماً، مع من بقى معه من جنوده، ونجح فى الإفلات من قبضة الزبير بن العوام، الذى قام مع كتيبة من فرسان المسلمين بمطاردة قوات هوزان التى فرت بعد هزيمتها المنكرة.

والطائف قرية عظيمة من قرى العرب، تقع جنوب شرق مكة، على الطريق إلى اليمن. وتكاد تقارب فى مكانتها مكة نفسها التى وصفت بحق أنها "أم القرى". مكة والطائف هما القريتان المقصودتان فى كلام القرآن على لسان الكافرين ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) يستنكرون أن ينزل هذا القرآن العظيم - الذى يقدرُون سمو بلاغته عند مقارنته بأى كلام آخر - على رجل مثل محمد، الذى لا يعدونه من عظماء الرجال فى مكة والطائف.

وكانت الطائف هى موطن قبيلة ثقيف، وكانت "اللات" هى إلهتها المفضلة أو كبيرة الآلهة عندهم، وقد بنوا لها بيتاً عظيماً من الجلود والأقمشة المزينة سموه "الكعبة اليمانية". وكانوا يُضمرون فى "سرهم" طموحاً أن تحل كعبتهم اليمانية فى مكانة كعبة

قريش بمكة؛ ولذلك رحبوا منذ أكثر من ستين عاماً بغزو أبرهة لمكة؛ لهدم الكعبة، بل وقدموا إلى الغازي الحبشي أحد رجالهم ليكون دليلاً له في الطريق إلى مكة. كان هذا الدليل "الثقفي" هو أبو رغال، الذي لقي حتفه بغتة كأنها خسفت به الأرض وابتلعتة في منطقة منى شرق مكة عند الأحجار (الأنصاب) التي أقيمت لتكون رمزاً للشيطان، الذي يرجمه الحجيج ضمن مناسك الحج^(٣).

وقد اشتهرت الطائف بلطف جوها، وكثرة بساتينها من النخيل والأعناب. ولذلك كانت مقصد الأثرياء من كبار تجار مكة؛ يذهبون إليها كلما أحسوا بحاجتهم للاستجمام؛ ليستمتعوا بجوها اللطيف وحدائقها البهيجة. وقد بنى بعضهم فيها قصوراً وبيوتاً فخمة، يطوفون بها أياماً عندما تشتد الحرارة ويسوء الجو في مكة ويشتهون الاستمتاع بالحياة الناعمة.

وعندما مات عمه أبو طالب - الذي كان يسبغ عليه حمايته من بطش الملاء من كفار قريش - وماتت خديجة - حبيبة قلبه ورفيقة حياته - وضاعت عليه مكة، ولم يعد يقدر على البقاء فيها، فإنه ارتحل إلى الطائف موطن قبيلة ثقيف، لعله يجد فيهم آذاناً منصتة وأفئدة منتبهة تتلقى منه رسالة ربه، وبشراً يحمونه حتى يبلغها إلى الناس.

ولكنهم قابلوه بأسوأ وجه يمكن أن يراه، ولم يخطر له على بال، كذبه زعمائهم وسخروا منه، بل أوصوا سفهاءهم وصبيانهم أن يضربوه بالحجارة وأن يستهزئوا به، فأمعنوا وأسفوا في سبه، وهم يمطرونه بالحجارة.

وعند سور حديقة قصر عتبة وشيبة ابني ربيعة - الذي بناه بالطائف هذان الصنديدان من قريش اللذان لقيا مصرعهما يوم بدر قبل ست سنوات - قعد على الأرض، مسنداً رأسه وظهره إلى السور، رافعاً إلى السماء وجهاً باكياً، وقلباً حزيناً ودعاءً متضرعاً: «إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟! إِلَى غَرِيبٍ (أهل ثقيف بالطائف) يَتَجَهَّمَنِي، أَمْ إِلَى قَرِيبٍ (عدو) مَلَكَتْهُ أُمْرِي...».

كان يشعر بهوان شأنه في الناس، وضعف قوته وقلة حيلته في مواجهة المصاعب والأهوال التي تحيط به من كل جانب توشك أن تغرقه في بحر لجى متلاطم الأمواج دامس الظلمات من الكآبة واليأس، وهو ينظر إلى الجراح التي أصابت جسده والدماء التي تسيل من قدميه.

«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الأولى والآخرة، من أن يحل على غضبك، أو ينزل بى سخطك... لك العتبى حتى ترضى»^(٤).

كانت هذه الذكريات المريرة - التي ترجع أحداثها إلى ما يقرب من أحد عشرة سنة - تصاحبه ولا تغيب عنه وراء حجاب النسيان للحظات حتى تطل عليه من جديد وهو يسير في الطريق من وادى حنين إلى الطائف؛ ليقابل ثقيف ومن تحالف معها من بقية جيش هوازن وغيرهم من القبائل العربية.

كان يعلم أن ثقيف هى أشد القبائل العربية تكبراً، وأعظمها عناداً في رفض الإسلام ومحاربة أهله، فرغم الهزيمة الساحقة التي صفعتهم مع بقية جيش هوازن يوم حنين، وأجبرتهم على الفرار، فإنهم لا يزالون يصرون على القتال حتى النهاية؛ إلى آخر رجل منهم.

وكانوا أكثر العرب خبرة ومراساً بأعمال الحرب وفنون القتال. أحاطوا مدينتهم بسور عظيم له أبواب، ثم أقاموا داخل السور حصناً متيناً بين يدي بيوتهم. يتحصنون فيه، ويقاتلون أعداهم من داخله - عبر فوهات في جداره - ومن فوق سطحه العالى، يرمون بالسهم يقذفونها بالنبال ذات الأقواس والأوتار، وبالأحجار الحادة المسنونة يقذفونها بالمقاليع، وينزلون بواسطة السلاسل من فوق سطح الحصن أسياخ (سكك) الحديد المحماة بالنار، يحرقون بها كل من يُفلت من السهم والأحجار وينجح في الاقتراب من أبواب الحصن.

وكان أول عمل قام به رجال ثقيف بعد فرارهم من حنين هو ترميم الحصن المتين؛ حتى يصمد لأي ضربات تأتي من جيش محمد، وخزنوا فيه كل ما قدروا على جمعه من السهام والنبال والأحجار الحادة المسنونة والمقاليع، وأسياخ (سكك) الحديد، وخزنوا فيه من الأقوات والماء ما يكفيهم لمدة سنة كاملة، تحسباً للحصار، وأبعدوا أموالهم (مواشيهم) ونساءهم وأولادهم إلى مكان مرتفع يأمنون فيه عليهم، وحشدوا داخل الحصن أمهر الرماة من جنودهم، والأفران التي يُوقدون على أسياخ الحديد فيها.

** ** ** ** **

كان يدرك أن هذه المعركة الوشيكة هي آخر حروبه ضد القبائل في جزيرة العرب، وإذا هُزمت ثقيف فإن عناد العرب سينهار، وسيسارعون بالدخول في دين الله أفواجاً، راضين بالحكم الجديد الذي ينتشلهم من "أتون" العصبية القبلية وصراع التفرق، فلا يتبقى إلا الأعداء خارج الجزيرة العربية، الفرس والروم، الذين يتربصون بالعرب الدوائر، ويتصارعون ضد بعضهم من أجل السيطرة وبسط النفوذ على تلك الأرض التي تربط الشرق بالغرب، وتمر بها طرق التجارة العالمية.

كان شديد الحذر في سيره إلى الطائف، يتحسب لخطاه قبل أن يتقدم. خرج من حنين واتجه إلى نخلة اليمانية، وهو الموضع الذي لجأت إليه فرقة من جيش هوازن بعد هزيمتهم وفرارهم. وكان قد أرسل إليهم كتيبة صغيرة من فرسان المسلمين لمطاردتهم، فكفوا عن ملاحقتهم بعدما أبعدها في الفرار، واعتقد المسلمون أنهم انسحبوا وذهبوا إلى موطنهم، ويأسوا في استئناف القتال.

فذهب إلى هذا الموضع ليتيقن من أنهم لم يرجعوا إلى التجمع فيه والاحتشاد مرة أخرى؛ ليتأكد أنهم لن يهاجموا المسلمين من الخلف إذا تقدموا نحو الطائف.

فلما عاين خلو نخلة اليمانية من أي أثر لجنود هوازن، انتقل إلى قرن الثعالب (قرن

المنازل)، وهو صخرة كبيرة، أو جبل صغير مستطيل الشكل، يقع على الحد الشرقي للحرم المكي المقدس. وكان يعد " الميقات المكانى " للحجيج القادمين إلى الكعبة من جهة نجد (الشرق) حيث يجب على كل قاصد للبيت الحرام أن يخلع ثيابه " الدنيوية " التى يمارس فيها معيشته على الأرض، وأن يلبس ملابس الإحرام التى تشبه الأكفأ، وأن يلتزم بواجبات الحج وأن يمتنع عن محرماته.

هنا عند هذه الصخرة الكبيرة أو الجبل الصغير جلس - منذ ما يقرب من أحد عشرة سنة - يلهث، يريد الراحة من عناء مطاردة سفهاء ثقيف وصبيانها، الذين ظلوا يقذفونه بالحجارة كأنه شيطان رجيم، أو مجنون خطير، ويمطرونه بالسباب المقذع والاستهزاء المهين، ولم يكفوا عنه إلاّ عند هذا الحد الشرقي للحرم المكي.

كان قلبه يصارع أمواج الأسف، وقد أظلمت الدنيا أمام بصره، حتى أنه لم يعد يرى الطريق الذى يسير فيه، ولم يستفق من همومه وغمومه إلاّ عند هذه الصخرة، على صوت جبريل ينزل من السحاب فى صورة رجل أبيض الوجه والثياب، يقول له: السلام عليك يا رسول الله، ويتقدم نحوه بصحبة رجل آخر هائل الجسد مهيب الوجه. فالتفت إليهما متسائلاً بلسان الحال ونظرة عينيه عن الرجل الآخر، الذى بادره بقوله: يا محمد، إن الله يقرئك السلام. أنا ملك الجبال وقد سمع الله ما قالوه لك، ورأى ما ردوا به عليك، فأرسلنى إليك لتأمرنى بما شئت... فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - وهما الجبلان المحيطان بوادى مكة وما حولها كالقوسين، جبل أبى قبيس على اليمين (الشرق) وجبل قعيقعان على الشمال (الغرب) - فعلت.

فقال نبي الله: «بل أستاذنى بهم (أصبر عليهم وأنتظرهم) لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وحده، ولا يشرك به شيئاً».

قال جبريل: صدق من وصفك بأنك رؤوف رحيم.

ثم قام ليعود إلى مكة باحثاً عما يمن يحيره (يحميه)، فكافأه الله برحلة في آفاق الزمان ليرى حقيقة نفسه، وعلو مكانته عند ربه، حين سرى به من المسجد الحرام بمكة إلى موضع المسجد الأقصى بالقدس: بوابة السماء التي خرج منها منطلقاً في أرجاء الكون.

** ** ** ** **

هل ستستجيب ثقيف ومن تحالف معها لنداء العقل، فتجنح للسلام وتكف عن العناد والقتال؟.

هذا هو السؤال الذى ظل يعاوده من حين لآخر، يطل بين الذكريات، وهو يسير في الطريق من صخرة قرن الثعالب إلى المليح [واد على مشارف الطائف]. ومنه انتقل إلى لية، وهو موطن لبنى نصر، قوم مالك بن عوف، قائد جيش هوازن يوم حنين، حيث كان قد بنى بيتاً كبيراً فخماً، يسمونه قصر مالك بن عوف، وكان أشبه بالحصن.

وفي موضع غير بعيد من قصر مالك بن عوف، يقال له بُحرة الرغاء، حيث كانت توجد مراتع واسعة للإبل، أمر الرسول ببناء مسجد للصلاة، وضربت قُبتان (خيمتان صغيرتان) لزوجتيه: أم سلمة وميمونة بنت الحارث، وهما اللتان صحبتاه في الخروج إلى حنين. وأمر الجيش بالعسكرة في هذا الموضع حتى يأذن لهم بالسير إلى الطائف.

كان من الواضح لهم أنه يتمهل ولا يتعجل في الذهاب لمقابلة ثقيف. ربما رجا أن تذهب الأخبار إلى ثقيف ومن تحالف معهم - عبر السائرين على الطريق - بقدومه إليهم بجيش كبير؛ لعل ذلك يردعهم عن الحرب ويبعثهم على قبول السلام وحقن الدماء.

وربما كان يرجو أن يأتيه المدد الذى ينتظره من قبيلة دوس مع الطفيل بن عمرو، الذى أرسله قبيل الخروج من حنين إلى الطائف وأمره أن يهدم ذا الكفين، الصنم الذى كانت تعبده دوس قبل إسلامها، وأن يوافيه بالطائف بالمدد الذى يحتاجه من دوس لقتال ثقيف.

وبينا كان ينتظر في بُحرة الرغاء، جئ إليه برجل من بنى ليث يحتشد حوله جماعة من قومه يشتبكون في جدال صاحب عنيف يقرب من الشجار، مع جماعة من هذيل يقولون أنه قتل رجلاً منهم.

دخلوا المسجد - الذى بناه رسول الله في هذا الموضع - بعد الانتهاء من صلاة الظهر وقال أولياء دم المقتول: إن هذا قتل رجلاً منا ونحن نطالب بدمه.

فأوقف رسول الله الرجل بين يديه وسأله، فاعترف الرجل بالجناية، فأمر بعض أصحابه بضرب عنقه، وتجهيزه للدفن. ثم أُتى به ملفوفاً في الكفن، فوضعه في المسجد، فصلى عليه صلاة الجنازة مع جماعة المسلمين. ثم ذهب به أهله ليدفنوه في مقابر بلدته، وكان هذا أول حكم بالقوَد (القصاص) يتم تنفيذه في تاريخ الإسلام.

وانتظر رسول الله أن يأتيه وفد من ثقيف يعرضون عليه السلام والكف عن القتال حقناً للدماء. ولم يسفر الانتظار عن شيء؛ فأمر رسول الله أصحابه بإخرا^(٥)ب قصر (حصن) مالك بن عوف انتقاماً منه؛ لأنه هو الذى سَعَّر الحرب يوم حنين وتحالف مع ثقيف من أجل القضاء على الإسلام. ولعل تلك الخسارة الجسيمة تشعره بخطأ سعيه، وتبعثه على إقناع وإغراء ثقيف بالإذعان لمنطق العقل وحقن الدماء، تجنباً للمزيد من الخسائر، أو تبعثه على فض تحالفه معها؛ حفاظاً على نسائه وأولاده الذين كانوا مع السبايا المحبوسين تحت الحراسة في الجعرانة.

وهدم أصحاب رسول الله قصر (حصن) مالك بن عوف وانتظر رسول الله أن يأتيه من الطائف من يطلب التفاوض والصلح. ولم يثمر الانتظار شيئاً. وتأخر الطفيل بن عمرو عن القدوم بالمدد من دوس؛ فرأى رسول الله أن الانتظار لا يعنى إلا إعطاء ثقيف الوقت الكافي للمزيد من الاستعداد؛ لذلك أراد الإسراع إلى الطائف فصلى الظهر بالمسجد الذى أقامه ببُحرة الرغاء في لية. ثم سأل عن طريق قصيرة تؤدي إلى الطائف فأشاروا له إلى طريق.

فسأل: ما اسمها؟

قالوا: الضيقة.

فقال: بل هي اليسرى، بإذن الله.

فأمر بالرحيل، ودخل "اليسرى" ثم خرج منها إلى موضع يقال له «نخب»، وهو على باب الطائف، فنزل تحت شجرة (سدره) عظيمة يقال لها الصادرة. كانت قريبة جداً من حائط (بستان) واسع لزعيم من زعماء ثقيف. وفي وسط الحائط (البستان) قصر منيف.

وخاف رسول الله أن يكون هذا البيت الفخم وسط الحائط مستودعاً تحتشد فيه جنود ثقيف بأسلحتهم، حتى إذا انطلق المسلمون إلى داخل الطائف، هاجتهم تلك الحشود من ورائهم، فأراد أن يتيقن من خلو البيت من الجنود والأسلحة، فأرسل إلى صاحب الحائط بعض أصحابه برسالة، «إما أن تخرج إلينا، وإما أن نخرب عليك حائطك».

فطرق أصحاب رسول الله باب البيت عدة مرات، ثم نادوا على صاحبه «إما أن تفتح لنا وتخرج إلينا، أو نخرب عليك حائطك».

فأجابهم الرجل من داخل البيت دون أن يفتح لهم قائلاً: لن أخرج إليكم أبداً ولن أفتح لكم.

فكرروا الأمر وأعاد نفس الإجابة عدة مرات. فعادوا إلى رسول الله يخبرونه بإباء الرجل. فأمرهم بتخريب حائطه وبيته عليه. فلما رأى تهاوى جدران البيت تحت ضربات المعاول والرماح وتساقط الشجر في أنحاء الحائط خرج الرجل يصرخ ويولول باكياً. وجلس وسط الحطام يقلب كفيه أسفاً على ماله الذي ضاع.

ثم مضى رسول الله بجيشه مسرعاً نحو سور مدينة الطائف. ورأى أن يتمهل قبل

بدء القتال، فأرسل خالد بن الوليد في ألف من المسلمين، وأمره أن يعاين مدى استعداد ثقيف وتحصينهم، وأن يعرض عليهم الصلح أولاً حقناً للدماء.

ومكث رسول الله مع بقية الجيش غير بعيد من حصن الطائف. وتقدم خالد بن الوليد مع من معه نحو الحصن. ثم أوقف خالد بن الوليد جنوده بعيداً عن مرمى السهام والأحجار، وتقدم مع نفر قليل من جنوده نحو الحصن، فدار حوله يلقي نظرات متفحصة على المكان ومداخل الحصن وتجهيزات ثقيف. فرأى أن ثقيف قد أتمت استعدادها وتجهزت للقتال والحصار المنتظر، حيث شاهد رماة ثقيف يطلون عليه من فوق سطح الحصن. ومن النوافذ في جداره، ويدورون بأبصارهم حوله، وهم يرفعون الأقواس والمقاليع بأيديهم؛ ليظهروا تهيأهم لبدء القتال في أى لحظة.

وأوقف خالد بن الوليد من معه. ثم تقدم وحده على فرسه نحو الحصن، وهو يرفع يده اليمنى مشيراً إليهم "أن تمهلوا وانتظروا". فتساءلوا في أنفسهم: "ماذا يريد؟".

وعند الباب الرئيس للحصن، وقف ورفع وجهه وصوته لمن ينظر إليه منادياً: لينزل إليّ بعضكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع إليكم، أو اجعلوا لي مثل ما جعلت لكم، فأدخل عليكم حصنكم أكلمكم.

فأجابه عبد ياليل بن عمرو - وهو الذى كان قد أوصى سفهاء ثقيف وصبيانها بسب محمد وقذفه بالأحجار منذ ما يقرب من أحد عشر سنة: لا ينزل إليك رجل منا ولا تصل إلينا.

فقال خالد بن الوليد بأعلى صوته: فاسمعوا من قولى... نزل رسول الله بأهل الحصون يشرب وخير، وبعث رجلاً واحداً إلى فذك فتزلوا على حكمه^(٦).....

وأنا أحذركم مثل يوم بنى قريظة، حصرهم رسول الله أياماً، ثم نزلوا على حكمه، فقتل مقاتلتهم في صعيد واحد، ثم سبى الذرية^(٧). ثم دخل مكة فافتتحها، وأوطأ

هوازن (داس عليها وسحقها)، في جمعها، وأنتم في حصن في ناحية من الأرض، لو ترككم لقتلكم من حولكم ممن أسلم.

فرد عليه عبد ياليل بن عمرو: لا نفارق ديننا.

يا خالد، إن صاحبكم لم يلق قوماً يحسنون قتاله غيرنا.

إنه لسان التحدى.

فنادى خالد بأعلى صوته يتحدى: من يبارز؟

فلم يجبه أحد، فكرر خالد نداءه: من يبارز؟

يستثير حميتهم ليفتحوا الحصن.

وتشاوروا مع بعضهم داخل الحصن، فقال لهم أخوهم عمرو بن أمية الثقفي، وكان من أدهى العرب ومن أعظمهم فطنة وحكمة: لا يخرج إلى محمد أحد منكم، حتى إذا دعاكم أحد من أصحابه إلى البراء، ودعوه يقيم ما أقام.

وظل خالد يكرر بأعلى صوته نداء المتحدى: من يبارز؟

فلم يخرج إليه أحد.

وأخيراً حسم عبد ياليل الأمر فقال لخالد: لا ينزل إليك أحد، ولكننا نقيم في حصننا، خبأنا فيه ما يصلحنا سنين، فإذا أقمت حتى يذهب هذا الطعام، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا.

ولم يجد خالد بداً من الرجوع إلى المنزل الذي أقام فيه أصحابه، حتى يأتي إليهم رسول الله ببقية الجيش.

وجاء رسول الله ببقية الجيش، وأقام معسكره بعيداً عن متناول السهام والأحجار، وضرب قبتين (خيمتين صغيرتين) لزوجتيه: أم سلمة وميمونة بنت الحارث، وكان يصلى بينهما.

وأدرك رسول الله أنه لا سبيل إلى القتال إلا برمي السهام والحصار. وبالطبع، فإن نتيجة الرمي كانت لصالح ثقيف؛ لأنهم يرمون من داخل الحصن ومن فوقه، من مكان مرتفع، وقد استعدوا وتجهزوا لهذا النوع من القتال. فكثر جراحات المسلمين وسقط منهم بعض القتلى.

وتشاور رسول الله مع أصحابه في أمر هذه المعركة غير المتكافئة لصالح الأعداء المحتمين بحصن متين وهياؤوا أنفسهم لقتال طويل الأمد.

فقال سلمان الفارسي: يا رسول الله، أرى أنه لا بد لنا من نصب المنجنيق (آلة تشبه المدفع في عصرنا، كانت تُحشى بالمواد القابلة للاشتعال) فنقذف بها على الأعداء، فإننا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على حصون الأعداء، وتُنصب علينا، فنصيب من عدونا ويصيب منا. وإن لم تكن منجنيق طال المقام. فأمره رسول الله أن يصنع منجنيقاً إن استطاع.

وبينما هم على هذه الحال، وبعد أربعة أيام من بدء القتال، جاء الطفيل بن عمرو بأربعمائة رجل من قومه (دَّوس) وكان معهم منجنيق ودبابة. والدبابة آلة حربية تشبه الهودج، توضع على عجل أو قد تُجمع على ظهور الخيل، وكانت تُغطى بجلود غليظة، فيدخل فيها المقاتلون ويزحفون عليها نحو الحصون، وهم محتمون بالغطاء الجلدي السميكة من ضربات السهام والرماح، فإن استطاعوا الوصول إلى جدار الحصن تحت حماية غطاء الدبابة، نقبوا الجدار، ودخلوا إلى الحصن وقاتلوا المختبئين المحشورين فيه.

وهذا ما فعله المسلمون، في أول يوم وصلت فيه إليهم أول دبابة مع الطفيل بن عمرو. لكن جنود ثقيف أنزلوا عليهم سكك (أسيخ) الحديد المحماة بالنار، فأحرقت غطاء الدبابة، وخرج الجنود من تحتها، فظهروا وصاروا أهدافاً قريبة سهلة المنال لضربات السهام والحجارة والكي بالنار. فكثر جراحات المسلمين وزاد عدد القتلى منهم.

ونصبت المنجنيق على ربوة مرتفعة قريبة من الحصن، وأخذ المسلمون يستخدمونها في رمى جنود ثقيف بالقذائف المشتعلة. لكن النتيجة لم تكن لتحسم المعركة لصالح المسلمين؛ لأن جنود ثقيف كانوا ينجحون في اصطيادهم بالسهم والأحجار.

وأدرك رسول الله أن منجنيقاً واحدة، ودبابة واحدة لا تكفيان، فأرسل خالد بن سعيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود (أخا زوجته سودة بن زمعة) ليأتيا له في أسرع وقت من أرض اليمن بما يقدر عليه من المنجنقات والدبابات. وعاد القتال سيرته الأولى رمياً بالسهم والأحجار بين الطرفين دون نتيجة حاسمة.

كان رسول الله كل يوم، يجلس بين القبتين يراقب سير المعركة ويجمع المسلمين للصلاة في أوقاتها. ويقوم بتفقد أعمال القتال من حين لآخر، ويشرف على دفن الشهداء ويصلى عليهم، وعلى علاج المصابين الذين ينقلون إلى الخلف عند المصلى وراء القبتين بعيداً عن متناول السهم، وعلى دفن قتلى الأعداء الذين قد يسقطون من سطح الحصن ونوافذه.

سار ذات صباح بأرض المعركة بجوار سور الحصن، فوجد امرأة مقتولة، فغضب وقال: «ألم أنه عن قتل النساء!! من صاحبها» يسأل من فعل هذه الجناية العظيمة.

فقال رجل من المسلمين: أنا يا رسول الله، رأيته تسير فأردفتها (حملتها ورائي على البعير)، وأنا قادم إلى هنا، فأرادت أن تصرعني لتقتلني فقتلتها. فأطرق رسول الله والتفت لا يريد النظر إلى الجثة الملقاة على الأرض، وقال: «واروها الشرى»^(٨) فأسرع مَنْ سمعه بدفن المرأة الكافرة.

وأدرك رسول الله بأن هذا النمط من القتال القائم على الرمي المتبادل مع رجحان كفة الأعداء، لن يجدى في دفعهم إلى الاستسلام، وبعثهم على الإذعان للسلام وحقن الدماء.

فاتخذ قراره بتدمير أموالهم وقوام معيشتهم، فأمر كل رجل من جنوده أن يقطع خمس حبلات (أصول شجرات العنب) وخمس نخلات أو يحرقها.

فاندفع المسلمون يقطعون الأشجار قطعاً ذريعاً ويحرقونها بعنف؛ معبرين عن غيظهم لعجزهم عن اقتحام الحصن وعناد ثقيف.

وتقدم رجل من ثقيف، وقام على حافة سطح الحصن، وصرخ بأعلى صوته مستهزئاً بالمسلمين: روحوا رعاة الشاة، روحوا جلايب^(٩) محمد - أتروننا نبتئس على أحبل أصبتموها من كرومنا؟!

فاشتد غيظ المسلمين وقال رسول الله: «اللهم رَوِّحْ مروحاً إلى النار»، فأطلق سعد بن أبي وقاص سهماً من قوسه، فأصاب نحر المستهزئ، فهوى من الحصن ميتاً، وارتطمت جثته بالأرض ارتطاماً شديداً، فابتهجت قلوب المسلمين وهللوا، وقد علا السرور وجوهمهم وطفقوا يقطعون الأشجار ويحرقونها وقد اشتعل حماسهم.

وملاً الأسف قلوب رجال ثقيف، وهم يرون أموالهم تضيع هباءً منثوراً أمام أبصارهم، وهم محبسون في حصنهم لا يملكون أن يفعلوا شيئاً.

وأذل ضياع الأموال كبرياء ثقيف، فاقتربوا من حافة سطح الحصن ومن نوافذه، وقال قائلهم متضرعاً: يا محمد، لم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا،

وإما أن تدعها لله وللرحم. لقد كلموه على النحو الذي يرضيه ويرقق قلبه عليهم، فاستبشر وعاد الطمع في إيمانهم يطل في قلبه من جديد لما سمع المتحدث باسمهم يذكر الله والرحم ويستشفع بهما إليه. فقال: «فإني أدعها لله وللرحم» ونهى أصحابه عن قطع الأشجار وحرقتها.

وعاد القتال الرتيب بالرمل المتبادل إلى ميدان المعركة مرة أخرى.

وطمع المنافقون في صفوف المسلمين في كسر شوكة محمد، وأن تكون هذه المعركة هي بداية النهاية لأسطوره التي قوضت بنيان الحياة الاجتماعية، وأشاعت الفتن والاضطرابات في جزيرة العرب.

وتقدم عيينة بن حصن إلى رسول الله وقال له: أتأذن لي أن آتي أهل الطائف في حصنهم، فأكلهم لعل الله أن يهديهم. فقال رسول الله: نعم وأعطى رسول الله لأصحابه الأمر بالكف عن الرمي.

وتقدم عيينة بن حصن من الحصن، وأخذ يلوح لرجال ثقيف بيده، يوحى إليهم بالإشارة أنه يريد أن يدخل إليهم ويكلمهم، فوافقوا. ونزل أحدهم ففتح له باب الحصن، فدخل إليهم وجلس مع زعمائهم. وقال لهم: بأبي أنتم وأمي، تمسكوا بمكانكم، فوالله لنحن بأذل من العبيد، إن كانت له الغلبة اليوم، وأقسم لكم بالله لو حدث به حدث لتملكن أنتم العرب عزاً ومنعة، فإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتعاضم عليكم قطع هذا الشجر.

فقالوا له: نحن على العهد لا نزال في حصننا نقاتله حتى نقتله، أو نرده خائباً عن ديارنا.

وخرج عيينة بن حصن من عند ثقيف فرحاً مستبشراً، ورجع إلى رسول الله الذي بدا على وجهه الغضب، وهو يقول له: «ماذا قلت لهم يا عيينة»؟

فقال عيينة: أمرتهم بالإسلام، ودعوتهم إليه، ودللتهم على الجنة، وحذرتهم النار. فقال رسول الله قاطعاً استرساله في الكلام: كذبت... بل قلت لهم... وأعاد عليه ما قاله لهم داخل الحصن.

وبوغت عيينة بما قال، وامتنع وجهه، وشخصت عيناه إلى رسول الله وهو يحدثه

بما قاله كأنه كان حاضراً معهم يسمع ويرى، وأحس بيد غليظة تقبض على قلبه في صدره، واعتلى جسده عرق لرج بارد.

وقال رسول الله: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١٠).

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(١١).

وهبط الفزع على عينه، فازدادت عيناه شخوصاً، واقشعر جلده وجف لسانه وتعثر وهو يقول متلجلجاً: صدقت يا رسول الله، أتوب إلى الله وإليك من ذلك.

فسكت رسول الله، ونظر إليه غاضباً، وكأنه يقول له: "أعلم أنك كاذب، فغيب وجهك عني". فأسرع عينه بالفرار من وجه رسول الله.

وعاد القتال إلى سيره الرتيب، بالرمى المتبادل دون نتيجة حاسمة، إلا زيادة الجرحى والقتلى في صفوف المسلمين.

ورأى رسول الله أن يوهن تماسك المتحالفين ضد المسلمين المتحصنين في حصن ثقيف، فأرسل من ينادى قريباً من الحصن ليُسمع مَنْ بداخله " من خرج إلينا من العبيد فهو حر، أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ".

ظل منادى رسول الله يرفع صوته مكرراً هذا النداء، وهو يطوف حول الحصن ونفذ الصوت إلى قلوب العبيد داخل الحصن، المحبوسين في ظلام الرق، مثل نور الفجر يبدد ظلمة الليل؛ فأوقد سراج الأمل في القلوب التي اشتد عطشها وطال انتظارها للتحرر من غُل الاستعباد. نقر نداء الحرية قلوب العبيد المحاصرين مع سادتهم وراء جدران الحصن، فانتفض طائر الروح يطلب العتق من ذل الرق.

كان أول من أجاب نداء الحرية نفيح بن مسروح، الذي كان عبداً للحارث بن كَلْدَة ويُنسب كذباً إليه؛ لأن أمه سمية كانت جارية للحارث بن كَلْدَة أحد أشرف بني ثقيف، والمعروف بمهارته وخبرته في مجال الطب، حتى أن بعضهم كان يطلق عليه

لقب " طبيب العرب " ^(١٢).

ولكن الأب الحقيقي (الجسدى) لنفيح كان عبداً زنجياً حبشياً اسمه مسروح. وقد أسرت سمية لإبنها نفيح - ذات يوم - بتلك الحقيقة، ولكنه كان يخجل ويشعر بالعار من أصله الوضع، ويفضل التفاخر بالانتساب إلى أحد سادات ثقيف المرموقين ^(١٣).

لم يستطع نفيح أن يواصل الإمساك بطائر الروح المحبوس في قفص الاستعباد، فانطلق خارجاً من الحصن. أسرع يتسلق السور، وطفق يجرى إلى رسول الله ويعلن إسلامه "أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله" فبايعه رسول الله وسماه "أبا بكر"؛ لأنه بادر وأسرع بإجابة نداء رسول الله.

ولحق به على الفور مسرعاً شقيقه نافع بن مسروح، ابن سمية، الذى كان يُدعى (يُنسب كذباً) أيضاً إلى الحارث بن كلدة ^(١٤). ونافع المكنى أبو السائب، وفارس رومى (تركى) كانوا يطلقون عليه لقب المضطج فسماه رسول الله "المنبعث"، وإبراهيم بن جابر، ويسار، ومرزوق، وبشار، ويوحنا (يوحنا النبال) ووردان، والأرزق بن عقبة، وغيرهم. فاجتمع بين يدى رسول الله ما يقرب من عشرين عبداً من عبيد سادة ثقيف، فروا من الحصن ومن سادتهم، وأعلنوا الإسلام ليحتموا به ويظفروا بالحرية ^(١٥).

وكلف رسول الله بعض أثرياء المسلمين من قريش والأنصار أن يتكفل كل واحد منهم برجل من هؤلاء المحررين؛ فيتولى إطعامه، وكسوته وإيواءه وتعليمه بعض آيات القرآن وفروض الإسلام. فتذكر المؤمنون "المؤاخاة" التى أمر بها رسول الله عند هجرة الناس إلى "المدينة" (يثرب) فراراً من بطش صناديد قريش.

وحتى لا يتوهم أحد أن الأمر بتحرير عبيد ثقيف كان مجرد حيلة سياسية، أو خدعة حرية أراد بها رسول الله إضعاف جيش ثقيف ومن تحالف معهم، وإشاعة الفوضى والاضطراب في صفوف المقاتلين داخل الحصن، فقال: «من أعتق رقبة مسلمة

استنقذ الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه، وكانت فداءه من النار» مبيناً أن تحرير العبيد أمر يحبه الله، ويجعله سبباً في النجاة من النار، بل ويجعل الاستعباد نظيراً لجهنم.

ثم زاد الأمر بياناً، فقال: «أيما امرئ مسلم أعتق امرأةً مسلماً، كان فكاكه من النار، يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار». ولما كان هذا الأمر الإلهي لا يخص الرجال دون النساء، فقال: «وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأةً مسلمة، كانت فكاكها من النار يعتق الله بكل عضو منها عضواً منها من النار».

ولما كان يعتزم تحرير سبي هوازن، وأغلبه من النساء، وسيحصل عليهن الرجال المقاتلون، فقال: «وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين، كانتا فكاكه من النار، يعتق الله بكل عضوين منهما عضواً منه من النار»^(١٦).

وكان من المؤكد أن هذا الحديث من رسول الله سيبعث ويحث جميع السبايا من هوازن على إعلان الإسلام للخلاص من الرق، ومن ثم سيكون المسلمون في وضع المذعن المضطر لعنتقهن؛ حتى لا يقعوا تحت طائلة مخالفة أمر رسول الله.

ولما كان أكثر العبيد من النساء والرجال "يعلنون" إسلامهم من أجل التحرر من الرق -دون إيمان حقيقي - كما فعل أسرى هوازن في معسكر المسلمين بوادى حنين، وقد ينوون العودة (الارتداد) إلى الكفر بعد الحصول على الحرية؛ لذلك رأى أن يحثهم على البقاء على الإسلام فقال: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»^(١٧).

وكان يعلم أن نفعياً ونافعاً ابناً سمية، ينسبان نفسيهما إلى الحارث بن كلفة - السيد المالك لأمه - رغم أن والدهما الحقيقي (الجسدي) هو العبد الحبشي مسروح، وكذلك كان يفعل الكثير من أولاد الزنا والأنكحة المحرمة التي أبطلها الإسلام، فقال موجهاً خطابه للمقصودين من عبيد ثقيف المحررين، ولكل من كان مثلهما:

«من ادعى إلى غير أبيه - وهو يعلمه - فالجنة عليه حرام.

لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فقد كفر بالله.

ومن ادعى قوماً ليس له فيهم نسب، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله المتابعة إلى يوم القيامة، ولم يرح رائحة الجنة، وإن ربحها ليوحد من مسيرة خمسمائة عام.

من ادعى ما ليس له فليس منا.

ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه.

لا يرمى رجل رجلاً بالفسق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك. أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما.

إن من أفرى الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه، أو يرى عينه ما لم تر؛... يفترى على عينيه، فيقول رأيت في المنام شيئاً ولم ير. فمن تحلم كاذباً كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، ولن يعقد بينهما.

أو يقول على رسول الله ما لم يقل. إن كذباً على ليس ككذب على أحد.

لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني

ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوء مقعده من النار" (١٨).

كان يفكر في مصير هذا القتال، الذي طال أكثر من قدرة جنوده على الاحتمال، وأوشكوا أن يفقدوا صبرهم بعد أن فقدوا حماسهم. بعد أكثر من أسبوعين من الحصار لم تستسلم ثقيف. وباءت كل محاولات اقتحام الحصن بالفشل، ولم يسفر الرمي بالسهم إلا عن مزيد من القتلى والمصابين. اثنا عشر شهيداً وعشرات الجرحى. والمدينة خالية من القوة التي تردع الأعداء المحيطين بها. والغنائم في الجعرانة تحت حراسة ضعيفة ونظرات الطامعين الخائنين.

جلس بعد صلاة العصر، يفكر فيما يجب عمله؟ واقترب منه نوفل بن معاوية الديلي^(٩)، فسلم عليه وجلس بين يديه. فقال له: "يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟" يستشيريه في استمرار الحصار على ثقيف.

عرف نوفل ما يعانیه رسول الله والمسلمون من عناء بسبب مواصلة الحصار دون طائل. فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرک. وأعجب رسول الله بفطنة نوفل وفصاحته، واستراح إلى قرار فك الحصار عن ثقيف بعد أن أمسوا بمثابة ثعلب محبوس في جحر، وقد أسلمت كل القبائل من حولهم.

** ** ** ** **

وفي السحر، وقبل أن يقوم للصلاة، رأى رسول الله في المنام، كأن قعبة (قصة) مملوءة زبدًا قد أهديت له، فلما مد يده ليأخذها، أسرع ديك عجيب، بالغ الجمال زاهي الألوان فنقرها، فهراق (فأراق) ما فيها من الزبد على الأرض، فلم يتمكن منها. وقام يصلي، وهو يفكر في تأويل هذه الرؤيا، حتى نادى بلال على صلاة الفجر.

وبعد الصلاة في معسكر المسلمين على مقربة من الحصن، انتحى رسول الله بصديقه الحميم: أبى بكر الصديق، وقص عليه رؤياه يريد تأويله.

فقال أبو بكر: أظن أنك لا تدرك منهم في يومك هذا ما تريد.

فقال رسول الله مصداقاً تأويله ومؤيداً له: "وأنا أيضاً لا أرى ذلك".

ثم قام رسول الله في الناس خطيباً، وهم جلوس بين يديه في المصلى فقال: "إنا قافلون غداً إن شاء الله".

يدعوهم إلى فك الحصار، وجمع أنعامهم وأمتعته استعداداً للرحيل. فصاحوا معترضين وقد تعالى صخبهم: أنذهب ولا نفتحه؟! لا نبرح حتى نفتحها!!

فقال: "إذن، فاغدوا على القتال"

وأراد أن يمنحهم الصبر الذى أو شكوا أن يفقدوه، وأن يحثهم على مواصلة القتال، متحملين الآلام، متصبرين لحكم الله، غير ناظرين إلى الثمرة الدنيوية العاجلة، محتسبين أجرهم عند الله يوم القيامة، فقال: "من رمى العدو بسهم فى سبيل الله، فبلغ سهمه العدو، أصاب أو أخطأ، فهو له عدل رقبة محررة، ودرجة فى الجنة" (٢٠).

فانطلقوا يقاتلون أشد القتال، ولكن دون طائل، فكثرت فيهم الجراحات، واستولى عليهم السأم، وتسرب اليأس من الفتح إلى قلوبهم؛ لأن ثقيفاً قد ردت عليهم الصاع صاعين، فلم تفلح سهامهم ولا الرمي بالمنجنيق فى حمل العدو على الاستسلام. ولكن ظل الأمل فى فتح الطائف يراود بعضهم.

جاءت إليه خولة بنت حكيم - أرملة صاحبه عثمان بن مظعون - فاستأذنت فى الدخول عليه، وهو فى قبته يراقب سير القتال. فقالت له: يا رسول الله، إن فتح الله عليك الطائف غداً، فأعطني حُلًى بادية بنت غيلان، أو حلى الفارعة بنت عقيل. وكانت من أثرى أثرياء ثقيف، وأكثر نسائها حُلًياً.

فقال لها رسول الله: رأيت إن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف يا خولة؟! (٢١) وصدمتها إجابته، فخرجت من عنده آسفة شاردة الفكر. فقابلها عمر بن الخطاب، فلاحظ ما يبدو على وجهها من الهم والغم؛ فسألها عن حالها فقصت عليه ما قاله النبى، فانزعج عمر بن الخطاب انزعاجاً شديداً، وحث خطاه إلى رسول الله ليستوثق من الخبر.

وكان رسول الله قد خرج من قبته، ليراقب القتال عن كتب ويطمئن على جنوده، مفكراً كيف يلقي عليهم أمر الكف عن الحرب وفك الحصار. واشتكى له الرجال مما يعانون من سهام ثقيف. قال له جابر بن عبد الله أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فصدمهم بقوله: "اللهم اهد ثقيفاً". واقترب من خالد بن الوليد، وإذا بمولى لآل بيته

يُسمى «هيت» يقول لخالد بن الوليد: إن افتتحتم الطائف غداً فلا تُفَلتن منك بادية بنت غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، كناية عن امتلاء جسمها وجمالها؛ فلها أربع ثنيات على بطنها إذا جاءت مقبله، ومن ثم يكون لها ثمان ثنيات على جانبي ظهرها إذا أدبرت.

وانزعج رسول الله أشد الانزعاج؛ لما اخترقت هذه الكلمات سمعه؛ إذ دلت على أن «هيت» - الذى كان يُسمح له بالدخول على نساء النبی في بيوتهن، وسائر النساء في بيوت المؤمنين باعتباره من غير أولى الإربة (الشهوة والقدرة على الجماع) من الرجال - قد أمعن النظر في مفاتن جسم بنت غيلان وغيرها من النساء، حيث كان يُباح له رؤيتهن داخل الحجرات غير مستورات العورات، كاشفات مواضع الفتنة في أجسامهن.

وظن رسول الله أن هيتاً لا يعرف معنى ما يقول، وأنه ربما كان يردد بعض ما سمعه من " الرجال " عن مفاتن بنت غيلان.

فقال رسول الله في نفسه: " لا أرى الخبيث يفطن لما أسمع "؛ لأنهم كانوا يعدونه من " المخنثين " الذين لا يشتهون النساء ولا ينظرون إلى مفاتنهن، ولا يرغبون في جماعهن مثل " الرجال " الأسوياء، كما أنه كان على قدر من البلاهة، أو هكذا كان يبدو في أعين الناظرين إليه.

وكان «هيت» - الذى يوصف أحياناً على سبيل السخرية بالممتع - عبداً عند فاختة بنت عمرو بن عائذ، أخت جدة النبی، وأعتقه رسول الله لما أعلن إسلامه، وصار من موالى (العبيد المحررين) رسول الله.

ولم تكن الحياة تعنى له إلا إمتاع البصر بجمال أجسام النساء، متمنياً من أعماق نفسه أن يكون مثلهن!!.

واقترب رسول الله من خالد بن الوليد، ففر «هيت» من وجهه؛ إذ رأى عمر بن الخطاب يهرول من وراء رسول الله.

فقال عمر: يا رسول الله، ما حديث سمعته من خولة بنت حكيم، زعمت أنك قد قلتة.... فبادره رسول الله حاسماً الشك: قد قلتة.

فقال عمر: أخبر الناس؟

فقال رسول الله: " لا ".

فقال عمر: أفلا أؤذن الناس بالرحيل؟

فوافق رسول الله، وقال: " بلى، ومرهم أن لا يسرحوا ظهرهم (إبلهم).

فانصرف عمر بن الخطاب ينادى في الناس: إن رسول الله يأمركم ألا تسرحوا ظهركم (إبلكم) ويأذن لكم بالرحيل، بينما كان رسول الله يبحث خطاه إلى قبة امرأته أم سلمة.

* * * * *

وهناك -عند أم سلمة- فوجئ رسول الله بالمخنث «هيت»، ينفرد بأخيها عبد الله بن أبي أمية ويناجيه في أحد أركان القبة قائلاً: إن فتح الله لكم الطائف غداً، فإنني أدلك على ابنة غيلان عليك بها؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان... ثغر كالأقحوان، إن قعدت تثنت، وإن تكلمت تغنت، بين رجليها مثل الإناء المكفوء (المقلوب)، أسفلها كثيب (تشبه مقعدتها تلاً مرتفعاً) وأعلاها عسيب (مستقيمة القوام مرفوعة الرأس كأنها نخلة).

ولم يطق رسول الله صبراً على سماع هذا الوصف المهيج للشهوة، المحرض على الفاحشة، وأدرك أن هذا المخنث الخبيث يعلم ما يقول، ويطيل النظر إلى مفاتن النساء؛ فانتهره قائلاً له: " مالك؟! لقد غلغلت النظر إليها يا عدوا الله! قاتلك الله! إن كنت لأحسبك من غير أولى الإربة من الرجال!!".

وفر «هيت» من وجه رسول الله الذي فاض منه الغضب، والتفت إلى امرأته أم سلمة ومن معها قائلاً: " لا أرى هذا بعد الآن ". وأشار إلى «هيت» الذي كان يجري مسرعاً لا يلوى على شيء يقذفه الرعب مبتعداً عن رسول الله - يعلم (يرى) ما هنا. لا يدخلن هذا عليكم، لا تدخلن هؤلاء عليكن، اشتد غضب الله على قوم رغبوا عن خلق الله وتشبهوا بالنساء. لعن الله المخنثين من الرجال المتشبهين بالنساء، أخرجوهم من بيوتكم. ولعن الله المترجلات من النساء المتشبهات بالرجال^(٢٢).

وخرج عبد الله بن أبي أمية من قبة أخته أم سلمة، ليوصل القتال، فلقي حتفه؛ إذ جمح به فرسه عند سور الحصن، وأتاه سهم قاتل.

* * * * *

وفي صباح اليوم التالي، قام رسول الله خطيباً في الناس، بعد صلاة الصبح، فقال: "إنا قافلون غداً إن شاء الله" فأعجبهم الأمر، وعبروا عن رضاهم بالسكوت والاستعداد للرحيل، فضحك رسول الله^(٢٣).

وعندما ركب ناقته ليغادر الطائف متوجهاً إلى الجعرانة قال: " اللهم اهد ثقيفاً، واكفنا مؤنتهم، وأت بهم ".

وإذ كان يشعر أن في نفوسهم غصة من عجزهم عن فتح الطائف؛ فأراد أن يزيل ما في نفوسهم من أسف وشعور بالعجز، وأن يذكرهم بفضل الله عليهم فقال لهم: "قولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده" مستدعياً مجد الله يوم الخندق قبل ثلاث سنوات^(٢٤).

* * * * *

(٢)

أبورهم الغفارى

﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]

غادر جيش المسلمين الطائف، قاصدين الجعرانة، حيث حبست غنائم هوازن الوفيرة من السبايا والأموال، بعد هزيمتها الساحقة يوم حنين. وتقع الجعرانة شمال شرق مكة في منطقة المحصب، على يسار (غرب) موضع "الجمرات" التي تقذف بالحجارة ضمن مناسك الحج، باعتبارها رمزاً للشيطان الذي يبذل قصارى جهده لغواية الإنسان.

هتفوا في أول سيرهم - كما أمرهم رسول الله - بنشيد النصر الإلهي " لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ".
مروا أولاً على «دحنا» (إحدى ضواحي الطائف) ثم على «قرن المنازل» (الحد الذي يحرم عنده الحجاج القادمون إلى أم القرى من نجد وجهة الشرق) ثم على «نخلة اليمانية»، ثم انحدروا هابطين في الطريق المفضي إلى الجعرانة.

كان رسول الله على ناقته يسير في الصفوف الخلفية، ومعه نفر من أقرب أصحابه، وتحيط بهم فرقة من فرسان الأنصار على خيولهم، وقد وضعوا رماحهم بين آذان الخيول، بينما كان أغلب الجنود يمضون أمام رسول الله في جماعات متناثرة.

وعند أول الطريق المفضي إلى الجعرانة، فوجئ الجنود في الصفوف الأمامية برجل يتقدم نحوهم، يسوق قطعاً صغيراً من الأغنام. ثم أوقف القطيع في حراسة شاب صغير على جانب الطريق ثم اندفع يخترق الصفوف المتناثرة، حتى وصل إلى فرقة الفرسان التي تحيط برسول الله، فصبوا إليه الرماح مهددين، وهم ينهرونه صائحين:

إليك! إليك! من أنت؟ مكانك أيها الرجل! ماذا تريد؟

ولكنه لم يعبأ برماحهم، ولا صياحهم حتى بلغ موضعاً عرف أن صوته يمكن أن يدرك سمع رسول الله، فانطلق ينادى: أنا سراقه بن مالك بن جعشم؛ ورفع بين أصبعين من يده اليمنى رقعة صغيرة من الجلد، وهو يقول: وهذا كتابي، هذا كتاب رسول الله لي.

وعرف رسول الله صوت سراقه، وأخذ يتذكر ما حدث معه، يوم خرج من غار ثور مع صاحبه أبى بكر، وأفلت من قبضة قريش بآية إلهية؛ إذ عجز صناديد قريش عن رؤيته داخل الغار المفتوح، وهم يقفون على بابه، بفضل عنكبوت نسجت خيوط بيتها على فوهة (عين) الغار، وحمامة برية رقدت على بيضها بين يدي باب الغار.

فأعلنت قريش عن جائزة مالية كبيرة لكل من يأت بمحمد حياً أو مقتولاً أو يدها على مكانه فتتمكن من القبض عليه.

وانضم إليهما بعد الخروج من غار ثور عامر بن فهيرة - مولى صاحبه أبى بكر - وعبد الله بن أريقط: الدليل الذى استأجره أبو بكر ليقودهم فى سيرهم إلى يثرب عبر الطرق الموحشة غير المطروقة، وسار الركب الصغير مهاجراً، تحفه الأخطار من كل جانب، يستغيث الله طالباً النجاة.

وساقت الأقدار إلى سراقه رؤية ما غلب على ظنه أنه " المهاجر " الذى تطلبه قريش، يمضى حثيثاً فى ركبه الصغير، على أحد الطرق المهجورة. واستبدت به الرغبة فى الحصول على المائة من النوق الحمر التى جعلتها قريش لمن يأتىها بمحمد، فأعد سلاحه من السهام - وكان رامياً مجيداً لا يخطئ هدفه - وركب حصانه، وانطلق وراء الصيد الثمين يحدوه الطمع فى نيل المكافأة الكبرى.

ولما صار على بعد خطوات قليلة، وأوشك الصيد الثمين أن يقع فى قبضة يده، أخرج السهام من كنانته، وجهز السهم الأول وصوبه وأراد أن يطلقه، فقال رسول الله

" اللهم اكفناه بما شئت "، فإذا بالحصان يصهل صهيلاً مرعباً، ويتوقف فجأة عن الحركة، لاوياً عنقه كأن يداً هائلة قد لطمته وصدته عن التقدم، وإذا به يغوص في الأرض التي انصهرت وسالت، كأنها قد صارت بحراً من الماء الملتهب، وصارت بطن الحصان طافية على سطح ذلك السائل توشك أن تغرق فيه، وأمسكت قوة " غامضة " بقدمي سراقه تريد أن تجذبه إلى باطن الأرض المظلم. فلما حاول أن يفلت من قبضتها، انقلب وسقط من فوق الحصان، وصار يغرق في الأرض التي تسيل، فصرخ بأعلى صوته " أغثنى يا محمد، أغثنى يا محمد ".

وإذا به يسمع " قد أغثتك " . والأرض تعود سيرتها الأولى، والحصان يقوم عليها ثابتاً على قوائمه الأربع. فوثب عليه، وأمسك بالقوس، وأراد أن يرمى السهم، فإذا بالأرض تسيل مرة أخرى وتفتح فاهاً لتبلعه، فعاد إلى الصراخ " أغثنى يا محمد " وجاءته الإجابة " قد أغثتك " .

وكرر المحاولة مرة ثالثة، فعاد إلى الاستغاثة وحصل على نفس الاستجابة. فتيقن أن هذا الرجل ممنوع، بقوة عليا لا تقهر، وأنه لابد سيظهر على أعدائه، ويسود جميع العرب.

وركب حصانه واقترب وهو ينادى: أنا سراقه بن مالك بن جعشم، انظروني أكلمكم، فوالله لا أرييكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

فقال رسول الله لصاحبه أبي بكر: " قل له: ما تبتغى منا؟

فقال سراقه: تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك إذا أظهرك الله على أعدائك.

فقال رسول الله لعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر: " اكتب له الكتاب الذى يطلب. هذا كتاب موادة وأمان من محمد رسول الله إلى سراقه بن مالك بن جعشم من بنى مدلج " وألقى عامر رقعة الجلد التى كتب عليها الكتاب، فأخذها سراقه ووضعها فى

كنانته وقد تعهد لرسول الله بأن يخفى أمره عن قريش، وأن يثبطهم عن مطاردته. ومضى عائداً إلى قريش، فأوفى بها عاهد رسول الله عليه حتى يئست قريش من الحصول عليه؛ ووصل إلى المدينة، وها هو - بعد ثماني سنوات - يرفع الكتاب الذي كتبه له عامر بن فهيرة، فقال رسول الله لفرقة الحراسة من فرسان الأنصار: "دعوه، دعوه.... أدنوه منى، أدنوه منى".

ودنا سراقه من رسول الله وبسط يده ليصافحه مبايعاً، وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت يا محمد رسول الله، فقال رسول الله: "هذا يوم وفاء وبر".

وقام سراقه يتأمل في ساق رسول الله وقد كُشف عنها الثوب، وهى موضوعة في ركاب الرحل، فبدت له - من امتلائها وتآلق بياضها المشوب بحمرة - كأنها قلب نخلة. وقال سراقه: يا رسول الله، قد سقت إليك صدقة (زكاة) مالى. فقال رسول الله: "خذوا من سراقه صدقته وأعطوه الأمان".

وأخذت سراقه الدهشة واستغرقت حال لا يعرف كنهها وهو يتأمل في الساق التى كُشف عنها، ويتذكر نبوءة رسول الله له: "كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ومنطقته" (ثوبه الذى يلف به وسطه)، وتاجه".

وشردت أفكاره وتطايرت من فؤاده كل الأسئلة، التى تمنى كثيراً أن يسأل عنها رسول الله، إن أسعفه القدر بلقائه، وتذكر سؤالاً واحداً - وهو يجب أن يطيل المكوث بين يدي رسول الله - فقال: يا رسول الله أرايت الضالة من الإبل، تغشى حياضى، وقد ملأتها لإبلى هل لى من أجر إن سقيتها؟

فقال رسول الله: "نعم، فى كل ذات كبدٍ حرى أجر" (٢٥).

*** **

واقتربت الجعرانة. صارت في مرمى البصر؛ فتسابق الناس يتطلعون إلى رؤية الغنائم الكثيرة، يحثهم ويحدوهم الطمع.

ورسول الله يسير متمهلاً على ناقته، قد استغرقه التفكير؛ فاندفعت ناقة «أبى رهم الغفارى» حتى زحمت ناقة رسول الله. وكان «أبو رهم» يلبس على قدميه نعلين غليظتين، فحك حرف النعل ساق رسول الله، فألمه ألماً شديداً، أخرجته عنوة من تأمله العميق في مصير أمته من بعده، وقد رأى "بعين النبى" الطمع الذى يتوقد في القلوب، ويشعل فيها الحسد، والتكالب على الدنيا، والصراع على السلطة، المفضى - لا محالة - إلى التفرق والخلاف.

فأسرع رسول الله - بباعث من بشريته - بقرع رجل أبى رهم الغفارى بالسوط، وهو يصيح فيه - وقد انتزعه الألم من اختلائه بنفسه - قائلاً: "آخر رجلك، قد أوجعتنى بنعلك".

وبوغت «أبو رهم» بضربة رسول الله وانتهاره له؛ وأحس كأن السماء قد وقعت على الأرض، وأنه هالك - لا محالة - لغضب رسول الله عليه؛ فوقف بينما كان الجيش يسرع في سيره إلى الجعرانة؛ وقضى الليل كله مؤرقاً، يحس كأن جبلاً عظيماً يثقل على صدره.

وفي الصباح خرج يرعى ناقته بعيداً عن معسكر المسلمين. كان يخشى أن ينزل فيه قرآن ينبئه بسوء المصير وبعقوبة عظيمة. حرص على أن يقضى اليوم كله بعيداً عن نظر رسول الله وأنظار المسلمين.

وفي المساء كان لا بد أن يعود إلى معسكر المسلمين، فقال له كل من قابله: لقد طلبك رسول الله طوال اليوم، فأين كنت؟!

فأسقط ما في يده، وقال في نفسه "هذا ما كنت أخشى". وذهب إلى رسول الله



خائفاً يترقب، وقام بين يديه مُطرقاً، وهو يحس أن الأرض توشك أن تفتح فاهها لتبتلعه.

ثم رفع رأسه مختلساً النظر إلى وجه رسول الله فوجده مبتسماً. فزايله بعض فزعه، وتسربت إلى قلبه بعض الطمأنينة، وقال رسول الله: "إنك أصبت رجلى بالأمس فأوجعتنى، فقرعتك بالسوط فأوجعتك. فدعوتك لأعوضك منها، فخذ هذه الغنم عوضاً عن ضربتى لك".

وتوجه رسول الله إلى خزنة (حراس) الغنائم، فقال لهم: "أعطوا أبارهم ثمانين نعجة".

ولم يملك أبو رهم نفسه من الدهشة، وشدة الفرح برضى رسول الله عنه، وقال: رضاه عنى كان أحب إلى نفسى من الدنيا وما فيها^(٢٦).

ولكن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض قالوا: إنه يبعثر غنائمنا على من يشاء بهواه، فأين حقنا؟! ما هذا السفه والإسراف؟!

** ** ** ** **

(٣)

حكيم بن حزام

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]

سته آلاف رأس من النساء والأطفال، وأربعة وعشرون ألفاً من الإبل، وأكثر من أربعين ألفاً من الشاة (الضأن والماعز) وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وأكوام من الأمتعة (القدور والأوعية والملابس،.....)، كل ذلك كان مجموعاً ومحبوساً في الحظائر بمنطقة الجعرانة، قريباً من الجمرات التي يرمج عندها الشيطان، تحت حراسة ضعيفة يتولاها أبو سفيان بن حرب، ومسعود بن عمرو الغفاري، وبديل بن ورقاء الخزاعي. كل تلك الغنائم كانت مرمى النظرات الطامعة من عيون صناديد قريش وشبابها، والأعراب الذين قاتلوا من أجل الغنيمة، والمقاتلين الشجعان الذين اشتبهوا أن يذوقوا ثمرة جهدهم وكفاحهم.

وتباطأ رسول الله في تقسيم الغنائم على المقاتلين، أكثر مما اعتاد في أغلب معاركه، وأكثر مما يطيق صبر الرجال الذين يتعجلون قطف ثمار جهادهم.

وسار رسول الله في جمع من أصحابه حول معسكر الغنائم، ونظر إلى امرأة من السبي ترضع وليدها، وقد ألصقته ببطنها، فقال لهم: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟!"

فقالوا له: لا. والله وهي تقدر على أن لا تطرحه.

فقال: "ولا الله بطارح عبده حبيبه في النار. لله أرحم بعباده من هذه بولدها"

فقالت المرأة: ولكنك تقول إن الله يطرح عبده في النار "فبكي رسول الله".

وكانت هذه المرأة قد فقدت رضيعها، في وادي حنين، عندما فر جيش هوازن منهزماً، تاركاً النساء والأطفال والأموال. فكانت تسعى في السبي وراء أى صبي لترضعه لتخفف من ألم احتشاد اللبن في ثدييها، فلما وجدت وليدها، التزمت ولم تدعه يفلت منها خوفاً من أن تفقده مرة أخرى^(٢٧).

** **

وخرج رسول الله ذات ضحى من خيمة امرأته أم سلمة، بينما كان أبو موسى الأشعري وبلال بن رباح يتقدمان إليه، فإذا بأعرابي يهرول نحو رسول الله، ويجذبه بغلظة من رداءه، وهو يقول بصوت عال ينضح بالغضب والسخط: ألا تنجز لى ما وعدتني؟ وكان الرجل قد ألح على رسول الله كثيراً أن يعطيه نصيبه من الغنيمة - منذ كانوا في وادي حنين - وأن يفرض له شيئاً من "خمس الغنيمة" - وهو حظ رسول الله من الغنائم بموجب حكم القرآن - وكان رسول الله يقول له في كل مرة: "أبشر" يريد أن يطمئنه على حصوله على حقه من الغنائم، وعلى رضى الله ورحمته إن أطاع وصبر.

فرد عليه الإعرابي في جفاء وغلظة: قد أكثرت على من قولك أبشر. يعنى ولم تعطني شيئاً غير الكلام. فغضب رسول الله وبدأ على وجهه الأسف، بينما كان الأعرابي يوليه ظهره، وهو ينصرف ساخطاً غاضباً.

فالتفت رسول الله إلى أبى موسى الأشعري وبلال بن ربا، وأقبل عليهما بوجهه قائلاً لهما: "رَدَّ البُشْرَى. فاقبلا أنتم!!"

فقالا في إيمان، يرجوان الخير: قبلنا.

فدعا رسول الله بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه، ثم مح (بصق) في القدح، وقال لهما: "اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما، وأبشرا"

فابتدر بلال القدح الذى توضع فيه رسول الله، وأسرع يشرب منه ويغسل وجهه ونحره. وأقبل أبو موسى الأشعرى، ينافسه. وأدركت أم سلمة ما يحدث على باب خيمتها، فنادت عليهما من وراء الحجاب داخل الخيمة، وقالت لهما: أفضلا لأمكما شيئاً.

وعلم الناس، فأسرعوا يبتدرون القدح الذى فيه ما بقى من الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه، ونجح أبو موسى الأشعرى وبلال فى أن يبقيا طائفة من الماء فأعطياها لأمهاتهما: أم سلمة^(٢٨).

** **

وجاء النضير بن الحارث يحوم مقترباً من معسكر الغنائم بالجعرانة... كان قد فر يوم حنين، بعد أن رأى الملائكة ذوى العمام الحمر على خيولهم البلق، يصيحون فى وجهه غاضبين "إليك.. إليك" يتطايرون من عيونهم ما يشبه الشهب، عندما اقترب يريد اغتيال محمد، فامتلاً قلبه رعباً، وفر هارباً وسط فلول هوازن، ترتعد جوارحه ومفاصله، حيث كانت همّة كل رجل نفسه، فهبط وادى أوطاس. اختبأ فى غابة من الشجر، لا يريد أن يرى أحداً، ولا أن يراه أحد. كان يريد أن يخلو إلى نفسه؛ ليفكر فى مصيره. وهناك، تذكر أن ما حدث فى حنين ورآه بعينه يؤكد ما قيل عن نزول جنود السماء يوم بدر منذ ستة أعوام.

"إذن، فربما كان الرجل على حق، وإنه لمعصوم لا يستطيع مخلوق أن يقتله". وفكر فى القبائل العربية التى بدأت تدخل فى دين محمد، وتدين له بالطاعة. وفى أن سيادة محمد وعلو نجمه سيؤلّان إلى عز قريش وشرفها، بل وعز العرب وشرفهم جميعاً.

ووصلت إليه الأنباء أن محمداً ذهب إلى الجعرانة ليقسم الغنائم الوفيرة التى نالها من هوازن على أتباعه.

" فلماذا لا أذهب إليه في الجعرانة، وأدخل فيما دخل فيه الناس؟! " ووجد النضير بن الحارث نفسه تسوقه قدماه إلى الجعرانة. وإذا برسول الله يطوف على ناقته حول معسكر الغنائم، فيراه يتحرك مضطرب الخطى، يتردد في الاقتراب، فصاح به منبهاً: " النضير .. فقال على الفور: لبيك.

فقال رسول الله: " هذا خير لك مما أردت يوم حنين. فحال الله بينك وبينه؛ الحمد لله الذى أراد بك خيراً مما أردت لنفسك ".

فهرول النضير مسرعاً نحو رسول الله، فقال له: " ألم يأن لك أن تبصر حقيقة ما يجرى فيك وحولك؟! "

فقال النضير: " قد أرى أن لو كان مع الله إلهاً غيره لأغنى عنا شيئاً. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنت رسول الله ".

فدعا رسول الله ربه قائلاً: " اللهم زده ثباتاً "

فرفع النضير يده، ومدّها مبايعاً رسول الله. ثم انصرف إلى أصحابه من صناديد قريش.

وأمر رسول الله من حوله من أصحابه: أعطوه مائة من الإبل^(٢٩).

وكانت منحة رسول الله إلى النضير بن الحارث فاتحة لباب فتنة كبيرة؛ إذ رأى جمع من الأعراب أن " محمداً " يبدد غنائمهم وينفقها كما شأّت أهواؤه. وزاد المنافقون هذه الفتنة اشتعالاً.

فلم يطق الأعراب صبراً، فاندفعوا نحو رسول الله، وهو فوق ناقته، فتعلقوا به، وجذبوا ثوبه، وعدلوا بناقته عن الطريق، فمال إلى ممر ضيق على جانبيه سمرة (أشجار شوك) فانتزعت سمرة رداءه، لما أراد أن يخلص نفسه. كانوا يصرخون بصوت غليظ: اقسم علينا غنائمنا. اعطنا حقنا. فصاح فيهم: " أيها الناس ردوا علىّ ردائى. أيها

الناس أعطوني ردائي، فو الذى نفسى بيده، لو كان لكم عندى عدد هذه العضة (أشجار الشوك) أو عدد شجر تهامة نَعَمًا (إبلًا ومالًا راعيًا) لقسمته بينكم، ثم لا تجدوننى بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا".

وانطلق صوت بلال يفتح أبواب السماء بأذان صلاة الظهر. فنزل رسول الله من فوق ناقته ليؤم الناس فى الصلاة، وتجمع الناس فصلّى بهم رسول الله. فلما انصرف من صلاته، قام إلى جنب بعير من الغنائم، فتناول بأنمليتين وبرة صغيرة من سنامه، وجعلها بين إصبعيه وهو يقول: "يا أيها الناس، إن هذه - وأشار إلى البرة بين إصبعيه - من مغنمكم، ووالله إنه لا يحل لى من غنائمكم قدر هذه البرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ الخمس، والخمس مردود عليكم؛ فأدوا الخياط (الإبرة) والمخيّط (الفتيل)، فما هو فوق ولا تغلّوا، إياكم والغلول، فإنه عار على أهله فى الدنيا، نار وشنار يوم القيامة"^(٣٠).

وبادر بعض من كانوا غلّوا أشياء من الغنائم بإعادتها. وجاء رجلٌ من الأنصار بكُبة (لفة) خيط من خيوط شعر إلى رسول الله، فقال له: أخذت هذه البرة لأُخيط بها برذعة بعير لى، أصابه الدبر (جرح فى ظهر الدابة).

فقال رسول الله: "أما حقى منها فهو لك" يعنى إننى متنازل عن نصيبى فيها وهو الخمس.

فاندesh الرجل، ثم قال: أما إن بلغ الأمر فيها هذا فلا حاجة لى فيها، فرمى بها من يده^(٣١).

* * * * *

ولم يعد فى الإمكان انتظار وفد هوازن بعد هذا؛ فأمر رسول الله زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم، وتقدير الخمس وعزله، واحضار الناس ليأخذ كل واحد نصيبه من

الغنائم بعد خصم الخمس، الذى يخص رسول الله. وهروا الناس وتزاحموا وعلا ضجيجهم. وأخذ كل واحد منهم حقه. وقد قُدِّر نصيب الفارس بثلاثة أضعاف الراجل (أحد الجنود المشاة) وقُدِّر الإنسان من السبي سواءً أكان امرأة أو طفل بست من الإبل. فكان نصيب الراجل (أحد المشاة) أربع من الإبل، أو أربعون شاة، ونصيب الفارس اثنتا عشرة من الإبل أو مائة وعشرون شاة، ولا يحسب له إلاّ سهم فرس واحد. وذهبوا بغنائمهم فرحين.

** **

وجاء النضير بن الحارث فى كوكبة من صناديد قريش، فجلسوا بين يدي رسول الله. فسأل النضير رسول الله عن الصلاة ومواقيتها. ثم قال: يا رسول الله، أى الأعمال أحب إلى الله. فقال رسول الله: "الجهاد والنفقة فى سبيل الله" (٣٢).

ونظر أبو سفيان إلى ما بقى من الغنائم بعد فضها على المقاتلين "ألف ومائتان من الأنفس نساءً وأطفالاً، وما يقرب من خمسة آلاف من الإبل، وثمانية آلاف من الشاة... كل ذلك سيذهب إلى "محمد" يتيم قريش، الذى كفله السيد المملق أبو طالب "مفلس بنى هاشم".

وقال أبو سفيان: لقد أصبحت يا ابن أخى أكثر قريش مالاً. لم تستطع النظرة المتوددة أن تخفى عن رسول الله الحقد والحسد اللذان يغليان فى القلب. فتبسم رسول الله، وأحب أن يتألف تلك القلوب المرتابة، التى توشك على التردى فى النار.

فقال رسول الله لزيد بن ثابت: "أعط أبا سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة" وأوشك أبو سفيان أن يطير من الفرح، لا يكاد يصدق أذنيه. وامتدت عيون صناديد قريش لمثل هذا العطاء الوفير، الذى لم يخطر لهم على بال. فأسرعوا يتوافدون عليه، ويصطفون بين يديه يسألونه العطاء، فأخذ ينثر عليهم نصيبه من الغنائم.

وجاء أشرف القبائل الأخرى، لما سمعوا بهذا العطاء الذى لم يسمعوا بمثله من قبل. فطفق يعطيهم. ولم يقسم بينهم بالسوية؛ فأعطى بعض الزعماء مائة من الإبل، لكل واحد منهم مثل عينة بن حصن زعيم بنى فزارة، والأقرع بن حابس أحد زعماء بنى تميم، وزيد الخيل بن مهلهل الطائي، وغيرهم. وأعطى بعض الرجال خمسين من الإبل لكل واحد منهم، وأعطى آخرين أقل من ذلك أو أكثر.

وأخر حكيم بن حزام نفسه، طامعاً أن يعطيه رسول الله أكثر مما أعطى الآخرين من زعماء قريش وغيرهم؛ لقرابته منه " أنا ابن أخى خديجة بنت خويلد، أول أزواجه، وأحب نسائه إليه ".

فأمر له رسول الله بخمسين من الإبل، فبدا السخط والنفور على وجه حكيم، وقال: يا رسول الله، ما كنت أظن أن تقصر بى دون أحد من الناس. فأمر رسول الله له بثلاثين من الإبل، ولم يقنع حكيم ولم يرض، وقال: يا رسول الله زدنى، فزاده رسول الله عشرين من الإبل، فآتم له المائة.

ثم قال له: " يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه. ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه. وكان كالذى يأكل ولا يشبع. ومن يستغنى يغنى الله، ومن يستغنى يغنى الله، واليد العليا خير من اليد السفلى، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى. وابدأ بمن تعول "

وفقه حكيم الدرس، فقال: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً، ولا تكون يدي تحت يد أحد من العرب، حتى أفارق الدنيا^(٣٣).

ثم قال حكيم: يا رسول الله، أرأيت أموراً كنت أتحنث (أتعبد) بها فى الجاهلية من صلة، وعتاقة وصدقة، هل لى فيها من أجر؟

وكان حكيم قد أعتق فى الجاهلية مائة رقبة، وحمل على مائة بعير.



فقال رسول الله: "أسلمت على ما سلف لك من خير. إن الكافر يثاب في الدنيا بالرزق على ما يفعله من حسنة"

فقال حكيم: فو الله لا أدع شيئاً صنعته في الجاهلية؛ إلاّ فعلت مثله في الإسلام^(٣٤).

*** **

(٤)

عبد الله بن ذى الخويصرة التميمي

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]

بقى رسول الله جالساً عند معسكر الغنائم، وحوله كبار أصحابه من المهاجرين والأنصار، يفرق نصيبه (الخمس) على من يفد إليه من الناس ويسأله العطاء؟ وجاء الكثير من الأنصار وجلسوا بين يديه، يتطلعون إلى وجهه، يسألونه العطاء بلسان الحال. فلم يعطهم شيئاً، وتغافل عن سؤالهم. لم يعط إلاّ عباس بن مرداس، الشاعر الذى سجل بقصائده مشاهد يوم حنين. أعطاه أربعاً من الإبل فقط. فنظر عباس إلى الأباغر ساخطاً، وغلى صدره بالغضب: " يعطينى أنا أربعاً، ويعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، كل واحد منهما مائة من الإبل " وذهب مغتاضاً غاضباً يغلى صدره، والأنصار يتبادلون فيما بينهم النظرات والهمس " ما هذا الظلم؟! ".

وجاء جعيل بن سراقه الضمري مقرباً من مجلس رسول الله، وكان جعيل بن سراقه رجلاً من عوام الفقراء.

فهمس رسول الله إلى أبى ذر الغفارى: " كيف ترى جعيلاً؟ "

فقال أبو ذر: أحد الرجال، كشكله من الناس. إذا حضر لم يؤبه له، وإذا غاب لم يفتقد، وإذا تكلم لا يسمع له، وإذا استأذن لا يؤذن له، وإذا خطب لم يُنكح.

واندس جعيل بين الرجال دون أن يلتفت له أحد. جلس وسط المتطلعين إلى العطاء، ينظر إلى رسول الله وهو يفرق نصيبه من الغنائم على من يفد إليه.

ومر أمام الجمع، عيينة بن حصن شاخاً بأنفه، متخايلاً في مشيه، يسوق المائة من الإبل التي أمر رسول الله له بها.

فهمس رسول الله إلى أبي ذر قائلاً: " فكيف ترى عيينة بن حصن؟ "

فقال أبو ذر: سيد من سادات الناس، حرى به إذا حضر أن يُتنبه إليه، وإذا تكلم أن يُسمع له، وإذا غاب أن يُفتقد، وإذا خطب أن يُنكح.

فقال رسول الله: " والذي نفسى بيده، إن هذا - وأشار إلى جعيل الجالس بين يديه وسط الناس - خير من ملء الأرض من هذا - وأشار إلى عيينة المار أمام الجمع " فأصاب أبا ذر الدهول، وقال متحيراً كالمعترض: فعيينة هكذا وأنت تصنع به ما صنعت وتعطيه ما أعطيت؟! "

فقال رسول الله: " إنه رأس قومه؛ فأنا أتألفهم به "

وظل رسول الله يقسم ما بقى من نصيبه من الغنائم على بعض من حضر من الرجال. وكان سعد بن أبى وقاص ينظر القسمة، ويتنظر أن يعطى رسول الله جعيل بن سراقه شيئاً، لإيمانه وحسن إسلامه وفقره.

ولكن رسول الله تغافل عن جعيل بن سراقه، وعن نظراته المتطلعة إلى العطاء. فقام سعد بن أبى وقاص، ومال إلى رسول الله فهمس له: ما لك عن جعيل بن سراقه؟! والله إنى لأراه مؤمناً! "

فقال رسول الله: " أو مسلماً "، ينبه سعداً إلى توقي الحكم بالإيمان على إنسان؛ لأن الإيمان مُستودع في القلب (الباطن) ولا يعلم ما في الباطن إلا الله. وسكت رسول الله ولم يقل شيئاً. وظن سعد أن رسول الله سيستجيب لطلبه، ويعطى جعيلاً شيئاً من الغنائم. ولكن رسول الله واصل إعطاء الرجال ولم يعط جعيلاً شيئاً. فقام سعد مرة أخرى إلى رسول الله وقد غلبه ما يعلم من حال جعيل بن سراقه، فقال: يا رسول الله،

ما لك عن جعيل بن سراقه؟! والله إنى لأراه مؤمناً.

فقال رسول الله: "أو مسلماً" وسكت. لم يصف شيئاً. فعاد سعد إلى مجلسه وهو يظن أن رسول الله سيعطى - في نهاية الأمر - جعيلاً شيئاً من الغنائم، ولكن رسول الله لم يعطه شيئاً. وأوشكت الغنائم أن تنفذ بعد أن أخذ منها الرجال. فانتفض سعد بن أبى وقاص، وقام إلى رسول الله، فقال له - ولم يخف اعتراضه وعدم رضاه -: يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وتركت جعيل بن سراقه الضمرى!!

فضرب رسول الله بيده صدر سعد، وأمسك بتلابيب ثوبه جامعاً بين عنقه وكتفه وقال له: "يا سعد، إنى لأعطى الرجل، وغيره أحب إلىّ منه، خشية أن يُكب على وجهه في النار. أما والذي نفس محمد بيده، لجعيل بن سراقه خير من طلاع (ملء) الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكنى تألفتها ليسلماً، ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه".

وكان كثير من الأنصار قد توافدوا مسرعين؛ ليأخذوا مثل ما أخذ صناديد قريش وزعماء وأشرف القبائل الأخرى.

ففرق رسول الله ما بقى من نصيبه من الغنائم على بعضهم. ونفدت الغنائم كلها ولم يأخذ كثيرون منهم شيئاً. فأحسوا بالظلم وعتبوا في أنفسهم على رسول الله ما صنع. وكان لا بد أن يوضح لهم "سبب" ما عمله، والحكمة من ورائه. فقام فيهم خطيباً فقال: "الحمد لله رب العالمين، له الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير، أما بعد، فوالله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلىّ من الذى أعطى، ولكنى أعطى أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير (الإيمان) والغنى، ومنهم عمرو بن تغلب" وأشار إليه وسط الرجال. وكان عمرو بن تغلب يتطلع إلى أن يأخذ شيئاً من خمس رسول الله، كما

أخذ غيره، ولكنه صبر واحتسب أجره عند الله، مروضاً نفسه على قبول ما صنع رسول الله، مؤمناً بصوابه وحكمته^(٣٥).

ثم توجه بخطابه إلى الذين لم يأخذوا شيئاً وعتبوا عليه بلسان الحال: " ما يكون عندي من خير، فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، وما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر. ومن سأل وله أوقية فقد ألحف "^(٣٦).

فقال أبو سعيد الخدرى فى نفسه: ناقتى خير من أوقية. فرجع دون أن يسأل النبى شيئاً. وكانت أمه قد أرسلته إلى رسول الله ليسأله العطاء كما أعطى "غيرنا من الناس". وانصرف عامة الناس من عند رسول الله بين ساخط وراضٍ.

** ** *

وجاء عبد الله بن حرقوص بن زاهير الملقب بـ«ابن ذى الخويرة» التميمى رجل من بنى تميم، بعد أن فرغ رسول الله من قسم خمسة على المؤلفلة قلوبهم، فلم يبق لابن ذى الخويرة شيء، فامتلاً قلبه بالحقد والغيط والحسد؛ فاندفع يصيح بصوت غليظ وصدره يغلى: يا محمد، قد رأيتُ الذى صنعت فى هذا اليوم.

فقال رسول الله مستفسراً ومتلطفاً: " أجل، فكيف رأيت؟ "

قال ابن ذى الخويرة: يا محمد، والله لئن كان الله قد أمرك أن تعدل، فإننى أراك لم تعدل، يا رسول الله، اعدل، فإنك لم تعدل!!

بوغت رسول الله بهذه الكلمات، التى تندفع كأنها حمم تُقذف من بركان يغلى ويمور بالسخط والغضب. ونظر إلى الوجه القبيح، رأس مخلوق ولحية كثة شعثاء، وعينان غائرتان - بين جبهة ناشزة، ووجنتين بارزتين - تقذفان بالنفور والحسد. كان الغضب يصبغ وجه رسول الله، كأنه شمس محرقة، وصيحات الغضب والذم تتعالى

من أصحاب رسول الله الذين اجتمعوا حوله. لا يتصورون أن إنساناً يمكن أن يكلم رسول الله بهذا الفحش.

وقال رسول الله مستمسكاً بحلمه ورأفته: "ويحك!! ومن يعدل إذا لم أعدل! لقد شقيت وخسرت إن لم أعدل. العدل؟!... عند من يلتمس العدل بعدى؟!، والله لا تجدون بعدى رجلاً أعدل عليكم منى. من يعدل إذا لم يعدل رسول الله؟!!"

وكان عمر بن الخطاب قد فاض من قلبه الغضب، ولم يستطع أن يملك نفسه، فانتفض، وانقض على ابن ذى الخويصرة، فأمسك بخنقه، ووضع السيف على عنقه، وقال: يا رسول الله، ألا تضرب عنقه، دعنى أضرب عنق هذا المنافق، ائذن لى فيه فأضرب عنقه.

وأسقط فى يد ابن ذى الخويصرة. غطى جسده عرق بارد لزج، وملى قلبه رعباً. وشعر بالاختناق وضربت الزرقة وجهه الأسود فازداد ظلاماً. شخصت عيناه وانسكبت منهما نظرات زائغة إلى السيف الموضوع على رقبته، وإلى وجه "محمد" الذى لم يزايله الغضب. "بكلمة واحدة، بل بإشارة من يده، أو إيباءة برأسه، يُضرب عنقك يا عبد الله، وتسقط رأسك ويضيع عمرك هباءً منثوراً".

ونظر إلى وجه "محمد" - الذى لم يزل يسطع بالغضب - بعينين تفيضان بالمذلة والفرع. جف لسانه حتى صار كحطبة جافة، وضاق صدره. كأن جبلاً ثقيلاً يجثم عليه، تهاوت قوته، والتفت ساقاه على بعضهما، حتى لم يعد قادراً على القيام. لقد أصبح على حافة هاوية الموت.

وجاء صوت "محمد" ليتشله من بحر الظلمات الذى أوشك أن يغرق فيه، قال: "لا دعه يا عمر" وأذن عمر للأمر، فتراخت قبضته وأغمد سيفه. فانطلق ابن ذى الخويصرة يجرى، كأنه يهوى من عل، لا يكاد يصدق أنه نجا. كان يسرع كفأر خرج من المصيدة، فاراً بحياته، لا يلوى على شيء.

ثم واصل رسول الله حديثه: "دعه، معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي.

لا أحب أن يسمع المشركون أن محمداً يقتل أصحابه "

ثم سكت. وواصل الصمت للحظات مطرقاً، كمن يستمع لأحد يهمس له في سره. ثم رفع وجهه وقال: " سيكون بعدى من أمتى لهذا أصحاب وشيعة يدأبون في العبادة، ويتعمقون في الدين، حتى يُعجبوا الناس، وتعجبهم أنفسهم، يأتيهم الشيطان من قبل دينهم يحسنون القول ويسئون الفعل "

ثم صمت قليلاً. وعاد ليقول وهو ينظر إلى الأفق كمن يرى شيئاً يلوح هناك:

" يخرج فيكم، في هذه الأمة، قوم من قبل المشرق - وأشار بيده إلى جهة الشرق - يقولون مثل قوله، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وعمله مع عملهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن رطباً، كأحسن ما يقرأه الناس. لا يجاوز تراقيهم، ولا تعيه قلوبهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، عرضت للرجال فرموها. فخرج منها سهم أحدهم. فينطلق يتوخى الصيد حيث وقع السهم فيأخذه. فلا يرى عليه شيئاً فينظر في نصله، فلا يرى عليه شيئاً من الدم أو الفرث، ثم ينظر إلى رصافه، فلا يوجد فيه شيئاً، ثم ينظر إلى نضيه، فلا يوجد فيه شيء "

يقول: إن كنت قد أصبت، فإن بالريش شيئاً من الدم، فينظر إلى قذذه، فلا يوجد فيه شيء.

فيتمارى في الفُوقه هل علق بها شيء من الدم أو الفرث؟! فينظر فيها، فلا يراها تعلق بشيء "

قد سبق السهم الدم والفرث

كذلكم هؤلاء، يخرجون من الإسلام، لا يتعلقون بشيء منه، كما لا يتعلق بذلك السهم شيء من الدم أو الفرث. ولا يرجعون إليه أبداً، حتى يرتد السهم إلى فُوقته "

ووضع رسول الله يديه وراء ظهره.

وأصاب الحاضرين الفرع لقوله: " يخرج فيكم، في هذه الأمة "؛ إذ أيقن المؤمنون منهم أنهم سيشهدون خروج أولئك الموصوفين. فقال رجل أحس بالخطر الوشيك: يا رسول الله، متى يخرجون؟

فقال رسول الله: " يخرجون على حين فرقة من الناس، إذ يكون في أمتي فرقتان، فتخرج من بينهما طائفة مارقة، يقتلهم أولى الطائفتين بالحق "

وزادهم حديث رسول الله خوفاً. فقال الرجل: يا نبي الله، صفهم لنا؟

فقال رسول الله: " هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا "

ولم يطق السائل صبراً؛ لأن هذه الإجابة لم تجب عن الأسئلة الكثيرة التي تزاхت في عقول الحاضرين، ولم تشف الغليل.

فقال: يا نبي الله ما سيماهم؟ وهل لهؤلاء القوم آية؟

فقال رسول الله: " سيماهم التحليق، يخلقون رؤوسهم وآيتهم أن فيهم رجلاً أسود، مخرج اليد، إحدى عضديه، ليس له ذراع، كأنه ثدى امرأة حبشية، أو بضعة تدر در فيها شعرات كأنها سبلات، سبع أو سنور "

وشخصت أبصارهم إلى وجه هذا النبي مشرق الوجه، الذي يصف المستقبل كأنه يطالع كتاباً مفتوحاً مبسوطاً أمام بصره، ويقص عليهم ما لم يحدث بعد!!

وامتلأت أفئدتهم بالأسئلة، وغاصت صدورهم في الحيرة والهواجس مما سيأتي في الغد القريب، بينما كان رسول الله يواصل حديثه " ينشونشوا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج في أعراضهم الدجال " (٣٧).

*** **

(٥)

معتب بن قشير

﴿يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]

كانت قسمة رسول الله لخمسه (لنصيبه) - من غنائم يوم حنين بمنطقة الجعرانة - سبباً لإثارة فتنة كبيرة في صفوف المسلمين، الذين رأوها قسمة ضيزى، ظالمة غير عادلة، خاصة الأنصار الذين ملأهم الشعور بأنهم لم يأخذوا حقهم والمعاملة اللائقة بجهادهم في نصرته الإسلام والدفاع عن رسول الله، خاصة يوم حنين؛ إذ كانوا أول من لبي نداء رسول الله بالعودة إلى القتال بعد الخذلان والفرار في أول المعركة، الذى ضرب المقاتلين من شباب قريش في مقدمة الجيش، فكاد تقهقرهم أن يلحق الهزيمة الماحقة بالمسلمين، بل يقضى على حياة الرسول نفسه، لولا ثباته المبهى الذى لا يقدر عليه غيره، ولولا سرعة إجابة الأنصار لنداء رسول الله بالعودة إلى القتال " حين حمى الوطيس ".

وكان أول المجاهدين بالسخط، المعبرين باللسان عما يضيق به الصدر من الغيظ والنفور، عباس بن مرداس، الشاعر الذى سجل بقصائده المطولة النصر المبين للمسلمين يوم حنين، متفاخراً بقتاله وجهاد قومه في نصرته رسول الله.

ظل يفكر في مرارة، ويحتر حزنه وسخطه، وهو ينظر - متحسراً على جهاده - إلى فرسه - الذى كان يسميه العبيد - وإلى الأباغر الأربعة التى كانت نصيبه من خمس رسول الله.

" أعطى عينية بن حصن، والأقرع بن حابس، وغيرهما من المنافقين، الذين لم يفعلوا شيئاً في القتال... يعطى كل واحد منهم مائة من الإبل ويعطينى أنا أربعة فقط. يالها من قسمة ضيزى "

وفاض اللسان بما يجيش في الصدر، فانطلق يقول:

كانت نهاباً تلافيتها ** بَكَرَى عَلَى الْمُهْرِ فِي الْأَجْرِ
وإيقاظى القوم أن يرقدوا ** إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجَعْ
فأصبح نهبى ونهب العبيد ** دَبَّ بَيْنَ عَيْنِيَةِ وَالْأَقْرَعِ
وقد كنت في الحرب ذاتِ درأ ** فَلَمْ أَعْطِ شَيْئاً وَلَمْ أُمْنَعْ
إِلَّا أَفْئِلَ أَعْطَيْتَهَا ** عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ
وما كان حصن ولا حابس ** يَفُوقَانِ مُرْدَاسَ فِي الْمَجْمَعِ
وما كنت دون امرئ منهما ** وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ^(٣٨)

وانتشرت القصيدة كالنار في هشيم السخط المكتوم في القلوب، فبلغت رسول الله، فضاق صدره بما يقولون.

فاستدعى عباس بن مرداس وأوقفه بين يديه وقال له: " أنت القائل فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعينية "

فلاحظ أبو بكر الصديق أن رسول الله لم يرو بيت الشعر على النحو الصحيح الذى يحافظ على نظمه (موسيقاه). فقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى لم يقل كذلك.

فظن رسول الله أن عباس بن مرداس لم يقل ما قد بلغه، فقال: " فكيف قال ؟ "

فقال أبو بكر: قال بين عينية والأقرع وأنشد القصيدة.

فقال رسول الله: " هما سوءاء. ما يضررك بأيهما بدأت "

فتبسم أبو بكر، وأدرك أن رسول الله لا يهتم بوزن (موسيقى) الكلام، وإنما يهتم بالمعنى. فقال: والله ما أنت بشاعر وما أنت براوية. وصدق من قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

فقال رسول الله ولا يزال الغضب يكسو وجهه بلون الشفق: "اذهبوا به واقطعوا عنى لسانه".

وبوغت الناس؛ إذ ظنوا أن رسول الله يأمر بقطع لسان عباس بن مرداس ليُمثَّلَ به، ففزعوا. ولكن أبو بكر الصديق فهم المقصود، فقال: "أعطوه ما يرضيه من الإبل والشاة" (٣٩).

*** **

وفتحت قصيدة عباس بن مرداس الباب للألسنة؛ لتنفس عما في الصدور من سخط وغيظ، فقال مُعْتَبُّ بن قشير في جمع من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذه القسمة وجه الله. إن هذه القسمة ما عُدِلَ فيها.

وسمعه عبد الله بن مسعود، فقال - في نفسه - والله لأخبرن رسول الله بما قال هذا المنافق. وحث عبد الله بن مسعود الخطي إلى رسول الله، فأثابه وهو في ملأ من أصحابه. فرأى أنه من الحكمة والأدب ألاَّ يجهر بما قيل. فأخذ يقترب من رسول الله حتى وصل إليه، وأسر له بما قاله معتب بن قشير. ورأى عبد الله بن مسعود الغضب يسطع من وجه رسول الله، الذي اكتسى بحمرة شديدة، كأنه صُبِغَ بالمغرة (صبغة نباتية حمراء اللون)، فندم على ما صنع؛ وود لو أنه لم يكن قد أخبر رسول الله بشيء مما قيل؛ لأسفه على ما أصاب رسول الله من مشقة.

ثم قال رسول الله: "فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله... يرحم الله موسى... لقد أودى بأكثر من هذا فصبر" (٤٠).

وجاء رجل أعرابي، يرتدى جبة وقد تضمخ بطيب (عطر) وقد فاح منه أثر الخلق (عطر يصنع من نبات الزعفران). اقترب من رسول الله وقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جبة بعدما تضمخ بالطيب؟ كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي؟

ونظر الرجل إلى وجه رسول الله، وانتظر منه إجابة عن سؤاله. ولكن لم تأت الإجابة. فرفع الرجل بصره إلى رسول الله، فإذا به يرى وجه رسول الله يمتقع، ويتدفق منه عرق غزير، ويغمض عينيه وقد بدا عليه إرهاق شديد.

وعرف أصحاب النبي أنه يوحى إليه، فأسرعوا يساعدونه على الرقاد ويغطونه بظلة. وهم يسمعون عند رأسه كدوى النحل.

فأشار عمر بن الخطاب إلى يعلى بن أمية التميمي " أن تعال فانظر ". وكان يعلى بن أمية يكلم عمر بن الخطاب كثيراً، معبراً عن رغبته الحميمة وأمله العظيم في أن يرى النبي في حال الوحي إليه. وقال عمر بن الخطاب ليعلى: ألا يسرك أن تنظر إلى النبي وقد أنزل الله عليه الوحي.

فأجاب يعلى متلهفاً " بلى.

فرفع عمر طرف الغطاء وقال له: فانظر.

فأدخل يعلى رأسه، فإذا به يرى وجه النبي وقد احمر لونه، ويصدر عنه صوت يشبه الغطيط (صوت تردد نفس النائم).

ومكث يعلى على تلك الحال لحظات، وهو يتأمل مذهولاً في "سر" ذلك الوحي، الذي سلب النبي إرادته، وأدخله في "عالم آخر" يسمع فيه ويرى ما لا يسمع "غيره" أو يرى. وقال يعلى في نفسه "ها هو وجهي يكاد يلتصق بوجهه وأسمع طنين الوحي ولكنني لا أعرف ماذا يقال..... سبحان الله".

تحت هذه الظلة..... وراء هذه القطعة من القماش..... خلف هذا الثوب، توجد حياة أخرى لا نستطيع أن نراها أو نشعر بها".

وأخرج يعلى رأسه، وقد استغرقته الدهشة.

ثم تحرر النبي من قبضة الوحي، فكشف الغطاء عن وجهه.

ثم قال: "أين السائل عن العمرة؟ أين الذى سألنى عن العمرة أنفا؟".

فأسرعوا يلتمسون الرجل، الذى كان قد خاف - لما رأى وجه النبي يتغير - فابتعد. ثم جئ به إلى رسول الله. فقال له: "ما كنت صانعاً فى حجك؟".

قال الرجل: أنزع عنى هذه الثياب وأغسل عنى هذا الخلق.

فقال رسول الله: "أما الجبة فانزعها (فاخلعها) عنك وأما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات واصنع فى عمرتك ما كنت صانعاً فى حجك" (٤١).

واقترَب كُتَّابُ الْوَحْيِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ؛ لِيَمْلَى عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِ، فَتَلَا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ وَلَوْ أُنْزِلَتْ مَاءً اتَّهَمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩] (٤٢).

*** **

لم ينل "الأنصار" شيئاً من عطايا رسول الله؛ لا كثيراً ولا قليلاً. فأثار حرمانهم السخط والغيط فى قلوبهم. وانطلقت الألسنة تفصح عما فاض من الصدور.

قالوا: "والله إن هذا هو العجب، إن سيوفنا لتقطر من دماء قريش، وغنائمنا تقسم عليهم.....

"يعطى من قاتله ويمنع من قاتل عنه..... إذا كانت شديدة فنحن الذين ندعى،

ثم يعطى الغنيمة غيرنا... يعطى الطلقاء من قريش. الذين كان يجب " قتلهم أو أسرهم واسترقاقهم".

" وددنا أن نعلم مم كان هذا؟ لماذا كان هذا الظلم في القسمة؟!! "

" إن كان أمر من الله صبرنا، وإن كان من رأيه استعتبناه. " الحق أقول لكم، إذا استقامت الأمور، وصحت العقول لقد أثر عليكم غيركم، الذين حاربوه وطرده من موطنه. "

" لقد عاد إلى قومه، وسيترككم ويهجر المدينة التي آوته ونصرته. "

وارتفع صوت الشاعر حسان بن ثابت، يعبر عن إحساس قومه من الأنصار بالظلم في قصيدة أنهاها بقوله:

فما ونيئا وما خينا وما خبروا * * * منا عثاراً وكل الناس قد عثروا

والمقصود: فلم أعطيت - يا رسول الله - الذين عثروا عند اللقاء وفروا من مواجهة الأعداء يوم حنين، وحرمت الذين ثبتوا وأسرعوا بإجابة ندائك.

وبالطبع، ذاعت قصيدة حسان بن ثابت، وتناقلت الألسن ما يشعر به الأنصار من ظلم وحرمان وهوان. وأشاع بعضهم أن محمداً سيتخلى عن الذين آووه ونصروه، وسيمكث في مكة وسط قومه.

واشتعل السؤال: أى الناس أكرم؟ وأى القبائل أشرف؟

وكان لابد أن تبلغ هذه الأقوال رسول الله، فملاً الأسف قلبه، واستغرقه غم شديد وهو يرى - بنور النبوة ومحبة الأمة - جذوة الخلاف والشقاق والتنازع تنبعث في القلوب وتوشك أن تشتعل ناراً تمزق وحدة أمته الوليدة.

وبينما هو على هذه الحال، إذ جاءه سعد بن عباد، زعيم الخزرج أكبر قبائل المدينة (يثرب). كان سعد يريد أن يستوثق من حقيقة النبأ الذى أشاع أن رسول الله تارك

المدينة وسيمكث في بلده مكة وسط قومه.

واستأذن سعد في الدخول على رسول الله، فأذن له. فسلم عليه وقال - وقد وشى صوته بالحزن والضيق والعتاب -: يا رسول الله؛ إن هذا الحى من الأنصار، قد وجدوا (غضبوا) عليك في أنفسهم.

فقال رسول الله مستفسراً عن السبب: فيم؟

فقال سعد: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك قريش، وفي سائر العرب. لما صنعت في هذا الفئ الذى صنعت، حيث قسمته في قومك وغيرهم من القبائل، وأعطيت عطايا عظيمة، ولم يكن في الأنصار منها شىء. وقالوا: إنك قد لقيت قومك..

فقال رسول الله: " فأين أنت من ذلك يا سعد؟

فقال سعد: ما أنا إلا أمرؤ من قومي.

وبوغت رسول الله بهذه الإجابة، التى لم تحمل أى رغبة في الاعتذار عما قيل، وإن قدّر فيها الصدق والأمانة. وشعر رسول الله أنه في مواجهة أزمة خطيرة، تهدد وحدة أمته التى لم تزل في طور الولادة، خارجة من ظلمات رحم القبائل المتنازعة، على السيادة والثروة.

ثم قال لسعد بن عباد: " فاجمع لى قومك الأنصار في هذه القبة - وأشار إلى خيمة حمراء اللون، قد صنعت من آدم (جلد مدبوغ) - ولا تدع أحداً من غيرهم، فإذا اجتمعوا فأعلمنى.

فخرج سعد من عند رسول الله، وانطلق ينادى زعماء قومه ليجتمعوا مع رسول الله. فلما احتشدوا في القبة الحمراء حتى فاضت بهم، أسرع سعد إلى رسول الله فقال له: قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم. فذهب إليهم رسول الله، وألقى عليهم تحية الإسلام " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم جلس أمامهم

ثم قال: هل فيكم أحدٌ من غيركم؟

قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا (يقصدون النعمان بن مقرن المزني الذي كانت أمه أنصارية من أهل المدينة وأبوه من بني مزينة) ^(٤٣).

فقال رسول الله: ابن أخت القوم من أنفسهم، ومولى القوم من أنفسهم وحليف القوم منهم" ^(٤٤).

ثم قام رسول الله خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟.

فسكتوا....

فقال: يا معشر الأنصار، ألا تحبون؟! ما يمنعكم أن تحبوا رسول الله؟!!.

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟! وما نقول؟ المَن لله ورسوله.

فقال: ألم آتكم متفرقين فجمعكم الله بي؟

قالوا: بلى يا رسول الله، الله ورسوله أَمَنّ.

قال: ألم آتكم أعداءً فألف الله بين قلوبكم بي؟

قالوا: بلى يا رسول الله، والله ورسوله أَمَنّ.

فقال: وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟

قالوا: الله ورسوله أَمَنّ.

فقال: والذي نفسى بيده، لو شئتم لقلتم، فصدقتهم ولصدقتهم

جئتنا طريداً فأويناك.

وخائفاً فأمنّاك.

وعائلاً فأسينّاك.

وَمُكَذَّباً فَصَدَقْنَاكَ.

وَمُخَذُولاً فَنَصَرْنَاكَ.

فصاحوا وتعالَت أصواتهم وهم يغالبون البكاء: بل الله المن علينا ولرسوله، المن لله ولرسوله.

فقال: فما الذى بلغنى عنكم؟

فسكتوا.....

فقال: ما حديث بلغنى عنكم؟!

وكان لابد من إجابة صادقة أمينة.

فقال أحد شيوخهم الحكماء: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً. وأما أناس منا حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطى قريشاً وسيوفنا تقطر من دمائهم، ويتركنا!!
فقال: إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وأنا أردت أن أجبرهم وأتألفهم. إنى لأعطى رجالاً حديثى عهد بكفر، أتألفهم بذلك.

يا معشر الأنصار، أوجدتم فى أنفسكم فى لعاعة (من أجل بقلة صغيرة حمراء ناعمة) من الدنيا؛ تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم فى قلوبكم من الإسلام.

يا معشر الأنصار، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا بالأموال، بالشاة والبعيرة، وتذهبون أنتم برسول الله إلى رحالكم، تحوزونه، حتى تدخلوه بيوتكم. فوالله لما تنقلبون (ترجعون) به خيرٌ مما ينقلبون به. فأخبرهم بذلك أنه سيرجع معهم ولن يبقى فى مكة.

ثم أراد أن يطمئنهم إلى حبه لهم وقربهم منه، فقال: يا معشر الأنصار، والذى نفسى بيده، لو أن الناس سلكوا واديا (مكاناً واسعاً سهلاً) وسلك الأنصار شعباً

(طريقاً ضيقاً بين الجبال) لسلكت شعب الأنصار. ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار.

يا معشر الأنصار، أنتم الشعار (الثوب الداخلى الملتصق بالجسد) والناس دثار (ثوب يوضع فوق الشعار).

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وتعالى نشيجهم يغالب أصواتهم وهو يقولون: رضينا بالله ورسوله حظاً وقسماً.

رضينا بالله ورسوله حظاً وقسماً.

رضينا بالله ورسوله حظاً وقسماً

رضينا بالله حظاً وقسماً

حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون^(٤٥)،

فقال رسول الله: يا معشر الأنصار، تعالوا بايعونى.

فقالوا وهم يكفون عن البكاء: علام نبايعك يا رسول الله؟

فقال رسول الله: على السمع والطاعة فى المنشط والمكره، وعلى النفقة فى العسر واليسر.

وَأَلَّا تَنَازَعُوا الْأَمْرَ (الحكم) أهله، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بَرَهَان.

وعلى الأمر بالمعروف (العدل) والنهى عن المنكر (الظلم)



وأن تقولوا بالحق حيثما كنتم، لا تخافون في الله لومة لائم، اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة.

ثم سكت رسول الله للحظات، وأطرق، ثم رفع إليهم وجهاً حزيناً وهو يقول: إنكم ستلقون بعدى أثرة شديدة.

قالوا: فما تأمرنا؟

قال رسول الله: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم، واصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض. موعداكم الحوض.

وحتى لا يتوهموا أن طاعة الحاكم واجبة على الدوام وفي كل الأمور حتى في معصية الله؛ قال: سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، ويفعلون ما تنكرون؛ فليس لأولئك عليكم طاعة؛ فلا طاعة لمن عصى الله^(٤٦).

أتبايعونني على هذا؟

قالوا: نعم. وتقدموا. فبايعوه^(٤٧).

** ** ** ** **

(٦)

زهير بن صرد

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]

شعر عمر بن الخطاب أن المقام بالجعرانة قد أوشك على الانتهاء، وأن رسول الله يوشك أن يؤذن بالرحيل، راجعين إلى المدينة.

وانسابت أحداث الماضي تجرى أمام قلبه في نهر الذكريات. فتذكر يوم الهجرة، حين خرج من بيته في مكة إلى الملاء من قريش، وهم جلوس في الضحى بين يدي الكعبة.... خرج إليهم شاهراً سيفه معلناً خروجه إلى أصحاب رسول الله في يثرب، متحدياً كل من يريد منعه بالقتل:

"من أراد أن تشكله أمه فليتبعني خلف هذا الوادي".

وتذكر ذلك المساء الذي نذر فيه أن يعتزل الناس ويعتكف يوماً وليلة في المسجد الحرام عند الكعبة؛ لعله يظفر في هذه البقعة المقدسة من الأرض بالنور الذي يضيء له الطريق إلى الحق، ويخلصه من الحيرة.

"هل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يكلمه الله بهذا الكلام العجيب الذي لا يشبهه كلام البشر... هل هو صادق، أم مجرد شاعر كذاب؟"

لكنه فوجئ بجمع من أصحابه يأتون إليه، يدعونه إلى السهر معهم ومشاركتهم شرب الخمر. فذهب معهم، ونسى نذره....

وفي هذا الصباح أسرع عمر بن الخطاب إلى رسول الله ليسأله.

قال: يا رسول الله، إني كنت في الجاهلية قد نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، ولكني لم أف بنذري حتى اليوم، فكيف ترى؟
فقال له رسول الله: اذهب واعتكف وأوف بنذرك.

وحدث عمر بن الخطاب خطاه إلى ابنه عبدالله؛ ليخبره أنه ذاهب إلى الكعبة، ليفي بنذره كما أمره رسول الله.

فقال له ابنه عبدالله: سألحق بك.

وذهب عبدالله بن عمر إلى الجارية، التي أهداها رسول الله إلى عمر من سبي هوازن، ولكن عمر تنازل عنها لابنه عبدالله.

قال عبدالله للجارية: سأخذك معي إلى مكة.

وانطلق بها إلى أخواله بمكة في بنى جمح. وطلب من النساء أن يصلحوا له من شأنها ويهيئوها؛ حتى يصيبها حين يرجع إليهم قبل أن يأخذها معه إلى المدينة. "لا بد أنها تحتاج إلى الكثير بعد أن قضت ما يقرب من أربعين يوماً في الحظائر بالجعرانة، بلا اغتسال ولا زينة ولا طيب" (٤٨).

*** **

وفي الضحى قبيل الظهر، جاء وفد هوازن. أربعة عشر رجلاً على رأسهم زهير بن صرد - من بنى سعد بن بكر بن هوازن، القبيلة التي رضع فيها رسول الله على ثدى حليلة السعدية - وفيهم أبو برقان، عم رسول الله من الرضاعة (أخو الحارث بن عبد العزى زوج حليلة السعدية). فاستأذنوا للدخول على رسول الله، فأذن لهم وطلب منهم ان ينتظروه في القبة الحمراء التي اجتمع فيها مع الأنصار وبايعهم.

وكانوا قد اتفقوا على أن يعلنوا إسلامهم، بعدما رأوا من كرم رسول الله مع أسراهم من الرجال الذي أعلنوا الإسلام في يوم حنين.

فلما جاء إليهم رسول الله قاموا له، وتعالّت أصواتهم بالشهادتين: " نشهد ألا إله إلا الله، وأنت يا محمد رسول الله " ثم تقدموا إليه فصافحوه.

فأشار إليهم بالعود، ثم قعد على الأرض أمامهم.

ثم قام أبو برقان فقال: يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والعمات والخالات والأخوات، وهن مخازي الأقوام. وجلس.

فقام زهير بن صُرد - زعيم القوم وخطيبهم - فقال: يا رسول الله، إنّا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، مَنّ الله عليك.

يا رسول الله، إن ما في الحظائر من السبايا عماتك وخالاتك (يقصد من الرضاعة) وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، وأنت رضيع في بني سعد بن بكر بن هوازن.

ولو أنا ملّحنا (أرضعنا) للحارث بن أبي شمر (ملك غسان: الإمارة العربية التي تقع في شمال غرب الجزيرة العربية على تخوم الشام وتُدور في فلك الروم) أو للنعمان بن المنذر (ملك الحيرة: الإمارة العربية التي تقع في شمال شرق الجزيرة العربية في جنوب العراق، وتُدور في فلك الفرس) ^(٤٩) ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك، لرجونا عطفها وعائدتها علينا.

وأنت يا رسول الله، خير المكفولين.

ثم انطلق لسانه بقصيدة، دارت أبياتها حول الكارثة التي حلّت بهم يوم حنين، واستعطف الرسول ليصفح عنهم ويمن عليهم، وتذكيره بأنه كان طفلاً رضيعاً فيهم، يلتقم ثدى امرأة منهم.

أَمِنَ عَلَى نِسْوَةٍ ** قَدْ كُنْتَ تَرْضِعُهَا

إِذْ فَوَّكَ تَمْلُؤُهُ ** مِنْ مُحَضَّهَا الدَّرُّ ^(٥٠)

وتأثر رسول الله بتضرعهم واستعطافهم حتى ترقرت عيناه بماء الرحمة. إنهم يطلبون السبايا والأموال جميعاً وليس هذا من العدل في شيء وهم الذين اعتدوا على المسلمين فبدأوا القتال وأرادوا قتله. فلا بد من أن ينالوا شيئاً من العقاب إحقاقاً للحق. ثم إنه قد انتظرهم طويلاً، أسبوعين كاملين؛ لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويأتون طالبين العفو والصفح. فلما تأخروا وطال الانتظار، ولم يستطع أن يكبح جماح المقاتلين الطامحين إلى الغنيمة وهي ثمرة جهدهم، قسّم الغنائم فصارت الآن في أيدي أصحابها فكيف يطلب منهم استردادها؟! ولكن في نفس الوقت يجب استرضاء هؤلاء المتضرعين، الطالبين للعفو والصفح، وتطبيب خواطرهم مكافأة لهم على دخولهم في الإسلام وتأليفاً لقلوبهم. ثم قام رسول الله خطيباً، فقال لوفد هوازن: " معي من ترون " - وأشار إلى جماعة المسلمين المنتشرين على أرض الجعرانة، يقصد أنني لا أستطيع أن انفرد بالأمر - وقد كنتُ استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون وقد وقعت المقاسم. سأطلب لكم. أما ما كان لي ولبنى عبدالمطلب فهو لكم.

وإن أحب الحديث إليّ أصدقه. فاختاروا إحدى الطائفتين أحب إليكم: إما السبي، وإما المال.

فمال بعضهم إلى بعض يتناجون. فلما تبين لهم أنه غير رادٍ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قام خطيبهم زهير بن صرد، فقال: خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال. فالحسب أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير. نختر سبينا.

فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبنى عبدالمطلب وبنى هاشم فهو لكم. فإذا صليت بالناس، فأظهروا إسلامكم. وقولوا إنا إخوانكم في الدين وجئنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ونستشفع بالمسلمين إلى رسول الله، ورغبوا إلى الناس اعطاءكم سبيكم. فإني سأعطيكم وأسأل الناس لكم.

وأخذ رسول الله يعلمهم الصلاة والتشهد.

وبعد الانصراف من صلاة الظهر، قام زهير بن صُرد ورجال من وفد هوازن فاستأذنوا رسول الله، فأذن لهم، فتكلموا كما علمهم رسول الله، وأحسنوا القول.

فقام رسول الله خطيباً فقال:

الحمد لله رب العالمين. مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويُعزّز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. يولج الليل في النهار. ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويرزق من يشاء بغير حساب.

أما بعد،

فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين. وإنّي رأيتُ أن أرد إليهم سييهم. فما كان لي ولبنى عبدالمطلب وبنى هاشم فهو لهم. فمن أحب أن يطيب ذلك غير مكره فليفعل. ومن أحب منكم أن يبقى على حظه، حتى نعطيه إياه فليفعل، وله بكل إنسان ست فرائض (سته من الإبل) من أول ما يفى الله علينا.

فتعالت أصوات من المهاجرين: ما كان لنا فهو لله ورسوله.

وعلا صوت الأقرع بن حابس: أما أنا ومن معي من بنى تميم فلا.

وتشجع عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وجاءت أصوات من الأنصار: وما كان لنا فهو لله ورسوله.

واعترض العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

فاعترضته أصوات بنو سليم قائلين: ما كان لنا فهو لرسول الله.

فصاح فيهم العباس بن مرداس مغيضاً مخذولاً: وهنتموني.

فقال رسول الله: إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا

عرفاؤكم أمركم.

وأعاد القضية حتى يختار كل واحد منهم رأيه وهو على بينة من أمره، فقال: من كان عنده منهن شيء، فطابت نفسه أن يرده، فسييل ذلك. ومن أمسك منكم بحقه، فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء يفيئه الله علينا.

واجتمعت كل طائفة من المسلمين، وتشاوروا في الأمر. ثم رأوا جميعاً أن يردوا ما بأيديهم من السبي طاعة وإكراماً لرسول الله. فذهب عرفاء الجماعات ورفعوا أمر الموافقة إلى رسول الله وأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا إلا عيينة بن حصن، فأبى أن يرد عجزواً قد اختارها من السبي. فدعا عليه رسول الله: اللهم أخس سهمه. وانطلق رجال هوازن إلى نسائهم وذريتهم، ليستردوا سبيهم من أيدي المسلمين، وهم فرحون، تتعالى أصواتهم بالتهليل والتكبير.

** ** *

وأسرع رجال هوازن مع سباياهم من النساء والأطفال إلى مكة، ليطوفوا بالكعبة شكراً لله على رد السبايا والتتأم شمل الأسر.

وفي صباح اليوم التالي، ذهب عبدالله بن عمر إلى نساء أخواله؛ ليطمئن على حال جاريته، فأخبرنه أنها صارت "عروساً مجلوة". فملأه السرور، وحث خطاه إلى الكعبة ليطوف بالبيت الحرام قبل أن يغادر مكة راجعاً إلى المدينة مع جاريته.

وفوجئ بجمع من الرجال والنساء والأطفال يهرولون في شوارع مكة، وتتعالى أصواتهم بالتكبير.

فقال له أبوه: اذهب، فانظر ما هذا الذي أسمعته؟

فذهب عبدالله يسألهم: ما شأنكم؟ ما هذا التكبير؟

فقالوا له: رد رسول الله علينا نساءنا وأبنائنا من سبي يوم حنين. لقد أسلمنا



فأرسل رسول الله سبينا.

وفوجئ عبدالله بهذا النبأ. وقال في نفسه "إذن لن تظفر بجاريتك" فرجع إلى أبيه فأخبره أن رسول الله منّ على السبي فأطلقهم، فقال له: اذهب إلى تلك الجارية فخلّ سبيلها.

فعاد عبدالله إلى رجال هوازن فقال لهم: دونكم صاحبكم فهي في بنى جمح، فانطلقوا فأخذوها^(٥١).

*** **

(٧)

عيينة بن حصن

﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]

عندما طاف عيينة بن حصن بسبى هوازن المحبوسين بالجعرانة؛ ليختار نفساً (امرأة أو طفلاً) لتكون سهمه من الغنائم، فإن اختياره وقع على امرأة عجوز قَدَّرَ أنها أم لجمع من الرجال، سيغلون ثمنها عند افتدائها منه "من المؤكد أنهم سيدفعون فيها أكثر من الست فرائض التي وعد محمد بها من يتنازل عن حقه في السبى.. فلا أحد يعلم هل سيأتي فئ كما يتمنى أم لا؟.. ولا أحد يعلم هل سيصدق ويفى بوعده أم لا؟.... وعلى الإنسان العاقل الحكيم أن يهتبل الفرصة السانحة، فيخطف الصيد الثمين الذي وقع في يده، لا أن ينتظر فرصة أخرى قد لا تأتي أبداً".

لذلك أصر عيينة بن حصن على أن يُبقى على المرأة العجوز التي وقعت في يده، ولم يرض أن يفرط فيها، رغم كل النداءات والتوسلات التي جاءت إليه من قومه بنى فزارة ومن غيرهم راجين منه أن يرد المرأة إلى أهلها كما فعل كل الناس إكراماً لرسول الله.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجاهر فيها بمخالفة أمر الرسول. فقد سبق له أن أعلن عن رفضه فك الحصار عن مقاتلي قبيلة ثقيف في معركة الطائف وصرح بأنه باقٍ في مكانه، ولن يغادر مع جيش محمد بعد إذن رسول الله بفك الحصار والرحيل من الطائف.

فأعلن المتحدث باسمه: "ألا إن الحى مقيم ولن يغادر قوماً مجدة كراماً".

فقال له رجل من المسلمين: أتصف ثقيفاً بأنهم مجدة كرام؟!!!

قال عيينة: أجل والله مجدة كرام.

فقال له الرجل: يا عيينة، قاتلك الله، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله وقد جئت تنصره؟!!

قال عيينة: إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف، فأصيب من ثقيف جارية أطوها لعلها تلد لي رجلاً يرفع ذكرهم؛ فإن ثقيفاً مناكير^(٥٢).

لكنه اضطر -حينذاك- أن يرحل مع المسلمين إذ كان لا يأمن على نفسه منهم إذا بقى وحده، رغم أنه قد شجعهم على البقاء في الحصن والقتال، عندما دخل إليهم -بإذن من رسول الله- زاعماً أنه سيجتهد في دعوتهم إلى الدخول في الإسلام والكف عن القتال.

وجاء زهير بن صرد مع ابن المرأة العجوز إلى عيينة، يطلبان منه افتدائها.

قال له ابنها: هل لك في مائة من الإبل؟ يعني مقابل تحريرها. فطمع عيينة في المزيد؛ فقال: لا.

وتعجبت المرأة فقالت لعيينة: ما أربك (غرضك) ورغبتك فيّ، بعد مائة ناقة؟! وقالت في نفسها "ماذا يريد مني هذا الأحمق؟!!" هل أنا أنفع له من مائة ناقة؟!!" وأسرت إلى ابنها: اتركه، فما أسرع أن يتركني بغير فداء.

فابتعد ابنها. ولم يجد زهير بن صرد - زعيم وفد هوازن وخطيبها - شيئاً يفعلهُ أو يقوله لهذا الأحمق سوى: خذها، فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا درها بماكد، ولا زوجها بواجد (حزين على فراقها).

كان زهير في غاية الدهشة من هذا الاحتمق. ماذا يُرغبه في هذه العجوز. لا هي امرأة حسناء مشتهاة، ولا ولود ولا مرضعة!! وتركه زهير بن صرد وذهب إلى رسول الله يحكى له هذه القصة متعجباً، وختمها بقوله: عجوز يا رسول الله، مالها أحد.

وتلألاً وجه الرسول بابتسامة متألفة متألمة.

ثم اقترب ابن العجوز من عيينة. ومر به وهو ينظر إليه دون أن يكلمه. وخاف عيينة أن تضيع منه المائة ناقة، فقام إلى الابن وبادره بالقول: هل لك في العجوز لما دعوتني إليه؟ يطلب المائة ناقة فداءً للمرأة.

فقال الابن: لا أزيدك على خمسين.

فغضب عيينة وقال: لا أفعل.

فتركه الابن لبعض الوقت. ثم مر به وهو يُعرض عنه. وخاف عيينة على الخمسين ناقة أن تضيع منه، فأسرع إلى الرجل وقال متلهفًا: هل لك في العجوز بالذي بذلت لي؟

قال الفتى: لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة هذا الذي أقوى عليه.

قال عيينة: والله لا أفعل. بعد مائة فريضة خمس وعشرون!!

فتركه الفتى ومضى بعيداً، وعيينة يتقلب عقله على السنة من نار الطمع والخوف من أن يرتحل الناس راجعين إلى بلدهم. فأسرع إلى ابن العجوز وقال وهو يلهث: هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت؟!

فقال الفتى: هل لك في عشر فرائض أعطيكيها، ولا أزيدك عليها شيئاً.

فقال عيينة: والله لا أفعل.

فقال الفتى: خذها. لا حاجة لنا فيها. لن أدفع فيها شيئاً، ولا ناقة واحدة.

وكان عيينة قد بلغ به الغضب والغيط فوق ما يطيق فصاح في الفتى: خذها، لا بارك الله لك فيها.

وكان رسول الله قد كسى كل امرأة عن السبي ثوباً أبيض من الثياب الآتية من مصر، أو برداً من برود هُجر (البحرين).



فقال ابن المرأة العجوز لعينية، إمعاناً في السخرية منه وإثارة غيظه: إن رسول الله قد كسا السبي، فأخطأها من بينهم بالكسوة، فهل أنت كاسيها ثوباً؟! فكد عينية أن يُجَن، ولكنه تماسك وقال: لا والله ما لها عندى ذلك. فقال الفتى بصوت خفيض كأنه يهمس لنفسه ولكنه يُسمع عينية: تقول لا، ولكنك تفعل.

وأخذ يطريه ويتملقه: لا يليق بك يا سيد العرب أن تبخل على امرأة عجوز فقيرة بثوب. أيرضيك أن يُقال إن سيد بنى فزارة لا يملك ثوباً يمنحه لامرأة عجوز في أمس الحاجة إليه.

ولم يزل يلح عليه، فما فارقه إلا بعد أن أخذ أمه وثوباً قديماً لها. فلما ابتعد الفتى قليلاً، التفت إلى عينية وقال له ساخراً وهو يضحك: والله إنك لغير بصير بالفرص.

وجاء الأقرع بن حابس إلى عينية، فوجده جالساً على الأرض شارد النظرات ذاهلاً. فقال له: ماذا دهاك؟

فقص عليه ما جرى له مع هذه العجوز وابنها. فضحك الأقرع منه ساخراً وقال له: إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة ولا نصفاً وثيرة.

فقال عيينه لنفسه متحسراً: ما رأيت كالיום خدعة^(٥٣).



(٨)

مالك بن عوف

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يُقْنِلُوكُمْ أَوْ يُقْنِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]

استعد وفد هوازن للرحيل من الجعرانة والعودة إلى موطنهم.
كانوا مسروين باستعادة نسائهم وأطفالهم مَنَّا بلا فداء، ممتنين لرسول الله
وللمسلمين أن ردوا عليهم سباياهم.

وذهب رجال هوازن إلى رسول الله ليذكروه ويودعوه وينالوا منه جوائزهم؛ إذ
اعتاد رسول الله أن يعطى الوفود التي تقدم عليه، ما يعينهم في سفر العودة إلى بلادهم
من طعام ونقود ودواب.

فقال رسول الله: ما فعل مالك بن عوف (قائدهم في معركة حنين) ^(٥٤).

فقالوا: هرب مع من هرب يوم حنين مع ثقيف فلحق بحصن الطائف؛ فهو
بالطائف مع ثقيف.

فقال رسول الله: أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة
من الإبل.

وكان رسول الله قد أمر بحبس نساء مالك وعياله عند عمتهم أم عبدالله بنت أبي
أُمّية (أخت زوج رسول الله أم سلمة) بمكة مع ماله؛ إذ حجزه خارج الغنائم فلم يجز
فيه السهام.

فقالوا: وأين أهل مالك؟

فقال: عند عمتهم أم عبدالله بنت أبي أمية.
 وفرحوا وقالوا: يا رسول الله، أولئك سادتنا وأحب الناس إلينا.
 فقال رسول الله: إنما أريد به وبأهله الخير.
 وأخذوا ما أمر به رسول الله لهم من جوائز وتجهّزوا للرحيل. وطار بعضهم إلى
 مالك بن عوف ليبشره بوعد رسول الله^(٥٥).

** **

وصلى رسول الله بالناس صلاة الظهر، أمام القبة الحمراء التي بايع فيها الأنصار،
 وعاهدوه على ترك المطالبة بالحكم. "ألا تنازعوا الأمر أهله.."
 وعند انصراف رسول الله من الصلاة، وجلسه أمام الناس، الذين كانوا لا
 يزالون مجتمعين، قام رجل فقال: يا رسول، من أكرم الناس؟
 كان الرجل يريد أن يسأل أى القبائل أفضل؟ إذ أثار إثارة رسول الله لصناديد
 قريش وزعماء بعض القبائل فى العطاء من حُسه (نصيبه) من الغنائم الغيرة والتحاسد
 بين القبائل، وبعث بعضهم على التفاخر، وأثار سؤال الفتنة: لمن تكون السلطة؟ أى
 القبائل أحق بالملك والسيادة على غيرها؟
 فقل رسول الله: أكرمهم عند الله أتقاهم.

فقال الرجل: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك؟
 إذن فالرجل يتكلم بلسان قبيلته. وسيساق الحديث إلى ميدان التفاخر بين
 القبائل، وسيفضى إلى إشعال نار التنافس والتخاصم والتنازع. وذلك ما يهدد الأمة
 الوليدة بالتمزق والارتداد إلى العصبية القبلية.

فقال رسول الله: فأكرم الناس نبي الله يوسف ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله
 اسحاق ابن خليل الله إبراهيم. الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

فقال الرجل: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك!!

إذن يريد بيان فضل القبائل.

فقال رسول الله: فعن معادن العرب تسألون.

فقال الرجل وقد وجد أخيراً ضالته: نعم.

فقال رسول الله: تجدون الناس معادن، كمعادن الذهب والفضة، فخيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام إذا فقهوا. وأحس الرجل بخيبة الأمل، إذ لم يظفر بالإجابة المنشودة التي تشيد بقبيلته.

وأراد أن يبين لهم أن السلطة باعث على الفساد، والتكالب عليها يفضى إلى أسوأ العواقب، فقال مواصلاً حديثه: وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الامر (الحكم) حتى يقع فيه.

الصراع على هذا الأمر (السلطة) سيفضى لا محالة إلى نشأة الخلاف والتنازع، وانقسام الأمة إلى فريق (أحزاب)، تدعى كل واحدة منها أنها الأحق بالحكم، وأن زعيمها هو الأجدر بتولى السلطة. وهنا يأتى الدور الخبيث للوشاة الذين ينقلون الأخبار والأحاديث بين الطوائف المتنازعة بغية الحصول على المال والمنافع الدنيوية من كل فريق، فيتملقون كل فريق وزعيمه بالإطراء المحرم، ويسبون الفريق الآخر والزعيم المنافس، ويشعلون النزاع ناراً لا تحمد ولا تنطفئ. فقال: وتجدون شر الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. من كان له وجهان فى الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار. لا يدخل الجنة قتات (نهام).

وأراد أن يحث الناس على البحث عن عوامل التآلف وعناصر التشابه بينهم، بدلاً من السعى وراء أوجه الاختلاف وأسباب الخلاف والتنازع، فقال لهم ليرفعهم من طين الجسد بغرائزه العمياء الباعثة على التنافر والتفرق إلى سماء الروح سعياً إلى الوئام

والتوحد: والأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

ثم أراد أن يحسم الخلاف بين القبائل في قضية استحقاق الحكم، مبيناً أن قريشاً هي الأجدر بتولى الخلافة، وقيادة كل القبائل؛ تحقيقاً لصالح الأمة كلها، فقال:

يا أيها الناس، قدموا قريشاً، ولا تقدّموها فتهلكوا، ولا تتخلفوا عنها فتضلّوا، وتعلموا من قريش ولا تعلموها، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتكم بما لخيارها عند الله.

قريش ولاة هذا الأمر، والناس تبع لهم فيه، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم.

فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم.

إن هذا الأمر لا يزال في قريش ما بقى من الناس اثنان، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه في النار ما أقاموا الدين.

ألا إن الأئمة من قريش، ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك، ما عملوا فيكم بثلاث: عدلوا إذا حكموا، ووفوا إذا عاهدوا، ورحموا إذا استرحموا

فقال رجل: ما "عدلوا إذا حكموا"؟

فقال رسول الله: أقسطوا إذا قسموا. فمن لم يفعل ذلك منهم، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل.

ثم توجه إلى الناس من قريش بقوله:

يا معشر قريش، لا يزال هذا الأمر فيكم، وأنتم أولى الناس به ما كنتم على الحق، ولم تحدثوا. فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم كما تلحى هذه الجريدة.

وأمسك بفرع جاف من نخلة، وأخذ ينزع أوراقه صفراء اللون، ويقذفها في الهواء وهو ينفخ فيها، مهدداً قريشاً بالهلاك والإبادة إذا خانت الأمانة وتقاعست عن القيام بواجبات الخلافة.

وقال، وقد شخصت عيناه، وكسى الحزن وجهه المشرق كالشمس عند غروبها:
أسرع قبائل العرب فناءً قریش، يوشك أن تمر المرأة بالنعل، فتقول: هذه نعل قرشى.
ثم خاطب جموع الناس من القبائل الأخرى:
استقيموا لقریش ما استقاموا لكم. فإن لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على
عواتقكم فأبيدوا خضراءهم. فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء^(٥٦).
ثم سكت وأطبق الصمت على الجمع المحتشد.
ثم ذهب ليستريح فى قبة أم سلمة. وتفرق الناس وهم يفكرون فى المستقبل المفعم
بالفتن والغموض.

** **

وجاءت البشرى مالك بن عوف؛ فازداد شعوره بالحس فى الطائف غريباً وسط
ثقيف بعيداً عن قومه.
وأضيف إليه الخوف على نفسه من ثقيف، إذا علموا بما وعده به محمد. ولذلك
عزم الفرار من الطائف. فاتفق مع من جاءه بالبشرى أن يجهز له دابة، توضع عند
«دحنا». وأعد فرسه وفى الليل تسلل هارباً، وانطلق على فرسه حتى «دحنا». فترك
الفرس وركب الدابة. وأسرع إلى الجعرانة.
وفى الصباح اكتشف ثقيف أن حليفهم مالك بن عوف قد هرب منهم. والتقى
مالك بن عوف رسول الله، فأعلن إسلامه وبايعه. فرد عليه رسول الله أهله وماله
وأعطاه مائة من الإبل، وجعله أميراً على قومه. فامتن مالك بن عوف لرسول الله حسن
صنيعه وكرمه، وأنشد قصيدة افتتحها بقوله:
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ** فى الناس كلهم بمثل محمد
وعزم أن يكون على ثقيف حرباً لا تهدأ^(٥٧)

وشعر رسول الله أن مهمته في هذا السفر قد أتت إلى غايتها، وأن له أن يعود إلى مدينته. فلما جاء الليل، أحب أن يزور الله في بيته. فتسلل من فراشه في صمت وسرى إلى مكة، فاعتمر^(٥٨)، فطاف بالكعبة، وصلى بمقام إبراهيم ركعتين، وسعى بين الصفا والمروة، متذكراً جهاد أبيه إبراهيم، وامه أم إسماعيل، وابتلاءهما وغربتهما.

وفي الصباح، كان في الجعرانة حيث أذن في الناس بالرحيل إلى المدينة المنورة. وقد أبقى الشاب عتاب بن أسيد أميراً على مكة ومعاذ بن جبل معلماً لأهلها، يُقرئهم القرآن ويفقههم في الدين.

*** ** **

فلما استوى على دابته، علا صوته:

الله أكبر

الله أكبر

الله أكبر

ثم تلا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وطوال الطريق يردد مترنماً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

فإذا صعد إلى مكان مرتفع، أو أتى على ثنية أو مر على فدّ (أرض غليظة مملوءة بالحصى) كبر ثلاثاً: الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

وإذا هبط به الطريق سبح: سبحان الله العظيم. سبحان العلي الكبير. لا إله إلا أنت سبحانك.



فلما لاحت المدينة المنورة عند الأفق ردد:

آييون تائبون

عابدون ساجدون

لربنا حامدون^(٦٠)

*** **

(٩)

كعب بن زهير بن أبى سلمى

﴿وَأِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤] (٦١)

قال بُجَيْر بن زُهير لشقيقه كعب: ألم يَأْن لنا أن نذهب إلى محمد لنسمع منه بأنفسنا ونتبين حقيقته؟

فقال كعب: وما هى حقيقته؟! رجل شاعر سحر الناس ببلاغة كلامه، ويسعى إلى الملك ليخضع الناس لسلطانه.

فقال بجير: ألا تحجل من نفسك عندما تقول عنه أنه شاعر، وأنت الشاعر المجيد الذى يعلم ما هو الشعر، وكان أبونا واحداً من أعظم الشعراء الذين عرفهم العرب من أصحاب المعلقات؟!

إن القرآن الذى يقول محمد أنه كلام الله إليه ليس بشعر. هذه حقيقة يعرفها كل من يتذوق الشعر، فما بالك بالشاعر؟! ثم إن كل شاعر يفخر بشعره، وكل قبيلة تفخر بميلاد شاعر من أبنائها، فلماذا ينكر محمد أن هذا الكلام العجيب الذى سحر العرب ببلاغته من شعره؟!

ولماذا تحارب قريش الشاعر الذى يمكن أن يكون لسانها المتحدث بمفاخرها ومآثرها؟!

ثم إن كثيراً من شعراء قريش مثل ابن الزبعرى وهُبيرة بن أبى وهب قد هجوه كثيراً وأسرفوا فى ذمه وسبه، فلم يرد عليهم بقصيدة واحدة، وليس هذا من خُلق الشعراء!!

فقال كعب: وقد هجوته أنا أيضاً؛ لأنه سفه أحلامنا، وأهان آلهتنا، وأثار الخلاف والشقاق فيما بيننا أينما حل. أفتريدني أن أذهب إلى الرجل الذي هجوته.

فقال بجير: لنضع كل ذلك وراء ظهورنا، ولنبدأ من جديد. من أول الطريق. نأتيه فنسمع منه ونرى رأينا.

ولم يزل بجير يلح على شقيقه كعب حتى أقنعه بالرحيل إلى محمد. وعندما اقتربا، ووصلا إلى موضع يُقال له أبرق العزاف، قال بجير لشقيقه كعب، وقد لمس فيه نفوراً من لقاء محمد: امكث ههنا حتى أرجع إليك. سأذهب إليه بمفردى، وأسمع منه.

وكان بجير يريد أن يخلو إلى نفسه وينصت إلى ما يقوله هذا الرجل.

واستأذن بجير للدخول على رسول الله فأذن له. وعرض عليه الإسلام وقرأ عليه من القرآن فأمن وأعلن عن دخوله الإسلام.

ولاحظ بجير حركة كبيرة، لافتة للنظر تجرى في شوارع يثرب (المدينة) فوق في ظنه أن رسول الله يستعد ويتجهز لغزو مكة.

ورجع بجير إلى شقيقه كعب، فأنبأه بما حدث.

ودعاه إلى الدخول معه في الإسلام كما دخل فيه كثير من الناس من قبيلتهما مزينة. إلا أن كعباً أبى، واستكبر أن يكون مثل غيره من السفهاء، وأن يخضع للرجل الذي سبق له أن أمعن في هجائه.

وعاد الشقيقان إلى موطن قبيلة مزينة..

بذل بجير ما في وسعه لإقناع شقيقه كعباً بالدخول في الإسلام؛ ولكنه عجز لإصرار كعب على البقاء في دين الآباء.

وبعد ليال طويلة من التدبر العميق في المصير، اتخذ بجير قراره بالهجرة إلى رسول الله في يثرب.

ولكنه اكتشف أن رسول الله قد غادر المدينة ليفتح مكة. فسره أن صدق ظنه ولاح له اليقين بأن جميع العرب سيدخلون الإسلام أفواجا، وينضون تحت سلطان رسول الله.

ولما وصل مكة، عرف أن رسول الله سيخرج إلى قتال هوازن التي حشدت جيشها وجيوش من تحالف معها، خاصة ثقيف - أهل الطائف - لقتال المسلمين وقتل رسول الله والقضاء على فتنة الإسلام. فانضم بجير إلى جيش رسول الله في يوم حنين وحصار الطائف^(٦٢).

فلما رجع رسول الله إلى المدينة في أواخر شهر ذي القعدة، أرسل بجير إلى شقيقه كعب يحذره من أن رسول الله قد يقتله، وأنه قد قتل رجالاً بمكة - يوم فتحها - ممن كان يهجوهم ويؤذيه^(٦٣)، وأن من بقى من شعراء قريش مثل ابن الزبير وهيرة بن أبي وهب، قد فروا منها " فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطر إلى رسول الله؛ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تاباً يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك (مكان تأمن فيه على نفسك) من الأرض.

*** **

لم يزل زلزال فتح مكة يواصل ضرب بنيان المجتمع القديم في شبه الجزيرة العربية بهزات عنيفة؛ تدفع الأفراد والجماعات إلى الخروج من برائن تراث الآباء، والقدوم إلى رسول الله في مدينته المنورة للدخول في الإسلام ومبايعته.

وجاء النعمان بن أبي الجون الكندي إلى رسول الله مسلماً وبايعه. ثم قال: يا رسول الله، ألا أزوجك أجمل أيم في العرب، كانت تحت ابن عم لها فتوفى عنها، ثم قال محفزاً رسول الله للقبول:

وقد رغبت فيك؟ يقصد ابنته أساء.

كان النعمان يعلم ما اشتهر عن رسول الله من حب النساء الجميلات، وإعجابه الشديد بحسنهن، وكانت ابنته أسماء حقاً أجمل الجميلات.

فقال رسول الله: بلى.

وغمر الفرح قلب النعمان. وحدث نفسه مستبشراً: ربما حان الوقت لتستعيد كندة بعض مجدها، بعد أن زالت دولتها، وقُتل الشاعر امرؤ القيس بن حُجر فضاع آخر أمل لها في استرداد مُلكها وبسط نفوذها على سائر القبائل العربية^(٦٤).

فقال النعمان: فابعث معي من يحملها إليك.

هكذا وقع عقد النكاح بين أبو المرأة ووليها وبين الرجل طالب النكاح، وهو رسول الله، الذي قال لصاحبه أبي أسيد الساعدي: اذهب معه وائتني بالعروس. فانطلقا إلى منازل هذه الطائفة من قبيلة كندة التي عادت إلى مساكنها القديمة قريباً من اليمن، بعد اضمحلال مملكة كندة في نجد، بينما تناثرت الطوائف الأخرى في شتى أنحاء جزيرة العرب: البحرين، ونجران، ودومة الجندل،....

*** ** *

وجاء أربعة رجال ينوبون عن بنى ثعلبة في الإعلان عن الدخول في الإسلام ومبايعة رسول الله.

نزلوا المدينة ساعة الضحى. فأشار لهم الناس إلى دار رملة بنت الحارث، التي تصدقت بدارها لتكون بيتاً لضيافة الوافدين إلى المدينة المنورة، وإيواء الأسرى والمصابين العائدين من ميادين القتال.

وبعد وقت قليل، دخل عليهم بلال بن رباح بلونه الأسمر وقامته المديدة، فسلم عليهم بوجه منبسط، ثم سأهم: أمعكم غيركم؟

فقالوا: لا.

فانصرف عنهم، فلم يلبث إلا يسيراً حتى أتاهم بجحفة (شئ قليل لا يملأ الإناء) من ثريد بلبن وسمن، فأكلوا منها وشبعوا رغم قلتها.

وحان وقت صلاة الظهر، فقدم إليهم الماء ليتوضئوا. ثم أسرعوا إلى مسجد رسول الله.

ورأوا رسول الله يخرج من حجرات نسائه، ورأسه يقطر ماءً. فنظر إليهم، فأسرعوا إليه بينا كان بلال يقيم الصلاة.

فقال قائدهم: السلام عليك يا رسول الله. نحن رسل من خلفنا من قومنا، ونحن وهم جميعاً مقرون بالإسلام، وهم في مواشيهم وما يصلحها سواهم، وقد قيل لنا: لا إسلام لمن لا هجرة له.

فقال لهم رسول الله: حيثما كنتم واتقيتم الله، فلا يضركم شئ. وفرغ بلال من أذان إقامة الصلاة. فتقدم رسول الله ليؤم الناس الذين اصطفوا وراءه.

ثم انصرف رسول الله من الصلاة ودخل إلى بيته. فسألوا الناس في المسجد: ماذا يفعل رسول الله في بيته الآن. فقليل لهم: يصلي ركعتين أو أربع في بيته. فظلوا جالسين في المسجد ينتظرون. ثم جاءهم بلال يدعوهم للدخول على رسول الله. فدخلوا فسلموا عليه. فقال لهم متلطفاً متودداً: أين أهلکم؟

قالوا: قريباً.

فقال لهم: كيف بلادكم.

قالوا: مخصبون.

فقال: الحمد لله.

وقال لبلال: ابعثهم إلى من يعلمهم القرآن والصلاة وفروض الإسلام وسننه.

ثم قال لهم: أنتم في ضيافتنا.

فاستأذنوا منه وبقوا أياماً يتعلمون القرآن وأحكام الإسلام. وعندما جاءوا إليه ليودعوه ويرجعوا إلى بلادهم قال لبلال: أجزهم كما تجيز الوفود. فأعطى كل واحد منهم خمس أواق من الفضة واعتذر إليهم بقوله: ليس عندنا دراهم. لأن الدراهم أيسر في الإنفاق من الأواقي^(٦٥).

** ** *

بينما كان رجال بنى ثعلبة في ضيافة رسول الله جاءت رسالة من كعب بن زهير إلى أخيه بجير في أبيات من الشعر حملها إليه رجل تقول:

ألا بلغا عني بجيرا رسالة ** فويحك فيما قلت ويحك هل لك
فبين لنا إن كنت لست بفاعل ** على أي شيء ويب غيرك ذلك
على خلق لم تلف أمأً ولا أبأً ** عليه ولم تدرك عليه أخالك
سقاك أبو بكر بكأس روية ** فأنهلك المأمون منها وعلك
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف ** ولا قائل أما عثرت لعالك^(٦٦)

يطلب إبلاغ شقيقه بجيراً رسالة تقول له:

ليس لك أي حق في اختيار الدين الذي أرتضيه. ولا في تهديدي بالهلاك كما هلك الآخرون.

إن كنت أنت لست القائم بهذا التهديد ولا الساعى وراء قتلى، فوضح لنا إلى أى شئ هداك صاحبك غير هلاك الغير (وَيُب غيرك).

هل هداك إلى تغيير ما ألفيت عليه أباك وأمك وأخاك، أتفرح بهذا؟!

لقد سقاك أبو بكر خمرأً أفسدت عقلك، وأسرف المأمون (يقصد رسول الله) في إشراكك تلك الخمر مرة بعد أخرى حتى فقدت رشذك (أنهلك وعلّك) فإن لم تبين لنا ماذا جنيت من دعوة صاحبك فإننى لست بأسف على فراقك، ولن أقول لك عندما تعثر (تقع) لعاً لك وهى كلمة كانت تقال لمواساة من سقط.

وكان تعبير كعب عن رسول الله بأنه المأمون يعد إعلاناً منه بالتحدى وعدم الخوف من التهديد بالقتل الذى أنذره به أخوه بجير.

واحتار بجير: هل يخبر رسول الله برسالة شقيقه كعب أم يكتمها؟

ثم رأى فى كتمانها عن رسول الله إثماً، إذ يعبر عن نقصان إخلاصه وأمانته مع رسول الله الذى هدى قلبه إلى الصراط المستقيم، فأسرع إلى رسول الله، وتلا عليه أبيات شقيقه كعب. وعندما سمع رسول الله قوله: على خلق لم تلف أمأً ولا أبأً عليه، قال: أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه.

وعندما سمع قوله المأمون قال: صدق وإنه لكذوب. أنا المأمون.

ثم قال متوعداً: من لقي كعب بن زهير فليقتله.

فأسقط فى يد بجير، هكذا أهدر دم شقيقه..

فأرسل إليه: النجاء النجاء وما أراك تفلت. إن رسول الله لا يأتیه أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا قبل منه، وأسقط ما كان قبل ذلك، فإن أتاك كتابى هذا فأقبل وأسلم، ورد على أبيات شعره بأبيات أخرى تقول:

مَنْ مُبْلَغٌ كَعَبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَّى وَلَا اللَّاتَ وَحَدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتُسَلِّمُ
لَدِي يَوْمَ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدَيْنُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينِهِ وَدَيْنُ أَبِي سُلَيْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

*** **

وجاء أبو أسيد الساعدي بالعروس الجميلة، فدخل بها المدينة. وكان ذكر حسننها الأخاذ قد شاع في الناس، واستشار فضول النساء فخرجن لرؤية من قيل في وصفها "أجمل نساء العرب". وتقدم أسيد بالعروس حتى وصل إلى بستان من النخيل يقال له "الشوط" ثم أنزلها في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، وسط بيوت بنى ساعدة التي تحيط بها بساتين النخل. وكانت أميمة قد رحبت أن يكون عرس رسول الله في بيتها.

واجتمعت النساء حول العروس الجميلة، ثم خرجن يذكرن جمالها "كأنها حورية من نساء الجنة هبطت من السماء ولم تنبت من الأرض".

ولم تستطع عائشة بنت أبي بكر زوج رسول الله وأشد نسائه غيرة عليه أن تمسك نفسها فاصطحبت معها ضررتها حفصة بنت عمر بن الخطاب، وأسرعت الضرتان ليريا الضرة الجديدة ويتأكدا من حسننها الذي طارت به الأقوال.

وأخذت عائشة تمشط العروس وتحضبها، وهى تكاد تذهل من شدة جمالها ويشتعل قلبها من الغيرة. " سوف تغلبنا هذه الحسناء عليه". وبذكاء المرأة العاشقة التى تحارب من ينافسها على حب زوجها، قررت عائشة أن تفسد هذه الزيجة قبل أن تقع.

أدركت عائشة ببصيرتها الذكية وفراستها النافذة أن هذه العروس الجميلة فتاة مدللة لا تستطيع أن تفارق مريبتها التي تخدمها وتقوم لها بكل شيء وتحمل لها كل ما تحتاجه.

وأدركت أنها على قدر كبير من ضعف الإرادة والغباء بالإضافة إلى اضطرابها الشديد ولذلك فمن السهل استهواؤها. فنفذت إليها من مكان من ضعفها. اقتربت منها وهمست إليها بصوت الناصح:

أنت من الملوك، وهذه حقيقة لأن أسماء بنت النعمان من ذرية حجر بن عمرو، أكل الممار مؤسس دولة كندة وأول ملوكها. ولا يليق بالملكة إلا أن تتزوج من ملك مثلاً. وشعرت العروس بالثقة في نفسها وبمكانتها العليا التي لا تسمو إليها أية امرأة أخرى، ولما اطمأنت عائشة أنها نفثت في العروس نفخة الكبر، واصلت حديثها قائلة: وهذا الرجل يجب أن يستعيز من الشيطان الرجيم إذا جامع نساءه، فإذا اقترب منك فقولى: أعوذ بالله منك؛ فإن ذلك أحظى لك عنده.

وخرجت عائشة من عند العروس، ومعها حفصة التي كانت قد اتخذت قراراً حاسماً في بدء حياتها الزوجية عند رسول الله باتباع عائشة في كل ما تسعى؛ لأنها أدركت بكل يقين وأسف أن عائشة هي أحب نساء النبي إليه، وبوسعها أن تفسد حياة أى ضرة لها، فأذعنت للحقيقة واستسلمت للأقدار؛ لأن طلب المحال غباء وجنون.

وعادت عائشة إلى بيتها، فوجدت رسول الله يرجل شعره ويتطيب، ويتهاً للخروج ففاجأها بقوله: مارأيت؟ يعنى ما رأيك في العروس.

فقال لتخفى الحقيقة وتقلل من إقباله ونشاطه: ما رأيك طائلاً. تعنى لم أر شيئاً يستحق الذكر. كان من الواضح أنها تكذب، فقال لها لكى يغيظها: لقد رأيت خالاً بخدها اقشعرت منه كل شعرة فيك.

فقال لتخفى غيظها وإذعانها للحقيقة: ما دونك سر.

ثم خرج رسول الله من البيت متزيناً متطيباً، واتجه إلى سقيفة بنى ساعدة، لينتظر فيها أبا أسيد يأتيه نبأ تهيئة العروس للدخول بها، وليتخذ من أصحابه الجالسين في السقيفة شهوداً على النكاح. وبالفعل لم يتلبث إلا قليلاً، حتى جاءه أبو أسيد ليعلمه نبأ حضور العروس وتهيئتها.

فدعا رسول الله أصحابه الجالسين في السقيفة ليحضروا حفل عرسه. وسار معهم سيراً على الأقدام حتى بلغوا بستان الشوط، ثم تقدموا إلى الطريق بين حائطين فقال لأصحابه: اجلسوا هاهنا.

ثم تقدم وحده إلى المنزل الذي فيه العروس، فأخذها وسط ضجيج النساء وصيحات الفرح، ثم خرج وسار معها إلى البيت المحاط بالنخيل الذي قدمته صاحبة البستان هدية لرسول الله، حتى يبنى لعروسه الجديدة حجرة في حجرات نسائه.

كانت العروس في غاية الاضطراب تتقاذفها موجات عاتية من مشاعر متضاربة. دخلت إلى الغرفة وجلست بعيداً في ركن الغرفة منكسة رأسها ينتفض جسدها فقال لها متودداً: تعالى إلى فرغت إليه وجهاً مهترأً وعينين شاخصتين، وغلبها كبرياؤها، فقالت: تعال أنت، وأبت أن تجيء إليه وباغتته إجابتها، وعزاها إلى اضطرابها الشديد البادى في ارتعاش جسدها.

وتقدم مقرباً إليها وهو يقول لها: هبى نفسك لى.

فقال في تعالٍ بغيض لم يتوقع صدوره منها: وهل تهب الملكة نفسه للسوقة؟! صدمته الإجابة مرة أخرى، ولكنه تحامل على نفسه وبسط يده ليضعها عليها لعلها تسكن واقترب منها ليقبلها.

فقال: أعوذ بالله منك!!

ههنا لم يعد الأمر محتملاً.. "هل تنفر منه؟! هل تصورته شيطانياً؟ تستعيز بالله منه!"

فابتعد عنها، وقال في هدوء: لقد عدت بمُعَاذٍ قد عدت بعظيم.. قد أعدتكَ منى، الحقى بأهلك.

وقال وكأنها يحدث نفسه متعجباً، وهو يخرج من الغرفة: أَمِنْ عَائِدِ اللَّهِ؟! أَمِنْ عَائِدِ

وخرج إلى الرجال الذين كانوا ينتظرون أن تأتي إليهم النساء بوليمة العرس، فبوغتوا برسول الله يتقدم نحوهم قد بدا على وجهه الضيق، فقال: يا أبا أسيد، ألحقها بأهلها واكسها رازقيتين.(ثوبين من الثياب البيض السمكة الطوال، المصنوعة من الكتان والتي يخالط بياضها زرقة).

وكان هذان الثوبان متعة الطلاق.

وخرج رسول الله إلى سقيفة بنى ساعدة، فجلس مع أصحابه ساعة.. وقال لسهل بن سعد: اسقنا يا سهل. فخرج لهم سهل بقدح فيه شراب حلوا فسقاهم^(٦٧).

*** **

وجاءت العيون لرسول الله نبأ أن ثقيفاً تؤلب القبائل حولها لتحشد جيشاً كبيراً؛ يهاجم المدينة (يثرب)، وتقول في دعوتها: إن محمداً قد عجز عن هزيمتنا، وإن أجمعت القبائل القحطانية(اليمنية) التي تسكن جنوب جزيرة العرب أمرها على حربه، فلا ريب في أنها قادرة على سحقه واستئصال شأفته والقضاء على فتنته التي أثارت الفوضى وأشعلت الاضطراب في كل مكان وصلت إليه دعوته، وقد ذهب رسل ثقيف إلى قبيلة ضُءاء، وهم حى كبير من أهل اليمن، يسكنون على الطريق إلى مكة، ليشجعوهم على قتال محمد.

فاستدعى رسول الله قيس بن سعد بن عباد، وأمره أن يجهز سرية ليطأ بها أرض ضداء، لم يكن الهدف قتال الناس؛ بل إرهابهم ليكفوا عن التفكير في غزو المدينة، وألا يعطوا أسماهم للملأ من ثقيف، وليبين لهم قوة المسلمين.

وكان في اختيار قيس بن سعد بن عباد قائداً للسرية تطيباً لقلوب الأنصار، الذين أحسوا بأنهم قد ظلّموا في قسمة غنائم حنين بالجعرانة وفي أمره بأن يكون الأمر بعده لقريش، فأحب أن يبين لهم أن عملهم في نصرة الإسلام والتمكين له في الأرض محفوظ ومشكور.

وكان فيه تطيباً لقلب سعد بن عباد - زعيم الخزرج أكبر قبائل المدينة - وقلب ابنه قيس الذي نزع منه رسول الله لواء قومه يوم فتح مكة؛ لأنه صاح بصوت الانتقام: هذا يوم الملحمة. هذا يوم تنتهك فيه الحرمات. فغضب رسول الله - يوم الفتح - وقال: هذا يوم الرحمة، هذا يوم تحفظ فيه الحرمات وأخذ اللواء منه.

وسار قيس بن سعد على رأس سرية قوامها أربع مائة مقاتل من المسلمين، فعسكر في موضع يقال له قناة، على الطريق إلى اليمن.

وسمع الناس بجيش المسلمين يدق أبواب بلدتهم، ففزعوا وطلبوا السلام والسلامة.

وأسرعوا إلى رجل منهم كان قد أعلن إسلامه وبايع محمداً وهو زياد بن الحارث، فقالوا له: يا زياد اذهب إلى صاحبك الذي صدقته وبايعته، واشفع لنا ليرد عنا جيشه.

فأسرع زياد بن الحارث إلى رسول الله في المدينة، وقال له: يا رسول الله، قد جئتكم وافداً عمن ورائي، فاردد الجيش عنا، وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم.

فقال له رسول الله: اذهب إلى قيس بن سعد، وقل له يرد الجيش.

فقال زياد بن الحارث: اكتب لي كتاباً.

فأمر رسول الله أن يكتبوا له كتاباً بهذا.
ولكن زياد خشى ألا يصدقاه المسلمون، فقال: يا رسول الله إن راحلتى قد كلت.
يعنى لأننى شددت عليها عند إسراعى إليك.
فأعطى رسول الله الكتاب إلى أحد أصحابه وأمره بالإسراع به إلى قائد السرية
قيس بن سعد.
فلما اطمأن زياد إلى سلامة قومه، أسرع إليهم ودعاهم للدخول في الإسلام
ومبايعة رسول الله.
وكونت قبيلة صُداء وفدًا من خمسة عشر رجلاً على رأسهم زياد بن الحارث فأتوا
إلى رسول الله في المدينة المنورة فطلب سعد بن عباد أن يستضيفهم في منزله "يا رسول
الله دعهم ينزلون على" فوافق رسول الله.
فأحسن سعد بن عباد ضيافتهم، فأطعمهم وكساهم بأفخر الثياب ثم راح بهم
إلى رسول الله في المسجد فأعلنوا إسلامهم وبايعوا رسول الله على من ورائهم من
قومهم.

*** **

وأراد رسول الله أن يُظهر للقبائل العربية التى حول الطائف على طريق اليمن قوة
الإسلام، وأن قبيلة صُداء قد دخلت في سلطانه، فطلب من أصحابه أن يخرجوا معه في
جولة استعراضية ومعهم وفد صدآ الذين كانوا في أحسن زينة.
وفي الطريق اقترب زياد بن الحارث من رسول الله، فقال له: يا أخا صدآ إنك
لمطاع في قومك.
فقال زياد: بل الله هداهم للإسلام.

وأعجبت هذه الإجابة رسول الله فقال له: أفلا أوْمرك عليهم؟
 فقال زياد: بلى، يا رسول الله ولكن اكتب لى كتاباً تؤمرنى فيه عليهم.
 فطلب رسول الله من أصحابه أن يكتبوا لزياد كتاباً فيه: إن رسول الله قد جعله
 أميراً على صداء.

فقال زياد: يا رسول الله مر لى بشىء من صدقاتهم، إذ قدر زياد أن الأمر (الحكم)
 سيشغله عن رعاية ماله.

فقال رسول الله: نعم. وأمر بكتابة كتاب لزياد.

** **

وسار ركب رسول الله مع أصحابه ووفد صداء، فنزلوا منزلاً، فخرج أهل القرية
 يشكون عاملهم الذى أمره رسول الله عليهم، قالوا: أخذنا بكل شىء كان بيننا وبين
 قومه فى الجاهلية.

إذن فقد أساء استعمال السلطة، فقال رسول الله ليتأكد من قولهم: أفعل ذلك؟
 قالوا: نعم.

فالتفت رسول الله إلى أصحابه، وفيهم زياد بن الحارث، فقال: لا خير فى الإمارة
 لرجل مؤمن.

وأسرها زياد فى نفسه، ولم ييدها لأحد؛ إذ دخل قلبه الشك فى قبوله الإمارة.
 وجاء رجل فقال: يا رسول الله أعطنى.

فقال رسول الله: من يسأل الناس عن غنى فصداع فى الرأس وداء فى البطن.
 فقال السائل: أعطنى من الصدقة (الزكاة).

فقال رسول الله: إن الله لم يرض فيها بحكم نبي ولا غيره فى الصدقات حتى حكم

فيها بنفسه فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك، وإن كنت غنياً عنها، فإنها هي صداع في الرأس وداء في البطن.

فذهب السائل، وأسرّها زياد في نفسه، إذ دخل في قلبه الشك إذ سأل أن يأخذ شيئاً من صدقات قومه وهو غنى.

*** **

وجاء الليل فصلى النبي بالناس العشاء في أوله، ثم بدأوا ينصرفون. لكن زياد قرر أن يبقى وحده قريباً من النبي، ملازماً لناقته، يراقب النبي وهو يرتل القرآن ويصلي ويستريح فوق ناقته.

فلما جاء أول ضوء قال رسول الله: يا أخا صداء.. ارفع الأذان.

فقام زياد برفع الأذان، وانتظر قليلاً ثم قال: يا رسول الله، أقيم الصلاة؟

فنظر رسول الله إلى السماء جهة المشرق، فرأى أن نور الفجر لم ينتشر بعد عند الأفق، فقال لزياد: لا، انتظر!.

فلما انتشر النور، نزل رسول الله من فوق راحلته، واختفى بعيداً في غبشة الفجر واستنتج زياد أنه قد ذهب لقضاء حاجته، ثم أقبل إلى زياد وبدأ الأصحاب في القدوم متلاحقين.

فقال رسول الله لزياد: يا أخا صداء هل معك من ماء؟

فقال زياد: لا. إلا شيء قليل لا يكفيك في إداوتي (إناء صغير من الجلد)

فقال رسول الله: صبه في قعب (قدح ضخم) وائتني به.

فذهب زياد فصب الماء في قعب وأتى به رسول الله، فوضع كفه في الماء، فإذا بعين

ماء تفور بين كل أصبعين من أصابع نبي الله، فتوضأ رسول الله ثم قال لزياد:

"ناد في أصحابي: من له حاجة في الماء فليأتنا."

فأخذ زياد ينادي: من له حاجة في الماء، فسارعوا إليه وأخذ كل منهم حاجته واصطفوا للصلاة.

فقال نبي الله: يا أخا صداء لولا أني أستحيي من ربي لسقينا واستقينا.

ثم قام رسول الله ليأخذ مكانه أمام أصحابه فأسرع بلال يريد أن يقيم الصلاة.

فقال رسول الله: إن أخا صداء أذن.. ومن أذن فهو يقيم. وأشار إلى زياد أن يرفع دعاء إقامة الصلاة.

فلما انصرف رسول الله من الصلاة، اقترب منه زياد بن الحارث، وقال له: يا رسول الله اعفني من هذين الكتابين، وأعطاه الكتابين اللذين كان قد طلبهما للإمارة وأخذ شيء من الصدقات.

فقال رسول الله متسائلاً ومندهشاً: ما بدا لك؟

فقال زياد: سمعتك تقول "لا خير في الإمارة لرجل مؤمن" وأنا بفضل الله مؤمن بالله ورسوله، وأريد أن أحافظ على إيماني، وسمعتك تقول للسائل "من سأل الناس عن غني، فصداع في الرأس وداء في البطن" وقد سألتك وأنا غني.

فقال رسول الله: هو ذاك.. فإن شئت فاقبل وإن شئت فدع. (يعني الإمارة)

فقال زياد حاسماً أمره: أدع.

فقال رسول الله: فدلني على رجل أؤمره عليكم.

فأشار زياد إلى رجل من الوفد الذين قدموا.

وجاء الضحى.. واستعد وفد صداء للرحيل، وذهبوا إلى رسول الله ليودعوه.

ثم قال زياد: يا رسول الله إن لنا بئراً، إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على المياه حولنا، وكل من حولنا عدو لنا، فادع الله

لنا في بئرنّا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليها ولا نتفرّق.

فطلب منهم أن يأتوه بسبع حصيات ففركهّن بين يديه، ثم قرهّن من فيه، فدعا ربه بكلمات لم يسمّعها أحد منهم، ثم قال: اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر، فألقوا فيها واحدة واحدة واذكروا اسم الله.

فأخذوا الحصيات السبع من يد رسول الله، ورجعوا إلى بلدهم وهم يستبشرون^(٦٨)

*** **

وضاقت الأرض بكعب بن زهير، وظن أنه لا محالة مقتول.. هكذا قال له كل من حوله، وتلاعب به خوفه، كلما جال بخاطره أقوال الوشاة الذين لا يتركون آذان الملوك والأمراء حتى يوقعوا بخصومهم. وقصص الشعراء السابقين مع أصحاب السلطان تفيض بالمواعظ والعبر.

هكذا لم يجد كعب بداً من الذهاب إلى يثرب والمثول بين يدي محمد طلباً للعفو والصفح والمغفرة، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

وفتش باحثاً في ذاكرته، فعثر على صديق له من قبيلة جهينة، كان قد أسلم وهاجر إلى يثرب ووراء ستار الليل تسلل كعب إل صديقه الجهني.. طرق بابَه وقص عليه حكايته.

فنصحه أن يبقى معه إلى طلوع الفجر، ثم يمضي معه إلى المسجد فيصلّي مع المسلمين وراء رسول الله صلاة الصبح.

وجلس كعب يراقب رسول الله، وهو يجلس مع أصحابه كالمائدة بين القوم الذين تخلّقوا حوله، حلقة وراء أخرى، وظن الرجل الجهني أن كعباً يتردد في القيام لرسول الله والمثول بين يديه فقال له: هذا رسول الله فقم إليه واستأمنه.

تقدم كعب إلى رسول الله - وكان رسول الله لا يعرفه - فسلم عليه " السلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته " وجلس بين يديه ومد يده ليصافحه.

ثم قال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟

فقال رسول الله بوجه منبسط: نعم.. فمن أنت؟

فقال كعب: يا رسول الله أنا كعب بن زهير.

فوثب عليه رجل من الأنصار، وهو يصيح: يا رسول الله ائذن لي في عدو الله هذا، دعني أضرب عنقه.

ففزع كعب وامتلاً قلبه رعباً.

قال رسول الله للرجل الأنصارى: دعه عنك، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه.

فغضب كعب على الأنصار بسبب فعل هذا الرجل، وعزم أن يذمهم في القصيدة التي كانت تتخلق حينئذ في صدره، وأن يغيظهم بمدح المهاجرين، قوم رسول الله.

فقام رسول الله: " أنت الذي يقول... "

وحاول رسول الله أن يتذكر أبيات كعب التي قالها شقيقه بجير، ولكنه لم يستطع، فالتفت إلى أبي بكر فقال له: " كيف قال يا أبا بكر؟ "

فقال أبو بكر:

سقاك أبو بكر بكأس روية * * * وأنهلك المأمور منها وعلك

فقال كعب: يا رسول الله ما قلت هكذا؟

فقال رسول الله: فكيف قلت؟

قال: قلت: وأنهلك المأمون منها وعلك

فقال صدقت: أنا المأمون.

فقام كعب بن زهير فأنشد القصيدة التي تخلقت في وجدانه، مادحاً رسول الله وطالباً العفو والصفح والمغفرة منه، والتي بدأها كما اعتاد شعراء العرب بالنسيب (الغزل وذكر مفاتن النساء) وذكر الفراق وهجرة الديار والاغتراب.

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متميم عندها لم يُفد مكبول

وقال فيها:

يَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ ** إِنَّكَ يَا بْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ ** لَا أَهْيَنَّاكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلَّوْا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ ** فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ ** يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدَبَاءَ مَحْمُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي ** وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

وقال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنَوْرٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ ** مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكُ

وحينها قال رسول الله لمن حوله بالإشارة "اسمعوا" (٦٩)

*** **

(١٠)

فاطمة بنت النبي

﴿ أَمَّ لِلْإِنْسَنِ مَا تَمَنَّى ﴾ [النجم: ٢٤]

ولدت بعد أول موجة من موجات الوحي ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]؛ فاستحقت لقب «بنت النبي». فرغم أن لها ثلاث أخوات سبقنها في المجئ إلى الدنيا من الغيب: زينب الكبرى، ورقية وأم كلثوم، إلا أن لقب بنت النبي ينصرف إليها لأول وهلة؛ لأنها ولدت بعد أن أصبح أبوها محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب نبياً يُوحى إليه من الله عندما جاء إليه جبريل وعانقت الأرض السماء في غار حراء. ولذلك أصبحت فاطمة أكثر بنات النبي شهرة ووجاهة عند الناس، وأثراً في تاريخ المسلمين.

وكانت أكثر أولاد النبي شبيهاً به. جمعت في ملامحها رائعة الجمال بين حسن أبيها وحسن أمها خديجة بنت خويلد وحسن أم أبيها آمنة بنت وهب. وكانت تذكره دائماً بوجه أمه الذي ستره التراب في قرية الأبواء. ولذلك كان يناديها منذ صغرها بكنية «أم أبيها»، كأنها البنت التي ولدت أباه!!^(٧٠)

تفتّح وعيها بالحياة - وهي تمضي طفولتها على طريق الزمن - على الظلم البشع الذي يتعرض له أبوها وأمها وأخواتها وسائر أصحاب أبيها من المؤمنين في عهد الاستضعاف والاضطهاد بمكة. رأت بعينها وسمعت بأذنيها عذابات أول المؤمنين... بلال بن رباح يُسحل بجسده العاري على الأرض الغليظة المشتعلة بحريق الظهيرة في أم القرى، والأحجار الخشنة الثقيلة تُوضع فوق صدره؛ حتى يكفر بأبيها ويلعنه. لم تغادر ذاكرتها صور المعذيين وآهاتهم وهم يُضربون بالسياط، مكبلين بالسلاسل

والأغلال. ولم تنس أبداً قصة «سمية أم عمار» التي طعنها أبوجهل عمرو بن هشام في فرجها برمح فأرداها قتيلة. وحُبست مع أبيها وأمها وسائر قومها في شعب أبي طالب، ثلاث سنوات كاملة، يعانون الجوع والعطش والمقاطعة من سائر قريش.

دخلت الحصار وهي تقترب من السبنة السابعة في عمرها وعمر الوحي الإلهي، ولم تخرج من إلا وهي في العاشرة، لتشهد موت أمها وطلاق أختها رقية وأم كلثوم من ابني عم أبيها أبي لهب (عبدالعزى بن عبدالمطلب). حيث بدأت يد الأذى تطول أباهَا نفسه، بعد رحيل عمه أبي طالب (عبد مناف بن عبدالمطلب) الذي كان يسبغ عليه حمايته، ويدفع عنه بطش صنديد قريش.

لم تنس أبداً، يوم خرجت من البيت، واقتربت من الكعبة، فوجدت أباهَا ساجداً بين يدي بيت الله، والدم والروث وسائر القاذورات التي تتخلف من ذبح بعير، ملقاة على ظهره، وأبو جهل الذي أمر بهذا الفحش يعلو ضحكه ساخراً مع صنديد قريش. أسرعت تجري وهي تجهش بالبكاء لترفع الأذى عن ظهر أبيها الساجد لربه.

* * * * *

لقد فاضت كل تلك التجارب الأليمة على قلبها بحزن عميق، لم يفلح شيء من مباحج الحياة الدنيا أن يستأصل جذره، وأكسبتها كآبة دائمة أفقدتها روح المرح؛ حتى بدت ضحكاتها القليلة، مثل نجوم بعيدة متناثرة في بحر سماء سوداء مظلمة، سرعان ما تخبو وتختفي.

وزاد من كآبتها ضيق العيش الذي كانت تكابده مع زوجها وابن عم أبيها علي بن أبي طالب، الذي كان بالغ الفقر، مثل أبيه الذي كان يُطلق عليه «السيد المملق». كان شديد الغيرة عليها. ولذلك طلب من أمه فاطمة بنت أسد أن تقوم بالأعمال المطلوبة للمعيشة خارج البيت مثل حمل الماء، وإحضار القمح والعلف والطعام من السوق،

على أن تقوم زوجه فاطمة بنت النبي بالخدمة داخل البيت مثل الطحن والعجن وإنضاج الخبز والطهو والتنظيف.

أبطاً بلال بن رباح ذات يوم عن صلاة الصبح، فلم يأت ليرفع الأذان وإقامة الصلاة كما اعتاد كل يوم. فقال له رسول الله بعد الانصراف من الصلاة: ما حبسك؟

فقال بلال: مررت في طريقي إلى المسجد بالسيدة فاطمة ابتك، وهي تطحن القمح، والحسن ابنها يبكي من الجوع، فقلت لها: إن شئت كفيتك الرحي، وكفيتني أنتِ الصبي، وإن شئت كفيتك الصبي وكفيتني أنتِ الرحي.

ف قالت: أنا أرفق بابني منك. عليك بالرحى. فذاك الذي حبسني يا رسول الله. فقال رسول الله: رحمتها رحمك الله^(٧١).

كان افتقاد روح المرح مع الفقر؛ سببين في كثرة الشجار بين الزوجين: علي وفاطمة. دخل النبي على ابنته فاطمة ذات يوم، وقد شعر بالقلق عليها، فوجد وجهها ينضح بالحزن والنفور والغضب. وبحث عن «علي» بعينه في أرجاء البيت الضيق، فلم يجده.

فقال رسول الله لابنته: أين ابن عمك؟

قالت: في المسجد. كان بيني وبينه شيء فغاضبني. فترك البيت وخرج إلى المسجد. فأسرع النبي إلى المسجد. فوجد علياً راقداً على الأرض، وقد سقط رداً عن ظهره، فخلص إليه التراب.

فأخذ النبي يمسح بيده التراب عن ظهر علي، ويقول له ملاطفاً ومطيباً خاطره: اجلس يا أبا تراب، اجلس يا أبا تراب.

فأصبحت هذه الكنية علماً على علي بن أبي طالب وأحب أسماؤه إليه.^(٧٢)

*** **

وأصبح بيت النبي (حجرات نساءه) مركز حركة دائبة لا تتوقف؛ فلا يخلو وقت من نهار من زائر يستأذن في الدخول، وآخر يتهياً للخروج. لقد صار منزل الرسول بمثابة «مقر الحكم»، يأتي إليه رؤساء وفود القبائل، ووجهاء الأقاليم يطلبون لقاء رسول الله؛ الذي أضحى الحاكم والسيد المطاع في شتى أرجاء الجزيرة العربية.

ويأتي إليه الأفراد الذين يطلبون الهداية ومعرفة الطريق إلى الله، أو يطلبون الفتوى في القضايا التي تعترض حياتهم وتشغل عقولهم، ولا يجدون لها جواباً أو مخرجاً. ويأتي إليه الذين يقدمون الهدايا؛ طلباً لرضى رسول الله وتقرباً إلى الله، أو ترفلاً للحاكم الذي يستوي على عرش السلطة وله الأمر والنهي في شئون حياتهم.

ويأتي إليه الذين يطلبون العطايا والصدقات. ويأتي إليه المنافقون الذين يطلبون استطلاع الأسرار، ويتحسسون الأخبار؛ لمعرفة ما يدبر في الخفاء.

* * * * *

كان رسول الله لم يزل جالساً في المسجد عقب انصرافه من صلاة الظهر، عندما جاء بعض الرجال يحملون أقبية من ديباج مزررة بالذهب. وهي قمصان مصنوعة من الحرير، ضيقة الأكمام، ومشقوقة من الخلف، ومزينة بأزرار من الذهب. وكان يلبسها الأغنياء واسعو الثراء في السفر؛ لأنها بتصميمها تعين على سرعة الحركة. كانت هدية إلى سيد العرب. فوضعها الرجال بين يديه، وهم يلقون عليه التحية "السلام عليك يا رسول الله" ثم انصرفوا.

وامتدت أعين الجالسين في المسجد إلى تلك القمصان الفاخرة غالية الثمن. فأسرع رسول الله بقسمتها على بعض الحاضرين من أصحابه ليكسوها نساءهم، أو يبيعوها لبعض أهل الكتاب أو المشركين وينتفعوا بأثامها؛ لأن لبس الحرير والذهب محرم على الرجال المؤمنين في هذه الحياة الدنيا.

وعزل رسول الله قميصًا واحدًا، أخذه معه ودخل إلى حجرة عائشة، ليستريح قليلاً ساعة القيلولة من عناء المقابلات الكثيرة التي لا تنقطع طوال النهار.

** **

وسمع مخرمة بن نوفل الزهري - أحد وجهاء قريش، ويجتمع مع النبي في جده الخامس: كلاب (حكيم) بن مرة، وكان معروفًا بعلم أنساب الرجال، وتاريخ مكة وحدود حرمها^(٧٣) ومشهورًا بسوء خلقه وحدة لسانه - نبأ الأقبية الحيرية التي جاءت إلى رسول الله، فقال لابنه «المسور»: بلغني أن محمدًا قدمت عليه أقبية من ديباج مزررة بالذهب، فانطلق بنا نذهب إليه؛ عسى أن يعطينا شيئًا منها، فهو يقسمها على أصحابه في المسجد.

فأسرع المسور مع أبيه، يثان الخطى إلى مسجد رسول الله، ومخرمة يُمني نفسه ببعض تلك القمصان الحيرية الفاخرة. لكنه فوجئ عندما وصل إلى المسجد بأن رسول الله قد غادره، بعد أن انتهى من قسمة الهدية الثمينة، فحزن مخرمة وسخط؛ إذ خشى أن تكون الأقبية قد نفدت، ولم يبق له منها شيء.

لكنه لم يفقد الأمل؛ إذ قال في نفسه: "ربما احتجز بعضها لنفسه".

وقام مخرمة على باب البيت، وقال لابنه: يا بني، ادخل عليه وادعه لي.

وأعظم المسور طلب أبيه، فقال مستنكرًا: أدعو لك رسول الله، ليخرج إليك !!

فقال مخرمة لابنه: يا بني إنه ليس بجبار، استأذن وادعه لي.

وعرف النبي صوت مخرمة، وكان على يقين من أنه لم يات إلا ليأخذ شيئًا من الأقبية، فقال لمن في الحجرة متضجرًا: بئس أخو العشيرة، ائذنوا له.

لكنه رأى أن يصرف مخرمة بسرعة نافرًا من لقاءه. فأخذ القباء الذي عزله، وخرج يحمله، بينما كان المسور يطرق باب الحجرة بلطف طالبًا الأذن.

وبسط رسول الله وجهه، راسماً ابتسامة على ملامحه المتعبة. وقال: انظر أبا المسور. قد خبأت لك هذا. يا أبا المسور قد خبأت لك هذا. وأخذ يعرض القباء الحريري أمام بصر مخرمة، الذي شخصت عيناه وهو ينظر إلى الأزرار الذهبية المتألقة.

ثم أعطاه القباء، وقال له: رضى مخرمة؟

فقال مخرمة ممتناً وهو كالمذهول من حسن القباء: رضى مخرمة.... رضى مخرمة.

وانطلق خارجاً من المسجد، راضياً مسروراً بعد أن ظفر ببيغته.

ورجع رسول الله إلى حجرة عائشة، يبتغي أن ينال شيئاً من الراحة. ولكن لم تمض لحظات قليلة، حتى جاء رجل آخر يستأذن في الدخول. فقال رسول الله: نعم أخو العشيرة. ائذنوا له.

فدخل الرجل وتكلم مع رسول الله بصوت خفيض كأنه يسر إليه بها يدور في صدره. ونظرت عائشة من وراء الحجاب، فوجدت رسول الله منقبض الوجه، متجهماً من الضيق والإرهاق. فتعجبت وتساءلت في نفسها مستنكرة: "كيف لم يهش ولم ينبسط وجهه لمن قال في حقه: نعم أخو العشيرة".

وما أن خرج الرجل حتى اندفعت عائشة إلى رسول الله تقول له: يا رسول الله، قلت ما قلت في الرجل، ثم خرجت إليه وتطلعت في وجهه وأقبلت عليه بوجه منبسط وألنت له الكلام، كأن له منزلة عندك،.... وأوقف رسول الله استرسالها في الحديث بصوت وشى بغضبه محذراً: مه عائشة. فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش.

أي عائشة، متى عهدتني فاحشاً. إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه.

إنه منافق أداريه عن نفاقه وأخشى أن يُفسد على غيره. مداراة الناس صدقة. (٧٤)

ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن؛ فإن الله يبغض الفاحش البذئ وإن الخلق الحسن ليبلغ درجة الصوم والصلاة.

*** **

وأمسكت قبضة الوحي بقلب النبي، ونزل عليه قول الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَفَعَلُوا بِبَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧٥).

وعندما خرج رسول الله إلى المسجد وجمع كتبة الوحي ليملي عليهم هذه الآية، علم الناس جميعاً أن الدخول على رسول الله لم يعد مباحاً في كل وقت دون قيد أو شرط. فتخرج المؤمنون من الاستئذان على رسول الله كلما عنّ لهم ذلك، كما كانوا يفعلون قبل نزول هذه الآية. وامتنع المنافقون عن طلب الدخول على محمد؛ لأن هذا أصبح يكلف مالا، يجب إنفاقه فيما يفيد.

هكذا أصبح بيت رسول الله خالياً من الزوار الذين كانوا لا ينقطعون قبل نزول هذه الآية.

ووجد علي بن أبي طالب خلوا بيت النبي من الزوار فرصة سانحة؛ ليفضي إلى رسول الله بما شغله وأهمه.

كان يفكر في أن «الحكم» لا بد أن يؤول إليه في يوم ما؛ فهو أحق الناس بخلافة رسول الله، إنه بمثابة ابن النبي؛ تربى في حجره، ونما في بيته وتلقى منه مباشرة دون واسطة الحكمة، واقتبس من نوره. وكثيراً ما خرج معه -وهو صبي صغير- منفرداً به؛ ليعلمه الصلاة ويقرأ عليه القرآن ويكشف له أسرار. "ثم إنك أنت الذي لبست بردته ونمت مكانه ليلة الهجرة، وصناديد قريش محتشدون حول بيت خديجة، يحملون سيوفهم ويتهياؤون لقتلي بدلاً منه. وأعطاني الراية يوم خيبر عندما عجز الآخرون عن فتح الحصن، وقال سأعطي الراية رجلاً يحبه الله ورسوله. ثم إنني فوق كل هذا زوج

ابنته، أحب أولاده إليه"

"وقد أعلن أن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله على وجهه في النار وأنا أحق قريش بهذا الأمر". لكن تبقى عقبة بني أمية بن عبد شمس الذين ينازعون بني هاشم منذ عشرات السنين السيادة في قريش.

ولذلك فكر علي بن أبي طالب في أن يتخذ من بني مخزوم - وهم فرع قوي له مكانة في قريش - أعواناً وأنصاراً له، في معركته الآتية لا محالة مع «بني أمية».

ورأى أن السبيل إلى ذلك هو مصاهرتهم؛ فذهب يخطب جويرية بنت أبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة من بني مخزوم) إلى عمها الحارث بن هشام. وحضر مجلس الخطبة عمها الآخر سلمة بن هشام وأخوها عكرمة بن أبي جهل. وكان الجميع قد دخلوا في الإسلام مع فتح مكة.

ورحب بنو هشام بن المغيرة بخطبة علي إلى ابنتهم، إلا أنهم تخرجوا كثيراً من تزويج ابنتهم فوق فاطمة بنت النبي الذي أصبح سيد العرب جميعاً.

فقال الحارث بن هشام لعلي بن أبي طالب: لا نزوجك على فاطمة إلا أن تستأذن أباه رسول الله.

*** ** **

وأدرك علي بن أبي طالب أنه من إساءة الأدب أن يُفاجئ رسول الله بالزواج على ابنته، وأن الحكمة تقتضي أن يستأذن رسول الله في ذلك كما قال الحارث بن هشام.

وكان معه دينار، فأساله إلى دراهم بغية أن يقدم درهماً واحداً في كل مرة يريد أن يستأذن في الدخول على رسول الله. وذهب إلى رسول الله، وعلم من خادمه أنس بن مالك أنه في حجرة عائشة، فدفع علي بن أبي طالب الدراهم كلها (مقدار الدينار) إلى أنس وطلب منه الاستئذان له في الدخول على رسول الله.

ودخل علي إلى غرفة عائشة، وألقى السلام " السلام عليك يا رسول الله " فأجابه رسول الله: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

ودعاه إلى الجلوس بين يديه. فجلس مطرقاً خاشع البصر لا يجد ما يقوله، كأن الكلام ضل الطريق إلى لسانه. ثم استجمع أشتات شجاعته وقال بعد عناء: يا رسول الله ما ترى في جويرية بنت عمرو بن هشام؟

وفوجئ رسول الله بهذا السؤال، فقال متعجباً وقد داخله شيء من الحيرة. أعن حسبها تسألني؟!

فقال علي: لا. ولكن أأمرني بها؟ أأزوجها؟!

فكسا الغضب والأسف وجه رسول الله وبادره بالرفض: لا.

وفسر له سبب رفضه: ولا أحسب إلا أنها تحزن وتجزع وأنا أخوف أن يفتنوها في دينها^(٧٦).

وسكت ثم قال معبراً عن خيبة أمله في علي بن أبي طالب؛ إذ فكر في الزواج على ابنته، وقد فضله على غيره بها، ورفع مكانته بتزويجه ابنته، ومفصلاً عن رفضه القاطع لكل أمل في إتمام تلك الزيجة وعن حزنه: فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويقبضني ما يقبضها.

وعلم علي ابن أبي طالب أن لا سبيل أمامه لإتمام صفقته مع بني مخزوم بالزواج من ابنتهم إلا بإغضاب رسول الله والإساءة إليه، وهو مالا يقدر عليه، فقال مطرقاً خاشع البصر، لا يستطيع أن يرفع عينه إلى وجه رسول الله: لا آتي شيئاً تكرهه.

فزال بعض غضب رسول الله وحزنه، وبدأت الراحة على وجهه. وأراد أن يزيل بعض الجفوة التي قامت بينهما، فقال متودداً إلى صهره متلطفاً به؛ ليخفف بعض الحرج الذي يعانيه: ما ترى في دينار؟ يعني ما رأيك في ان تكون مقدار الصدقة المطلوبة للدخول على رسول الله ديناراً كالذي قدمته.

فقال علي: لا يطيقونه.

فقال رسول الله: فنصف دينار.

قال علي، وأحس بالراحة؛ لأن رسول الله قد تجاهل طلب زواجه من ابنة أبي جهل: لا يطيقونه.

فقال رسول الله: فكم إذن؟

قال علي: شعيرة من ذهب.

فتبسم رسول الله وتألق وجهه وهو يمازحه: إنك لزهد !!

وعلى حين فجأة تغير وجه رسول الله، فشخصت عيناه، ثم أغمضهمها، وانقبض وجهه وعلاه العرق وبدا غير قادر على القيام، فأسرع علي بمساعدته على الرقاد، حيث كان الله ينزل عليه قوله: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ مَحْجُورَتِكُمْ صَدَقْتُمْ فَأِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ إِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٧).

وسرى عن النبي من قبضة الوحي، فمسح عن وجهه العرق وتلا على «علي» الآية التي نزلت. ولما هم علي بالانصراف، أوقفه رسول الله، وقد طفا على وجهه الذاهل حزن عميق وهو يقول له: كيف أنت، وقوم من أمتي يخرجون بعدي في آخر الزمان، من قبل المشرق، أشداء أحداء، حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، سيئهم التحليق، ذلقة ألسنتهم بالقرآن، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، يقولون من قول خير البرية، ليست صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، ولا قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه أبداً، فإذا خرجوا فاقتلوهم أينما لقيتموهم؛ لأن قتالهم حق على كل مسلم، وإن في قتلهم أجراً عظيماً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة. من قتلهم فله أجر شهيد، ومن قتلوه فله أجر شهيد. لو يعلم الجيش

الذي يصيبونهم، ما قُضى لهم على لسان نبيهم يوم القيامة لنكلوا عن العمل. وآيتهم أن فيهم رجلاً له عضد، ليس فيه ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعيرات بيض، مجدع (مقطوع) اليد، كأن يده ثدي امرأة حبشية. إنهم من أبغض خلق الله إليه. شر الخلق والخليقة، شر الخلق والخليقة، شر الخلق والخليقة. هم شرار أمتي ويقتلهم خيار أمتي. إنهم شر قتلى أقلتهم الأرض وأظلمتهم السماء.

ثم قرب رسول الله علياً إليه، وأخذ يقص عليه ما سيحدث بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً، في معركة «يوم النهروان» عندما يصير علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين ويقاتل أنصاره الذين يخرجون عليه. ^(٧٨)

وخرج علي بن أبي طالب من حجرة عائشة في بيت رسول الله مذهولاً مما يخبره القدر في مستقبل الايام ناسياً خطبته لبنت أبي جهل.

* * * * *

وأبلغت فاطمة أن زوجها علياً قد خطب ابنة أبي جهل وأنه ذهب ليستأذن أباه رسول الله في ذلك.

واشتعلت نار الغضب والغيرة في قلب فاطمة.

"أجعلني كغيري من بقية النساء فيتزوج علي؟!"

أجعل بنت رسول الله مثل بنت أبي جهل عدو الله؟!"

وانطلقت إلى بيت أبيها تلهث، ووجهها المشرق يتوهج من الغضب وجسدها ينتفض.

وقالت لأبيها: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك. وهذا علي ناكح بنت أبي جهل.

فقال لها أبوها: اهدئي واطمئني؛ فلن يكون هذا أبداً بإذن الله.

فزايها بعض غضبها، وإن بقي أسفها جائئاً على صدرها. ثم استأذنت لترجع إلى بيتها.

وجاء الحارث بن هشام - شقيق أبي جهل - ومعه أخوه سلمة وابن أبي جهل عكرمة. استأذنوا في الدخول على رسول الله - وكان لم يزل في غرفة عائشة - فأذن لهم. كان الحارث يفكر - طوال الطريق - في نكاح ابنة شقيقه من ابن عم محمد. "إن علياً رجل فقير. إنه ابن «السيد المملق»... مفلس بني هاشم، لكن جاهه الرفيع يشفع له. إنه من أقرب المقربين من محمد، الذي أصبح الملك غير المتوج على سائر القبائل العربية. لقد أوشك أن يصير سيد العرب المطاع في شتى أنحاء الجزيرة العربية."

"لقد رفع خالد بن الوليد من شان بني المغيرة، فهل سيتيح ذلك النكاح لهم أن يصبحوا مثل بني هاشم في قريش؟! وهل سيمحو عنهم ويغسل من سيرتهم في الناس عار شقيقي أبي جهل الذي يسمونه عدو الله"

"لكن ألن تكون المغيرة بين الضرائر سبباً في إيغار صدر محمد علينا بنكاح علي من ابنتنا؟ إن علياً لم يعطنا ردّاً!!"

كانت كل هذه الأسئلة تمر في صدر الحارث وهو يسير في الطريق إلى بيت رسول الله مع أخيه وابن أخيه. لكن السؤال الذي ظل يطرق باب فؤاده. ويرواح مكانه دون إجابة شافية ويزيده حيرة فوق حيرته: كيف يتصل الإنسان بأهل السماء ويتلقى الخطاب منهم؟

إن محمداً ليس بكاذب. لقد عُرف واشتهر في قومه بالصدق والأمانة، حتى قبل أن يخرج على الناس بدعوى أنه نبي يوحى إليه من الله خالق السماوات والأرض. ولقد أثبتت الأيام بكل ما حملته من أحداث صدقه وأمانته... لكن كيف يمكن للإنسان المخلوق من طين الأرض أن يتكلم مع أهل السماء ويتلقى كلام الله؟.

ولذلك كان أول شيء تكلم به الحارث مع رسول الله عندما جلس بين يديه مع أخيه وابن أخيه: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ كيف ينزل عليك الملك بكلام الله؟

فقال رسول الله: أحياناً يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً وهو أهونه عليّ فيكلمني كما يخاطب الرجل الرجل فأعي ما يقول.

كل ذلك يأتيني الملك.....^(٧٩)

ثم سكت رسول الله فجأة، وهو ينظر إليهم ويتساءل بلسان الحال: ما الذي أتى بهم؟ وبعثهم على الاستئذان للدخول علي؟

ثم تكلم الحارث بن هشام قائلاً: لقد خطب علي بن أبي طالب ابنة شقيقي عمرو بن هشام.

فجئنا نستأذنك في....

ولم يدع رسول الله الحارث يكمل كلامه فبادره بقوله: وإني لا آذن!!

وصدمتهم الإجابة وانهار أملهم؛ فاستأذنوا في الانصراف، فأذن لهم.

وظن رسول الله أن علياً لا يزال على خطبته لابنة أبي جهل، ولم يعتذر عنها.

فجمع الناس بعد الصلاة وقام فيهم خطيباً ليضع الحدود والنقط فوق الحروف.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبداً لله ورسوله،

أما بعد،

إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علياً بن أبي طالب على ابنتي.

فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يُطلق ابنتي وينكح ابنتهم.



فإنما فاطمة بضعة مني، يريني ما أراها، ويؤذيني ما أذاها، ويغضبني ما أغضبها. وأنا أكره أن يسوءها، وأتخوف أن تُفتتن في دينها، فمن آذاها فقد آذاني، ومن أغضبها فقد أغضبني. وإني لست أُحرم حلالاً ولا أحلل حراماً. ولكن والله لا تُجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً، ولا يجمعها مكان واحد أبداً.

ثم قال كاللائم المعاتب لعلي بن أبي طالب: لقد أنكحت ابنتي زينب أبا العاص بن الربيع فكان نعم الصهر، حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي.^(٨٠)

*** **

(١١)

بنوتيم

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ

رَسُولِهِ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧]

في أول شهر المحرم من العام التاسع بعد الهجرة، استدعى رسول الله - كما اعتاد أن يفعل في مطلع كل سنة قمرية - بعض الرجال ليرسلهم "مُصَدِّقِينَ" ^(٨١) يجمعون الزكاة (الصدقة المفروضة) من القبائل التي أعلنت الدخول في الإسلام وبايعت الرسول حاكمًا، راضية بالخضوع لأحكام شريعة القرآن.

كان رسول الله يجمع هؤلاء الرسل المُصَدِّقِينَ ويعطيهم وصيته الجامعة، التي تتلخص في قوله لكل واحد منهم: "خذ العفو وتوق كرائم أموالهم" ^(٨٢) مبيِّنًا أن الزكاة تُفرض على المال الذين يزيد على الوفاء باحتياجات الحياة الكريمة؛ بما يضمن توفير حد الغنى للإنسان الذي تُفرض عليه وتؤخذ منه الزكاة، موصيًا المُصَدِّق أن يقبل من الناس ما تجود به أنفسهم، وألا يتعسف في أخذ الصدقة المفروضة من الأموال النفيسة الكريمة على أصحابها والتي يحبون الاحتفاظ بها، ويجدون غضاضة شديدة عند أخذها منهم عنوة بقوة السلطان؛ لأن الإنسان المسلم ينبغي أن يشعر - وهو يؤدي زكاة ماله - أنه يقوم بعمل يتقرب به إلى الله، وينفع به أخوته من أبناء أمته وسائر البشر المحتاجين إلى المساعدة، ولا يؤدي زكاة ماله لمجرد الإذعان لأمر الحاكم.

ولكي لا تحدث المنازعات التي تفضي إلى الشحناء أو القتال أو تُغري بتقديم الرِّشا إلى المُصَدِّقِينَ من أجل التنازل عن حق الله والدولة؛ فإن رسول الله كان يُسلم

المصدقين ورؤساء وفود القبائل عندما يقدمون عليه للمبايعة وإعلان الدخول في الإسلام والخضوع لأحكامه «كُتِبَ» مختومة بخاتمه الفضي المنقوش عليه "محمد رسول الله" ويدون فيها أحكام الزكاة والنصاب والمقدار وطريقة الدفع وغيرها من الشروط لكي يكون الطرفان: صاحب المال وجامع الزكاة الممثل لسلطة الحكم على بينة من الأمر. وقد علم الناس جميعاً أن المال عزيز على نفس الإنسان الذي يجب المال حباً جماً.

* * * * *

تَسَلَّمَ «بشر بن سفيان» كتاب فريضة الصدقة من يد رسول الله، وانطلق مع مساعديه وأفراد الحراسة إلى الشرق، صوب هضبة نجد، حيث يسكن قومه بنو كعب، مجاورين ومشاركين في عيون الماء والمرعى لبني تميم.^(٨٣)

وبنو كعب فرع (بطن) من فروع (بطون) قبيلة بل قبائل «خزاعة»، التي تعود في أصلها إلى الجماعات العربية التي كانت تستوطن اليمن، ثم اضطرت إلى الهجرة شمالاً تحت ضغط الطوفان الذي نتج عن تحطم وانهار سد مأرب. ذلك الطوفان الذي سماه القرآن «سيل العرم»:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾^(٨٤)

* * * * *

وتحت ضغط ضيق العيش والفقر، انطلقت ذرية جفنة بن عمرو بن عامر، وواصلت السير شمالاً حتى تخوم الشام، حيث انشأت مملكة أو إمارة الغساسنة التي دخلت في فلك التبعية للإمبراطورية البيزنطية «الروم».

وتوقفت ذرية حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر عند يثرب واستقروا فيها. وهؤلاء هم قبيلتا الأوس والخزرج الذين استوطنوا يثرب وجاوروا فيها اليهود. أوس وخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة من امرأته قيلة.

أما ذرية حارثة بن عمرو بن عامر فقد انفصلوا عن بقية المهاجرين إلى الشمال مبكرًا هربًا من الفقر، وتحلفوا عنهم حيث أقاموا واستوطنوا شمال مكة، قريبًا من الكعبة التي أحبوا البقاء في جوارها، رافضين مواصلة السير شمالاً، فأطلقت عليهم بقية الجماعات المهاجرة التي واصلت السير شمالاً اسم «خزاعة»؛ لأن هذا اللفظ يعني القطعة من الشيء، انكسرت وانفصلت عنه.

كانت مكة حينذاك تخضع لسلطان قبيلة «جرهم»، الذين استطاعوا أن ينتزعوا السيادة على الكعبة من الإسماعيليين: ذرية النبي إسماعيل بن خليل الله إبراهيم الذي بنى الكعبة؛ الذين اختار أكثرهم أو اضطروا إلى الجلاء عن القرية المقدسة، وتركوا «بيت الله» الذي بناه أبوهم وهاجروا إلى شمال الجزيرة العربية عند تخوم الشام، حيث أنشأوا وأقاموا مملكة «الأنباط» التي تسمت بهذا الاسم نسبة إلى (نابت): الابن البكر للنبي إسماعيل، الذي تحرف اسمه إلى نبط أو نبايوت. وبقي القليل من ذرية إسماعيل في مكة وما حولها، مستسلمين إلى الخضوع لسلطان جرهم.

فلما تكاثرت خزاعة وازدادت قوتها، ورأت أنها قادرة على غزو مكة، وبسط سلطانها عليها وانتزع السيادة على قبلة العرب، هاجمت جرهم واستطاعت أن تطردها من أم القرى. وضايقت وطاردت من كان بقي من ذرية إسماعيل، فاضطروا إلى الخروج من القرية المقدسة وتركوا «بيت الله» مدعين إلى حكم القوة. وتفرقوا في البلاد حول مكة وشتى أنحاء جزيرة العرب.

وكانت قبيلة «قريش» -التي تنتسب إلى النضر بن كنانة- قد بقي بعض أفرادها في مكة وما حولها، غير راضين عن سيادة خزاعة على البلد الذي حرمه الله بدعوة أبيهم

الأول أو جدهم الأكبر إبراهيم، وعلى الكعبة، أقدس المقدسات التي بناها أبوهم إسماعيل مع أبيه خليل الله. إنهم أحق الناس بالسيادة على هذه البقعة المقدسة؛ لأنهم أبناء إسماعيل.

ومن هؤلاء كانت فاطمة بنت سعد، التي تزوجت من حكيم بن مرة، الذي اشتهر باسم «كلاب»؛ لأنه كان يهوى تربية كلاب الصيد ويعتني بها، وأنجبت منه زيد. فلما مات حكيم (كلاب) تزوجت من رجل من بني عُذرة -الذين اشتهروا بقصائد الحب "العذري"- وهم أحد بطون (فروع) قبائل قضاعة. فأخذها معه إلى موطن قبيلته على مشارف الشام. وحملت معها ولدها زيد.

وهناك، في أرض بني عُذرة، وُلد الحلم في قلب الشاب زيد. "يجب أن يعود الحق إلى أصحابه. يجب أن ترجع الكعبة: بيت الله، إلى أبناء إسماعيل الذي بناها مع أبيه إبراهيم"

وعزم زيد تحقيق حلمه؛ ليستعيد مجد الآباء، فحشد جيشًا من أخوته من بني عُذرة، ومن كنانة ومن قريش بالطبع، واستطاع أن يهزم خزاعة المغتصبين بعد أن طغوا وأكثروا الفساد في البلد الحرام.

كان ذلك في منتصف القرن الخامس الميلادي قبل مولد رسول الله بأقل من قرن ونصف من الزمان. وزيد بن حكيم هو قصي بن كلاب الجد الرابع لرسول الله، وسمي بهذا الاسم (قصي)؛ لأنه أبعد عن موطن آبائه صغيرًا.^(٨٥)

ومنذ ذلك الحين نشبت عداوة عميقة بين خزاعة وقريش. واضطرت خزاعة بعد هزيمتها على يد قصي بن كلاب القرشي، إلى الخروج من مكة إلى المواضع التي كانت قد استوطنت فيها عند هجرتها من أرض اليمن بعد انهيار «سد مأرب»، لكن الناس مع قلة الماء والمرعى وضيق العيش كانوا يضطرون إلى الابتعاد والانتشار في الأرض. ومن

هؤلاء المبتعدين كان بنو كعب - أحد فروع خزاعة - الذين اتجهوا شرقاً وذهبوا إلى هضبة «نجد»، وجاوروا بني تميم واشتركوا معهم في الماء والمرعى.

وعندما عقد رسول الله صلح (هدنة) الحديبية في ذي القعدة من العام السادس بعد الهجرة (حوالي عام ٦٣٠ م) مع قريش، فإن خزاعة أعلنت تحالفها مع رسول الله، بينما أعلنت قبيلة بكر تحالفها مع قريش؛ إذ كان الصلح يتيح لكل قبيلة أن تتحالف مع أحد الطرفين، الذي يجب عليه أن ينصر حليفه إذا وقع الاعتداء عليه.

وفي شعبان الماضي قبل أربعة أشهر، أغوت وأغرت قريش بني بكر بالاعتداء على خزاعة، فقاموا بغزو ديارهم وانتهكوا حرمتهم. بل واستباحوا حرمة الكعبة، أقدس مقدسات العرب، عندما فر زعماء خزاعة إلى بيت الله، وتعلقوا بأستاره طلباً للحماية، فإن قريش سمحت لمقاتلي بني بكر بالدخول إلى حرم الكعبة حاملين السيوف، وقتلوا من لجأ من خزاعة في ساحة المسجد الحرام.

وهنا استغاث من نجا من خزاعة برسول الله حليفهم، وأرسلوا زعيمهم إلى المدينة المنورة يطلب النجدة والنصرة. فأجابهم رسول الله بحشر أكبر جيش استطاع حشده وانطلق يفتح مكة.

"لقد حشد محمد جنوده، ومضى ليغزو بلده ومسقط رأسه، ويقاقل قومه وعشيرته وفاءً بعهد مع خزاعة وثأراً لكرامتها التي أهينت".

"لقد انتقم من قريش القبيلة التي ولد فيها لأنها أعانت الظالم وخانت العهد."
«نعم الحليف القوي الموفي بالعهد»

كان الخزاعيون يرون في فتح مكة نصراً مبيئاً يخص قبيلتهم؛ انتقموا به من قريش التي أذلتهم وأخرجتهم من مكة، وانتزعت منهم السيادة على الكعبة، بعد أن ظلوا أصحاب الأمر والنهي في البلد الحرام عشرات السنين.

وكانت أحداث فتح مكة لم تزل حية متألفة في الأذهان، عندما جاء بشر بن سفيان يحمل «كتاب» رسول الله؛ ليجمع الصدقة المفروضة من قومه بني كعب وهم فرع من خزاعة.

ولذلك ابتهج بنو كعب بمبعوث رسول الله، واحتفوا به وأكرموا. وعندما وقف بشر بن سفيان مع مساعديه على الماء، وأمر بإخراج الأموال (الإبل والشاة) لإحصائها وحساب فريضة الصدقة طبقاً لكتاب رسول الله الذي يحمله، فإن بني كعب الخزاعيين لم يخفوا شيئاً من أموالهم، بل أسرع كل رجل منهم بإحضار إبله ومواشيه، وساقها إلى عين الماء ليقوم جابي الزكاة بإحصائها وحساب حق الله فيها.

وحشر عند الماء عدد هائل من الإبل والشاء؛ أثار دهشة بشر بن سفيان وإعجابه بشراء قومه وأمانتهم. وأشعل ذلك سخط بني تميم وغضبهم؛ من غباء شركائهم في الماء والمرعى، الذين يضيعون كل هذه الأموال النفيسة؛ إذ يعطونها لهذا الرجل بلا ثمن. واجتمع الملا من بني تميم ليتباحثوا في امر هذا الخطر الداهم الذي يهددهم بأكل أموالهم.

"لا شك أن محمداً سيستمرئ أكل هذا النهب السهل الميسور له. إنه اليوم يرسل رجاله لنهب أموال بني كعب، زاعماً أن الله قد أمره بهذا الغصب لأموال الناس. وينخدع هؤلاء الأغبياء بمعسول كلامه عن النعيم في جنات تسع السماوات والأرض فيعطونه أموالهم... وإذا سارت الأمور على هذا النحو، وأصبح السيد المطاع في كل القبائل، فلا شك في أنه سيرسل إلينا غداً برجل يحمل كتاباً منه ويأمرنا: قدموا أموالكم لآخذ منها ما أشتهي.

فماذا أنتم فاعلون يا بني تميم؟

لا بد من إيقاف هذه المهزلة!!"

وكان بنو تميم «يعلنون» إيمانهم بالمجوسية (الزرادشتية)، الدين الرسمي للإمبراطورية الساسانية (فارس)، ذلك الدين الذي انحدر ليكون عبادة النار المقدسة. ولكنهم -في الحقيقة- لم يكونوا يؤمنون بشيء إلا بالمال المتمثل في الإبل والبقر؛ إذ يتيح لهم التمتع بنعيم حياة الجسد، "وما هي إلا حياتنا الدنيا. أرحام تقذف، وقبور تبلع. نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" وكانوا يستمدون سلطانهم وسطوتهم على القبائل الأخرى بتبعيتهم لفارس؛ إذ يعملون حراسًا لقوافل كسرى التجارية عند مرورها بشرق الجزيرة العربية. وتحت الحماية الفارسية، شنوا الغزوات وانتهكوا الحرمات وأكثروا الفساد، وكانوا مصدر شغب واضطراب لا يتوقف.

وأخذتهم الحمية فقالوا: لن يصل هذا الرجل إلى بغير واحد، ولن ندعه يخرج بشيء. وجهزوا فرسانهم واستعدوا للفتك ببشر بن سفيان ومن معه.

وذهب الملاء منهم إلى زعماء بني كعب، وقالوا لهم في حق مستنكرين: ما لهذا الرجل يأخذ منكم أموالكم بلا ثمن؟! كيف ترضون وتستسلمون لنهب أموالكم؟! فقال بنو كعب: نحن قوم مسلمون. وهذا أمر ديننا. لا بد في ديننا من دفع الزكاة. فقال بنو تميم: ما هذا الهراء؟! يا لكم من بلهاء.

وتركوهم وانطلقوا إلى عين الماء، حيث كان «بشر بن سفيان» مع مساعديه يقومون بإحصاء الأموال.

وأحس بشر بن سفيان بالغدر، ففر مذعورًا ومن معه، وانطلقوا إلى المدينة ليقصوا على رسول الله ما حدث.

وغضب بنو كعب من سوء ما صنع بنو تميم. واستبد بهم الغيظ فسيبوهم: إنكم لصوص خائنون للعهد. ما شأنكم أنتم، أليست أموالنا ننفقها كيف نشاء؟! ليدخلن علينا بلاء من محمد حيث تعرضتم لرسوله تردونه عن صدقات أموالنا.

ورد عليهم بنو تميم: إنكم قوم أغبياء أذلاء، ترضون بالخضوع والخنوع لساحر كذاب.

وأفضى الشجار إلى قتال عنيف بين الطائفتين، حتى مالت الكفة آخر النهار لصالح بني كعب، وأوشكوا أن يسحقوا بني تميم، وأن يقتلوا منهم الكثير، لولا الحرص على حسن الجوار، وحرمة القرابة التي نتجت من المصاهرة عبر السنين. فاكتمى بنو كعب بطرد بني تميم من محالهم والسيطرة على عين الماء والمراعي قائلين لهم: لولا قربابتكم ما وصلتم إلى بلادكم.

ورجع بنو تميم إلى ديارهم يجرون أذيال الخيبة والعار، وقد سُقِطَ في أيديهم. لقد خسروا حُسن الجوار مع بني كعب الذين خالطوهم في المال، وشاركوهم الماء والمرعى وصاهروهم. وفقدوا السيطرة على الماء بعد هزيمتهم الثقيلة في القتال. ولكن الأخطر من ذلك كله أنهم صاروا هدفاً لانتقام محمد؛ الذي أصبح أقوى رجل في جزيرة العرب، بعد فتحه مكة وسيادته على الكعبة وهزيمته لقريش، ولن يتعاس عن تثبيت سلطانه وتأديب أعدائه.

"فماذا أنتم فاعلون يا بني تميم في هذه المصيبة العظيمة التي وقعت على رؤوسكم؟"

هذا هو السؤال الذي أَعَمَّ وأَهَمَّ بني تميم، فاجتمع زعمائهم للتباحث في هذه الداهية والبحث عن مخرج من هذه المصيدة. ^(٨٦)

(١٢)

معاوية بن الحكم

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

كان نور الفجر يواصل انتشاره في سماء المدينة، ما حياً الظلام، كاشفاً عن الأشياء التي كان الليل يخفيها.

وثابت بن قيس بن شماس الخزرجي - خطيب رسول الله - يسرع الخطى مهرولاً ومتعجلاً - في غبشة هذا الصباح، من أيام شهر الله المحرم في العام التاسع بعد الهجرة. كان يريد أن يدرك صلاة الجماعة مع رسول الله قبل انقضائها.

وأن يجد مكاناً في الصف الأول، كما اعتاد كل يوم. لكنه وصل متأخراً بعض الشيء. وعلى عتبة باب المسجد المخصص للرجال، وقف ونظر إلى صفوف المصلين المتراسة، فلاحظ شدة ازدحام المسجد بما يفوق المعتاد، ولم يستطع أن يجد مكاناً إلا أن يحشر نفسه في الصف الأخير. وحال سمعه الثقيل بينه وبين أن يدرك تلاوة النبي. وما أن رفع يديه ناطقاً بتكبيرة الإحرام " الله أكبر " - ليدخل في الصلاة - حتى رأى المصلين يهوون بالركوع. فركع معهم. ثم أدرك أنهم في الركعة الثانية الأخيرة من صلاة الصبح حين أنهم يجلسون جلسة التشهد. فجلس معهم. " لقد ضاعت الركعة الأولى " وانصرف رسول الله من صلاته بالسلام عن يمينه وشماله. وانصرف المسلمون من صلاتهم من ورائه. وقام ثابت بن قيس ليؤدي الركعة التي فاتته متعجلاً، وهو يرى الناس يتدافعون ليقتربوا من مجلس رسول الله عند القبلة، وأخذ كل واحد منهم يربض في مكانه ويتشبث به.

وكان ثابت بن قيس يحرص أشد الحرص على أن يجلس في الصف الأول؛ ليكون قريباً من رسول الله؛ حتى يتسنى لسمعه الثقيل أن يلتقط الحكمة التي تنبعث من فم رسول الله إذا تحدث.

وتناهى إلى سمعه - وهو يجلس في الصف الأخير بعد أن أنهى صلاته - بقايا أصوات جلبة آتية من الصفوف الأولى، لا يستطيع أن يتبين معالم الكلمات ولا معاني الألفاظ، التي تطرق في وهن حائط صممه السميكة، حيث تتداخل أصوات الرجال. فاستبد به الفضول ليعلم ما يحدث هنالك. وتملكته الرغبة في التقدم إلى الصف الأول وانطلق يتحرك. وبادر أصحابه - الذين يعرفونه ويعلمون ما يعانيه من صمم - بإخلاء الطريق أمامه؛ حتى وصل إلى الصف الثاني، وبدأت أصوات الرجال تعلو وتتضح في سمعه.

وكان رجل من القوم قد عطس أثناء الصلاة، فاندفع معاوية بن الحكم يقول له - وهو يتذكر أمر رسول الله بتشميت العاطس - "يرحمك الله".

وإذا بالرجال الواقفين بجواره في الصلاة يقذفونه بنظرات وهمهمات لائمة زاجرة، ويضربون أفخاذهم بأيديهم، يأمرونه بهذه الإشارة بالصمت والكف عن هذا التشويش الذي يفسد الصلاة!!

فصاح معاوية بن الحكم مندهشاً حائراً: واكل أمياه!! ما شأنكم؟! لم تنظرون إلى هكذا؟! ثم أذعن للأمر ولاذ بالصمت حائراً مغتاضاً، لا يعلم سر هذا الزجر، وواصل الصلاة معهم حتى انصرفوا، فتعالت الأصوات من جديد.

ولم يبق بين ثابت بن قيس وبين رسول الله إلا رجل واحد يجلس في الصف الأول. فقال له ثابت - وهو لا يعرفه - بصورته العالی أمر تفسح.

فنظر إليه الرجل مستهجنأ أمره، وقال له في نفور. "قد وجدت مجلساً فاجلس".

فغضب ثابت. ولكن لم يكن في وسعه شيء، فجلس خلف الرجل، وهو ينظر في ظهره، يتميز من الغيظ. وقال لصاحبه الذي يجلس بجواره "من هذا؟" وهو يشير إلى ظهر الجالس أمامه.

فقال له صاحبه: "فلان" ذاكراً اسم الرجل.

فقال ثابت بصوته العالى الذى يخترق الأسماع: "ابن فلانة".

ذاكراً اسم أم الرجل، التى كان يعير بها فى الجاهلية.

وتعالت ضحكات الرجال من حوله، وتناثرت كلماتهم الساخرة. وغرق الرجل فى خجله صامتاً.

واحمر وجه رسول الله من الغضب، عندما نفذ إلى سمعه اسم المرأة وكلمات الاستهزاء وقال: "من الذاكر فلانة؟"

ولسع الندم قلب ثابت. ونظر إلى وجه رسول الله الغاضب فقام متحاملاً على نفسه، منكسراً قلبه وقد أقر بالخطأ وقال معذراً: أنا يا رسول الله.

فقال له رسول الله: انظر فى وجوه القوم.

ولم يفهم ثابت المقصود من السؤال، ولكنه أخذ يمعن النظر فى وجوه الرجال الذين احتشدوا وتزاحموا فى المسجد.

وداعه حضور الكثير من الغرباء الذين وفدوا على المدينة من أماكن بعيدة. وجوه كثيرة لا يعرفها ولا تعرفه، كانت تتوافد على مسجد رسول الله هذه الأيام.

وأخرجه من شروده صوت رسول الله وهو يقول له: ما رأيت؟!.

واحترار ثابت فى الوصول إلى إجابة. ثم قال متردداً: رأيت أبيض وأسود وأحمر،.....

فقال له رسول الله: فاعلم إنك لا تفضلهم إلا بالتقوى.

وجلس ثابت مغموماً، يقطر قلبه ندماً، يخشى أن يكون رسول الله قد غضب عليه.

وخيم الصمت على المسجد. ثم شق صوت رسول الله الصمت منادياً: يا معاوية بن الحكم.

فتقدم معاوية مقرباً من مجلس رسول الله، يكاد يتعثر في طريقه بين الأجساد المحتشدة المتلاحمة، يخشى أن يصيبه اللوم والتقريع.

فبادره رسول الله عندما اقترب منه بقوله: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والكبير وقراءة القرآن.

وشعر معاوية بن الحكم بالراحة. ووجدها فرصة نادرة، أتاحها له المقادير الإلهية إذ جمعته على غير توقع ولا انتظار مع رسول الله، فلا ينبغي تضييعها.

فانطلق يسأل عن الأشياء التي تحير قلبه ويضطرب فيها فؤاده.

قال: يا رسول الله، إنا قوم حديثو عهد بالجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، ولنا أمور كنا نصنعها، فأريد أن أسألك عنها.

ثم توقف عن الكلام للحظات. ثم قال متمهلاً: إنا منا رجالاً يأتون الكهان؟

فقال رسول الله: فلا تأتوهم.... لا تأتوا الكهان؛ إنهم ليسوا بشيء.

فقال معاوية: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً؟!

فقال رسول الله: إن الملائكة تنزل في العنان (السحاب) فتحدث بالأمر، قضى في السماء، يكون في الأرض، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان، فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبه تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى، فيقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة.

قال معاوية: ومنا رجال يتطيرون.

فقال رسول الله: لا طيرة. ذاك شيء يجدونه فى صدورهم فلا يصدّونهم. الطيرة شرك والطيرة على من تطير، ولا ترد مسلماً. ومن ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك. وخيرها الفأل.

قال معاوية: وما الفأل يا رسول الله؟

فقال رسول الله: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم. فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ورأى رسول الله شدة ما يعانى معاوية بن الحكم من أسف وغم وهم؛ لشعوره بصعوبة التخلص من تراث الجاهلية، الموغل فى القدم والضارب بجذور شجرته الخبيثة فى أعماق نفوسهم، وإشفاقه على نفسه وقومه من ثقل القيام بتكاليف الإسلام. فأحب رسول الله أن يزيده علماً، وأن يهون عليه السير فى طريق الإيمان فقال له مواسياً: ثلاث لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد.

يبين له أن هذه الأمراض النفسية يعانى منها كل البشر، فإنه ليس وحده فى هذا الإبتلاء.

ونال معاوية بعض الراحة. وقال متلهفاً يطلب العلاج والتحرر: فما يذهبهن يا رسول الله؟

فقال رسول الله: إذا تطيرت فلا ترجع

وإذا ظننت فلا تحقق

وإذا حسدت فلا تبغ

واستغفر الله

وصمت معاوية للحظات، وهو يطيل النظر فى هذه الحكمة المنبعثة من فم رسول الله، نوراً يضىء الطريق ويمحو الظلمات ويكشف الشبهات، فأراد أن يزداد علماً، فقال:

ومنا رجال يخطون؟

فقال رسول الله: كان نبى من الأنبياء يخط، فمن وافق علمه فذاك.

وهنا رأى معاوية بن الحكم أن يفصح عن القضية الخاصة التى أثقلت ضميره فقال: يا رسول الله! إن عندى جارية ترعى غنماً لى قبل أحد والجوانية (موضع بجوار جبل أحد شمالى المدينة) فأطلعت ذات يوم فإذا بالذئب قد ذهب بشاة من الغنم. وكف عن الكلام للحظات وقد أثقل قلبه الندم وعجز لسانه عن النطق. ثم استأنف حديثه معتذراً: وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون، وأغضب كما يغضبون فصككتها صكة.... "

وعجز عن مواصلة الكلام؛ إذ رأى الغضب يتقد ويفيض من وجه رسول الله، فألجم لسانه.

ثم أسرع يقول عازماً لإصلاح خطئه: أفلا أعتقها. يعنى تكفيراً لذنبه. فهذا وجه رسول الله، وانطفأ غضبه وقال لمعاوية: ائتنى بها. فأسرع معاوية بالخروج ليأتى بجاريته التى ضربها. ^(٨٧).

*** **

والتفت رسول الله إلى رجلين يدخلان المسجد، ويبحثان عن مجلس لهما بين الصفوف.....

وكان قد أرسلهما مصدقين يجمعان الزكاة. وأرسل معهما سلمان الفارسى ليخذ مهما فى الطريق، ويساعدهما فى جمع الأموال، وحراستها أثناء الطريق، كما اعتاد أن يفعل عند إرسال البعوث، فيضم رجلاً فقيراً من أصحابه، إلى بعض الموسرين ليقوم الفقير بالخدمة، مقابل أن يتولى الأغنياء الانفاق عليه وكفاية حاجاته.

وظل سلمان طوال الرحلة يخدم صاحبيه على أحسن وجه تكون عليه الخدمة، مظهراً من التواضع والصبر وكظم الغيظ، ما يليق بعبد طائع لله ورسوله يريد أن يكون من المحسنين.

وكان عليه بموجب الخدمة أن يسبق صاحبيه في الطريق، ليهيئ لهما طوال السفر منازل مريحة في أماكن ظليلة، وأن يعد لهما الطعام كلما جاعا وأحسا بالحاجة إلى الراحة، وأن يعتنى بإبل الصدقة ويسوقها في طريق العودة، حتى يسلمها إلى بيت مال المسلمين في المدينة.^(٨٨)

وعندما صاروا قرب المدينة، أمر أحدهما سلمان أن يجهز لهما طعاماً يتناولانه قبل دخول المدينة.

وأحس سلمان بضيق شديد؛ لأنه كان مجهداً في غاية الإرهاق بعد هذا السفر الشاق، يتعجل الوصول إلى المدينة التي أصبحت على مرمى البصر بعد خطوات قليلة. "ألا يمكنهما الصبر حتى يصلا إلى أهلها فيتناولوا ما يشتهيان من طعام".

ولكنه كظم غيظه وأذعن للأمر. وبينما سار الرجلان إلى مكان ظليل يستريحان فيه، أسرع سالمان ليعد لهما الطعام.

ولكن التعب كان قد أخذ منه كل مأخذ، فما أن جلس على الأرض في هذا المكان الظليل، حتى غلبته على أمره عيناه، فذهب في نوم عميق.

ومضى الوقت ولم يحضر الطعام. فقام الرجلان يمشيان الهوينى ليطلعا على أمر الطعام الذي تأخر كثيراً. فوجدا سلمان يغط مستغرقاً في نوم عميق، "إنه لم يهين الطعام".

فاستبد بهما الغيظ. وضربه أحدهما بقدمه ليوقطه، وهو يغلظ له القول: بئس الخادم أنت... استيقظ أيها العبد الكسول. انطلق فاطلب لنا طعاماً من عند رسول الله قبل أن نرجع إليه.

وكظم سلمان غيظه وقام مسرعاً. ولكنه من شدة تعبهِ واضطرابهِ؛ تعثر فسقط على الأرض متألماً يتوجع، واتكأ الرجلان في ظل شجرة، ينظران إليه باستهزاء ويضحكان منه. "انهض أيها الخادم السييء وأسرع لنا بالطعام".

وانطلق سلمان إلى مسجد رسول الله، حيث كان النبي لم يزل جالساً مع الجمع المحتشد منذ صلاة الصبح ينتظر أن يأتيه معاوية بن الحكم بالجارية التي ضربها؛ لأنها تركت الذئب يأكل شاة له.

تقدم سلمان نحو رسول الله، مخترقاً الصفوف، ومال إليه وسأله طعاماً لصاحبيه. لاحظ رسول الله التعب الشديد بادياً على وجه سلمان، وأحس بما عاناه من غلظة صاحبيه، وقال له:

"أذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فأعطني"
وكان أسامة - حينئذٍ خازن رسول الله على بيت مال المسلمين، الذي يوضع عنده الطعام والمؤن التي تقدم للوفود والضيوف الذين ينزلون عند رسول الله.
وذهب سلمان إلى أسامة فسأله طعاماً فقال له أسامة: لقد نفذ ما كان عندي من طعام والله ما عندي شيء.

فعاد سلمان إلى صاحبيه فأخبرهما، فازداد غضباً وقالا: قد كان عنده ولكنه بخل علينا. اذهب أيها الخادم السوء إلى من تعرف من أصحابك وأطلب لنا طعاماً ولا تبطئ علينا، فإن الجوع قد نال منا.

وأذن سلمان للأمر وطاف - رغم جوعه وتعبه - على طائفة من أصحابه يسألهم طعاماً لصاحبيه. ولكنه لم يجد شيئاً فرجع إليهما وأخبرهما؛ فازداد غضباً على غضب، وقال أحدهما لصاحبه ساخراً من سلمان: والله لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة - وهي بئر قديمة في المدينة المنورة (يثرب) كانت معروفة ومشهورة بغزارة مائها، لغار ماؤها.

والتفت إلى سلمان قائلاً: ما أشأم وجهك. اغرب عنا "بئس الخادم كنت".

وكظم سلمان غيظه وأمسك لسانه. وذهب إلى الإبل التي جمعت في الصدقة ليسوقها إلى بيت المال. وقام الرجلان متكاسلين، وسارا إلى المسجد؛ ليخبرا رسول الله بما جمعا من أموال الزكاة، حيث التفت إليهما رسول الله، وهما يبحثان لهما عن مجلس بين الصفوف، فباغتهما بقوله موناخاً: مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما "

فانزعجا وقالوا فى نفسيهما " ما هذا الجنون؟! هل نأكل اللحم نيئاً؟! "

ثم قالوا شاكيين: يا نبي الله، والله ما أكلنا شيئاً فى يومنا هذا. لا لحماً ولا غيره.

فقال رسول الله: " ولكنكما ظلمتما تأكلان لحم سلمان وأسامة بلسانكما "

وأطبق عليهما الفزع والوجوم. ونظر كل واحد منهما لصاحبه " ما كان معنا!!

فمن أنباه بحديثنا؟! "

وأحاط بهما الخجل، فنكسا رأسيهما وجلسا مطرقين صامتين.

ووجدها عكرمة بن أبى جهل فرصة سانحة؛ ليث شكوها. قام وتقدم نحو رسول الله ورفع صوته قائلاً: يا رسول الله، أشكو إليك أصحابك. يعايروننى بأبى. كلما رأونى قالوا ابن فرعون ابن عدو الله.

وكان رسول الله نفسه قد وصف أباه جهل بأنه فرعون هذه الأمة، وأنه عدو الله.

وسرت الهمسات والهمهمات فى صفوف المحتشدين فى المسجد، كالنار تسرى فى

باطن الفحم المنطفىء.

وثارت الأسئلة، تنكأ الجروح العميقة التى لم تندمل بعد.

" أليس هو ابن فرعون حقاً؟! إنه الوحيد من صناديد قريش الذى أصر على

القتال يوم فتح مكة. تصدى لخالد بن الوليد، ولم يكف عن القتال إلا بعد أن هزم شر

هزيمة، ولاذ بالفرار مذعوراً خوفاً على حياته كفريسة تهرب من الصياد بعد أن تفرق

عنه أصحابه وسقط منهم قتلى. إنه لم يعلن الإسلام إلا حرصاً على رقبته، التي كان ينبغي أن تقطع كما قطعت رقبة أبيه الهالك يوم بدر."

وعلا البشر وجوه المنافقين، وتناجوا فرحين شامتين: "إنه لا يستطيع إنكار قوله عن عمرو بن هشام إنه فرعون هذه الأمة. كما وصفه على الملأ ومن فوق منبره هذا بأنه عدو الله. ورفض أن ينكح على بن أبي طالب إينة أبي جهل؛ لأنها بنت عدو الله. أليس عكرمة هو ابن أبي جهل. فلا يقدر على تخطئة من قال أنه ابن فرعون!! فكيف سيخرج من هذه الورطة التي أوقع نفسه فيها،،.

** **

كانت الهمسات والهمهمات تسرى، والأسئلة تمور في الصدور، بينا كانت يد الوحي تأخذ نبي الله، وتنتشل قلبه من شهود الدنيا؛ لتلقى فيه بعض كلمات الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (٨٩).

وأطلق من قبضة الوحي، فكشف الغطاء عن وجهه، وطفق يمسح العرق الغزير الذي يفيض من جبهته وسائر وجهه، وهو يستعيد الوعي بالمسجد ومن فيه.

ثم قال: أتدرون ما الغيبة؟

فقال واحد منهم: الله ورسوله أعلم.

قال: الغيبة ذكرك أخاك بما يكره من خلفه.

قال الرجل: فإن كان في أخى ما أقول؟!

قال: إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته. (٩٠)

وأحاط بهم الوجوم، وأشفقوا على أنفسهم. "أين المفر" لقد غرقنا في الخطايا، مجرد أن تذكر أحداً من الناس في غيابه بما يكره، كأنك قد قتلتته، وجلست تأكل لحم جثته؟! ما أبشع هذا. ما أشد ما وقعنا فيه.

كيف سنواجه مصيرنا يوم الحساب."

وجاء معاوية بن الحكم بالجارية التي ضربها وأخذ يخترق الصفوف، ليقترّب من رسول الله.

كانت فتاة صغيرة. صبّية ضئيلة الحجم، شاحبة الوجه، عليها ثياب رثة. نظر إليها رسول الله بحنان متودداً، وأشار إليها بيده "تقدمي". فسارت نحوه تمشي على استحياء، تكاد تتعثّر بخطواتها المضطربة، وهي ترى عيون هذا الحشد الكبير من الرجال تمطرها من كل جانب بنظرات متفحصة.

ثم قامت بين يدي رسول الله. ثم رفعت إليه وجهها. فقال لها متلطفاً يمتحن إيمانها: أين الله؟

فاستعادت الصبية شجاعتها، وأجابت في ثقة وهدوء وهي تشير بيدها نحو سقف المسجد: في السماء. (٩١)

فهز رسول الله رأسه موافقاً، وقد بدا الإرتياح على وجهه. ثم قال لها: من أنا؟

فقالت الصبية: أنت رسول الله.

فتلأ لأوجه النبي والتفت إلى معاوية قائلاً: أعتقها فإنها مؤمنة.

فقال معاوية بن الحكم: هي حرة لوجه الله عسى أن يغفر لي.^(٩٢)

وجاء بشر بن سفيان فأخبر رسول الله أمام الجمع المحتشد في المسجد، بما فعله بنو تميم إذ منعه من جمع الزكاة وأوشكوا أن يفتكوا به لولا أن فر منهم مع من معه. فاستدعى رسول الله عيينة بن حصن، وأمره أن يجيز سرية من الأعراب الذين أتوا من مختلف القبائل إلى المدينة للمبايعة، وألا يأخذ معه أنصارى ولا مهاجرى. وفرح عيينة بهذه السرية التي ستجلب له غنائم كثيرة. ورفع بلال آذان صلاة الظهر ليفتح به أبواب السماء.

وبعد الانصراف من الصلاة، خرج من المسجد، واتجه إلى حجرة عائشة يريد أن يضطجع قليلاً ليظفر؛ بقسط من الراحة. كانت عائشة هي أحب نسائه إليه، وكان ينعم في حجرتها بالراحة والسكينة، وينزل جبريل عليه حاملاً وحي الله أكثر من حجرات غيرها من نسائه.

وعلى باب الحجرة وجد امرأته صفية بنت حبي، تقوم مع عائشة تتبادلان حديثاً هامساً. أطال النظر إليهما صامتاً، مستغرقاً في التفكير، فهاجت غيرة عائشة إذ ظنت أنه يتأمل مستمتعاً بجمال صفية.

وإذا بصوتها يباغته ويخرجه من شروده. صاحت في غضب وغيظ: حسبك من صفية أنها... وأشارت بيديها تعنى أنها قصيرة. فاحمر وجه رسول الله وفاض منه الغضب، وهو يقول لها: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته.^(٩٣)

وأدركت عائشة ما تحمله كلمات رسول الله من غضب، فسقطت في جلدتها، وتورات من أمامه، لا تستطيع أن تنظر في وجهه. وأسرعت تهوّل إلى صفية - التي كانت قد ذهبت إلى حجرتها متألمة - لتعتذر إليها وتستغفرها، بينما كان رسول الله يمضي إلى حجرة عائشة مرهقاً، مثاقيل الخطي مصوباً نظره إلى الفراش، يريد أن يلقي عليه جسده المتعب.

(١٣)

الوليد بن عقبة بن أبي معيط

﴿ قُلْ إِنِّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩]

كان رسول الله قد بعث الوليد بن عقبة مصداقاً إلى بنى المصطلق ليجمع زكاة أموالهم. وكان بنو المصطلق قد تجهزوا لغزو المدينة المنورة في العام الخامس بعد الهجرة، قبل أربع سنوات. فلما جاءت العيون بالخبر إلى رسول الله، بادر بالهجوم عليهم، فهزمهم شر هزيمة، ففروا ووقع الكثير منهم في الأسر. وكان من بين الأسرى برة بنت زعيم بنى المصطلق: الحارث بن أبي ضرار. ووقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له، فصارت بذلك ملك يمين للرجلين، وكان لابد أن يتفاوض الرجلان حتى يتنازل أحدهما عن نصيبه إلى الآخر، مقابل ثمن مقبول.

فأخذ ابن عم ثابت الثمن، وصارت بنت زعيم بنى المصطلق ملكاً لثابت. لكنها لم ترض بهذا المصير، فاتفقت معه على أن تكاتبه (تحرر نفسها مقابل مبلغ من المال) وأسرعت إلى رسول الله تستعينه في كتابتها؛ إذ كانت تعلم كغيرها من الناس، أن تحرير الرقاب من مصارف الزكاة (الصدقة المفروضة) وأن على المسلمين أن يقبلوا اعتاق من يريد التحرر مقابل الكتاب (الثمن) الذي يتفق عليه كما قال قرآنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور: ٣٣].

أستأذنت للدخول على رسول الله، وكان في حجرة عائشة، التي ما أن رأتها حتى هاجت غيرتها وكرهتها؛ لأن المرأة كانت بالغة الجمال، يأخذ حسننها بكل من يراها، فقالت عائشة في نفسها "سیری منها ما قد رأيت".

وقالت برة بنت الحارث: يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار - سيد قومه - وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك. وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له، فتخلصني من ابن عمه بنخلات له بالمدينة، فكاتبتي على مالا طاقة لي به ولا يدان. وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. لقد كاتبته على نفسي، فأعني على كتابتي. تطلب منه أن يتصدق عليها بالمال، لكي تدفع لثابت بن قيس ما اتفقت عليه معه.

فقال رسول الله وقد أشفق عليها وأخذه حسنها: أو خير من ذلك فقالت؟

وما هو يا رسول الله؟

قال: أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك، ويكون مهرك عتقك. فقالت وهي تكاد تطير من الفرح: نعم، يا رسول الله قد فعلت. وتذكرت رؤيا رأتها قبل قدوم النبي إلى درياهم، يوم معركة المريسيع بثلاث ليال. رأت كأن القمر قد جاء يسير من يثرب، ثم وقع في حجرها. فخافت وكرهت أن تحدث أحداً برؤياها.

ولما جاء أبوها الحارث بن أبي ضرار مع الملاء من قومه، إلى رسول الله يطلبون فداء أسراهم، وكان المسلمون قد علموا أن رسول الله قد تزوج من بنت الحارث وسماها جويرية، وحجبها عن الأنظار (أمرها أن وجهها عند الخروج من المنزل) لأنها صارت أمّاً للمؤمنين، فقالوا عن أسرى بنى المصطلق: "أصهار رسول الله فلا ينبغي أن يبقوا في الرق). فأعتقوهم إكراماً لرسول الله وإقتداءً به. وقالت عائشة: ما أعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها، فلقد أعتق بها مائة أهل بيت من بنى المصطلق.

ودخل بنو المصطلق في الإسلام، وبايعوا رسول الله، ودانوا له بالطاعة، وتمكن الإيمان من قلوبهم، وشريعة الإسلام في أرضهم، فانتظموا في دفع الزكاة إلى المصدق، الذي يرسله إليهم رسول الله في مطلع كل عام.

وفى الطريق إلى بنى المصطلق سار الوليد بن عقبة يحمل كتاب رسول الله فى الصدقة المفروضة. لم يبعث رسول الله معه أحد؛ لأن بنى المصطلق كانوا شديدي الاحتفاء بمبعوث رسول الله إليهم، يجمعون له أموالهم (إبلهم ومواشيهم) عند عين الماء، ويساعدونه على إحصائها وحراستها حتى يبلغ مأمنه على باب المدينة المنورة. إعتادوا ذلك منذ ثلاث سنوات.

وقابل بعض الركبان الوليد بن عقبة فى الطريق، فأخبروه أن بنى المصطلق قد استعدوا له واستشدوا لإستقباله.

وظن الوليد بن عقبة أن فى هذا الكلام تورية وكناية عن عزمهم قتل، ثاراً من أبيه عقبة بن أبى معيط الذى كان قد قيل منهم رجلاً فى الجاهلية.

وبوغت الوليد بهذا الحديث المثير للريبة. فتوقف عن المسير. ومكث يفكر فى الأمر. من الحماقة بل من الجيون أن يخاطر الرجل بحياته، ويضع رقبتة تحت سيف أعدائه. "إذن إن الحكمة تقتضى ألا تذهب إلى بنى المصطلق الذين يتربصون بك". ولكن ماذا ستقول لمحمد الذى بعثك لأخذ الصدقة المفروضة من أموالهم عندما تعود إليه فارغ اليدين؟

وانتهى تفكيره إلى الفرار. ثم الاختباء أياماً تكفى للذهاب والإياب. ثم يرتد إلى المدينة زاعماً أن بنى المصطلق قد منعوا زكاة أموالهم.

* * * * *

وجاء عيينة بن حصن من سرية تأديب بنى تميم غالباً يسوق الغنائم الوفيرة والأسرى.

لقد انتصر على بنى تميم انتصاراً ساحقاً مذلاً لكرامتهم. كان يكمن - طوال الطريق إليهم - فى النهار، ويسير مسرعاً فى الليل. فلما وصل إلى مشارف منازلهم كمن

حتى انتصف النهار، وعلت شمس الظهرية، فأسرع الرعاة إلى الأماكن الظليلة، واتكأوا على الأرض مسترخين، وتركوا إبلهم ومواشيهم سارحة في المرعى.

وعلى حين بغتة، هجم عليهم عينية وجنوده هجوم القدر الذي لا يرد. فلما رأوه وجنوده على الإبل المحاربة، شاهرين سيوفهم، شخصت أعينهم من الفرع وهول المفاجأة. ثم لاذوا بالفرار مسرعين إلى قومهم يستصرخونهم (النجدة.... النجدة) تاركين أنعامهم. فانقض عينية وجنوده عليها إنقضاض الأسود على الفرائس فجمعوها، وضربوا عليها حراسة حتى يسوقوها غنائم إلى المدينة.

ولم يتمكن من الهرب جماعة من بنى العنبر - وهم فرع من فروع بنى تميم، إذ أن العنبر هو أحد أحفاد تميم، فهو العنبر بن عمرو بن تميم - إذ تعثروا في جريمهم مدعورين، فصرخ عينية في جنوده: اقبضوا عليهم وإياكم أن تفلتوهم. فطاردهم وأمسكوا بهم، وشدوا وثاقهم، وساقوهم أسرى مع الغنائم إلى المدينة. وكانت الغنائم وفيرة والصيد ثميناً، فأكتفى عينية بذلك، ولم يشأ أن يطارد الفارين أبعد من هذا حتى لا يضيع الصيد من يده.

وفي المدينة، ترك عينية الغنائم والأسرى تحت حراسة مشددة من بعض جنوده. وأسرع يمشى متخايلاً، فرحاً فخوراً بما صنعه. ودخل مسجد رسول الله، ورأى الناس محتشدين ينتظرون إقامة صلاة الظهر. ولم تقع عيناه على رسول الله فقال بصوت عال للجالسين في المسجد: أين محمد؟

كان يريد أن يخبره بما أنجزه في سريته، ويعرف نصيبه من الغنائم. "فكم يعطيني اليوم وقد كنت قائد السرية التي أدبت له بنى تميم؟

وبوغت أصحاب النبي بما قاله عينة، وقد بدا عليهم الغضب والغیظ من سوء أدبه. وأشاروا بأيديهم إلى حجرة عائشة. فإذا به يقتحم الحجرة، ليجد رسول الله

ينصرف توأ من صلاة النفل قبل فريضة الظهر، وعائشة قائمة فى ناحية من الحجرة.
وبوغت رسول الله بمن يقتحم عليه حجرة امرأته. ثم قال له موبخاً: يا عينية
أين الإذن؟

فقال عينية فى تحد وصفاقة: ما استأذنت على أحد من مضر قط. إنها يمين على ألا
استأذن على مضرى مثلى.
ثم نظر إلى عائشة التى كانت تقف مذهولة من وقاحة وفضاظة هذا الرجل فقال
لرسول الله وهو يشير إلى عائشة: من هذه؟

فقال رسول الله وهو يتعجب من سوء أدبه: أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر.
فقال عينية: الا أنزل لك عن واحدة أجمل منها؟!

يريد أن يمنح رسول الله إحدى نسائه، نظير أن يتنازل له رسول الله عن عائشة،
التى استشاطت غضباً عند سماعها لهذه البذاءة البشعة، التى ما كنت تنصور أن تستمع
إليها أبداً فى يوم من الأيام. وأوشكت أن تسب عينية وتلعنه، لولا خشيتها من غضب
رسول الله، الذى نهاها عن العنف وأمرها بالرفق والتلطف. فكظمت غيظها وأمسكت
لسانها وأسرعت تحتفى وراء الحجاب (الستار) الممدود بطول الحجرة، ويقسهما إلى
جزئين أو غرفتين. الداخلية للنوم والأكل والاجتماع مع الأهل. والخارجية للجلوس
والاجتماع مع الأصحاب والضيوف وسائر الناس.

ولم يطق أصحاب رسول الله المجتمعون فى المسجد صبراً على هذا الأعرابى
الفاحش، فقاموا إليه، وانقضوا عليه ليخرجوه من الحجرة. وكاد بعضهم أن يفتك به،
لولا تدخل الحكماء، فاستنقذوه من أيدي الذين استبد بهم الغضب، ووبخوه على
فضاظته وسوء أدبه، وعلموه أنه لا ينبغى أن يدخل على أحد حجرته دون إستئذان، فما
بالك برسول الله؟!!

وخرجت عائشة من وراء الحجاب، وسألت رسول الله في انزعاج وغضب: من هذا؟

فقال رسول الله: هذا..... أحقق مطاع.

ثم قال لها: أبشري فقد جاء سبى بنى العنبر.

وكانت عائشة قد نذرت لله أن تعتق نفساً من ولد النبی إسماعيل. ولما جاء أسرى من قبيلة خولان - وهم من قبائل اليمن الذين يعود أصلهم إلى قحطان، فهم من العرب العاربة الذين واصلوا البقاء في جنوب الجزيرة العربية، وليسوا من العرب المستعربة أحد العدنانية الذين يعود أصلهم إلى النبی اسماعيل ابن خليل الله إبراهيم - أرادت عائشة أن تشتري واحداً منهم لتعتقه، ولكن رسول الله قال لها: لا، اصبري حتى يأتي فيء بنى العنبر غداً. لأن بنى العنبر من بنى تميم الذي يعود نسبه إلى النبی إسماعيل.

وبعد الانصراف من صلاة الظهر خرج رسول الله من المسجد وذهب ليرى الأسرى. كانوا يجلسون على الأرض في ذلة، مشدود وثاقهم مغلولة أيديهم. كومة مسكينة من بؤس الإنسان. نظر إليهم، وهو يتذكر أن هؤلاء من ذرية نبي الله اسماعيل الذبيح ابن خليل الله إبراهيم، ونسى أنهم من قوم أعداء حرضوا على عصيانه، فالتفت عيناه بماء الرحمة، وهو يتعجب من سر الأقدار التي لا يقدر مخلوق على سبر غورها. ونظروا إليه متضرعين في ذلة ومسكينة، ينتظرون حكمة فيهم، ويرجون رحمته ويخافون عقابه.

فقال وهو يغالب البكاء: فكوا الوثاق.

فأسرع الجنود الحراس بفك وثاق الأسرى. واقترب رسول الله منهم. ثم أخذ يمسح رؤسهم ويدعو الله لهم في سره. وأمر بإطعامهم.

ثم التفت إلى امرأته عائشة، التي كانت قد أسرع في إثره لترى سبى بنى العنبر الذى حدثها عنهم. وقال لها: يا عائشة هؤلاء من بنى إسماعيل قصداً. خذى منهم أربعة. وهم مقدار "الخمس" الذى يحق لرسول الله أن يأخذه لنفسه، ليكون تحت تصرفه، لينفق منه على نفسه وأهل بيته واليتامى والمساكين وأبناء السبيل الذين تعرضوا للكوارث وتشردوا.

واختارت عائشة من السبى امرأة فأعتقتها، وفاء بنذرهما لله. ^(٩٤)

** **

وجاء الوليد بن عقبة إلى مسجد رسول الله. وما أن انصرف رسول الله من الصلاة، حتى قام الوليد مسرعاً وقال بصوت عال، والمسلمون لا زالوا فى المسجد لم يغادروه بعد: يا رسول الله إن بنى المصطلق قد منعوا زكاة أموالهم، وارتدوا عن الإسلام، وأمر الحارث بن أبى ضرار بقتلى، فهموا بى لو لا أنى فرررت منهم. وقد أعدوا العدة وجمعوا لقتالك.

ونزل النبأ على رسول الله والمسلمين نزول الصاعقة المحرقة، فتعالت صيحات الغضب من جنبات المسجد: الانتقام يا رسول الله..... يجب تأديب بنى المصطلق كما فعل ببنى تميم..... هل هذا جزاء الإحسان؟! لقد مننا عليهم فأطلقنا أسراهم بلا فداء.....

وعلت الكآبة وجه رسول الله، وبدأ عليه الاستغراق فى التفكير. "هل حقاً فعل الحارث وبنى المصطلق هذا؟ هل ارتدوا كفاراً وتمردوا على حكم الإسلام؟ لماذا يفعلون هذا؟ هل سيحذو العرب حذو بنى المصطلق، ويخرجون من دين الله أفواجاً كما طفقوا يدخلون فيه أفواجاً؟

واستبشر المنافقون وبدا على وجوههم السرور، وتهامسوا فيما بينهم " إذا كان أصهاره قد خرجوا عليه وأعلنوا العصيان، فإن بقية القبائل ستسير في نفس الطريق. سيعود غريباً ذليلاً، كما جاء من مكة. سنطرده من يثرب ليهيم على وجهه في الصحراء حيث يموت وحيداً ويضيع ذكره ونمحي أثره ويرجع العرب كما كانوا قبل أن يخرج علينا بفتنته..... مرحى مرحى بمثل هذه الأنباء السارة "

وبينا الناس على هذه الحال، فإذا بالحارث بنى أبي ضرار يدخل المسجد، على رأس وفد من بنى المصطلق. فآثار دخولهم عاصفة من صيحات الغضب " لماذا تأتون يا جاحدى الفضل. مننا عليكم وأعتقنا أسراكم، ثم تمنعون الزكاة وتتجهزون لقتالنا " وتساءل بعضهم ما الذى جاء بهم؟ أيواصلون خداعنا؟ ماذا سيفعل رسول الله بهم؟

ودافع بعض بنى المصطلق عن أنفسهم قائلين: والله ما حدث منا ما تقولون!! فردوا عليهم: كلا بل ينبغي قطع رقابكم.

فثار حمية بنى المصطلق وشهروا السيوف. وأوشكت الطائفتان أن تشتكبا في القتال، لولا تدخل الحكماء.

وأمر الحارث قومه أن يغمدوا سيوفهم، ويمسكوا ألسنتهم، ويصبروا حتى يتكلم رسول الله.

وانتهز الوليد بن عقبة فرصة الجلبة التى تتعالى فى المسجد، فلان بالقرار واختفى عن الأنظار. تسلل هارباً وغادر المدينة المنورة فلم يعثر له على أثر؛ إذ قصد مكة ليكون فى حماية عشيرته من صناديد قريش.

وعلا صوت رسول الله ليسكت كل الأصوات، قائلاً فى غضب للحارث بن أبى ضرار الذى تقدم وقام بين يديه: أمنت الزكاة وأردت قتل رسولى؟!

فقال الحارث في ثقة، وقد علا صوته وهو يتحسس الكلمات بعقله، قبل أن ينطق بها لسانه: كلا نعوذ بالله من سخط الله ومن سخط رسوله. والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى. جمعنا أموالنا واحتشدنا وتهيانا لاستقبال رسولك كما اعتدنا أن نفعل؛ لنكرمه ونعطيه صدقات أموالنا طاعة لله وتعظيماً لأمرك يا رسول الله، ولكنه لم يأت وطال إنتظارنا. ثم علمنا من بعض رجالنا الذين رأوه على الطريق أنه رجع من بعض الطريق. فاجتمعت مع سروات قومي، وتشاورنا في الأمر، واتفقنا على أن نأتى إليك لنعلم سر احتباس رسولك عنا؛ إذ خشينا أن يكون ذلك سخطه من الله ورسوله علينا؛ نعوذ بالله من سخط الله ومن سخط رسوله. وقد سمعنا إليك زكاة أموالنا راضين قارة عيوننا. وكان بنو المصطلق قد جمعوا الأموال خارج المسجد.

وبدا الإرتياح والسرور على وجه رسول الله. وقد تحفف من حمل ثقل. وقال متنفساً الصعداء: الحمد لله التانى من الله والعجلة من الشيطان. (٩٥)

وتعالت الأصوات تسب وتلعن الوليد بن عقبة: المنافق الذى أوشك أن يشعل نار الحرب نبأ كاذب وأفدت العيون تبحث عنه فى أرجاء المسجد، بينا كانت يد الوحي تأخذ نبي الله لتلقى، فى قلبه بعض كلمات الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

(١٤)

حضرمي بن عامر

﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أُمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٧٨]

دخل على بن أبي طالب بيته، حاملاً على عاتقه قربة كبيرة مملوءة بالماء، أتى بها من البئر. وكانت أمة قد ضربها الزمن بالمرض فوهنت، ولم تعد تستطيع أن تحضر الماء، كما كانت تفعل من قبل. وكان على ممن شدة غيـرته على فاطمة قد طلب من أمه أن تقوم بالأعمال اللازمة للمعيشة خارج البيت على أن تقوم فاطمة بنت النبي بالأعمال المنزلية. فلما أصاب أمة المرض، كان لزاماً عليه أن يحضر الماء إلى البيت كل يوم.

وضع على قربة الماء على الأرض، ونظر إلى امرأته وهي تحبز العجين في الفرن. توهج وجهها من النار، فبدا عليها التعب الشديد، والعرق يسيل من وجهها، وقد اختلط بالغبار الذي لوث وجهها وملابسها بعد قيامها بتنظيف البيت.

وملاً الحزن والشفقة قلب على بن أبي طالب على نفسه وعلى زوجه مما يعانيان من شظف العيش. واقترب على من امرأته وقال لها شاكياً: والله لقد سنوت (استقيت من البئر وحملت الماء كأنني السانية، وهي الناقة التي تستعمل في رفع الماء من البئر) حتى اشتكيت صدرى.

فقالت له فاطمة تواسيه وتواسى نفسها وتشاركه الشكوى: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداى (خشنت وتشققت) وثخن جلدى من العمل الشاق. وأرته أثر الرحي في يدها.

فقال لها على: قد جاء الله أباك بسبى وسعة، فلو أتيت رسول الله: فسأليته خادماً، فقد أجهدك الطحن والعمل. وكان على قد علم نبأ مجيء سبى بنى العنبر الذين أتى بهم عيينة بن حصن، ومنح رسول الله امرأة منهم إلى عائشة لتعتقها. فأسرعت فاطمة إلى بيت أبيها. فلم تجده في إحدى حجرات نسائه. إذ كان في المسجد منشغلاً في الحديث مع جمع من الرجال.

فلما طال الوقت شعرت فاطمة بالخرج من الانتظار في حجرة عائشة. فذكرت لها ما جاءت من أجله، وهى تمني نفسها بأن تكون عائشة رسولها إلى أبيها؛ إذ كانت تعلم أن عائشة هى أحب نسائه إليه.

ولما همت بالخروج من غرفة عائشة. دخل أبوها فرآها وعرف أن لها حاجة بعثتها على المجيء فجأة، فى هذا الوقت الذى لم تعتد المجيء فيه.

فقال لها: ما جاء بك يا بنية؟

شعرت بالخرج والحياء من ذكر حاجتها، واكتفت بأن تخبره عائشة. فقالت وهى تتلعثم إذ كانت الكلمات تتعثر فى الطريق إلى لسانها: جئت.... لأسلم عليك يا أبى. وانطلقت خارجة من حجرة عائشة. فقابلت امرأة أبيها أم سلمة. فلما سلمت عليها وسألتها عن سبب مجيئها، ذكرت لها فاطمة حاجتها إلى خادم من السبى؛ لتحرر من الطحن والعمل الشاق فى بيت زوجها.

وذكرت عائشة لزوجها رسول الله سبب مجيء ابنته فاطمة. وجاءت أم سلمة وأخبرت رسول الله بمجيء فاطمة وحاجتها إلى خادم تخفف عنها عناء العمل فى بيت زوجها الفقير؛ إذ كانت أم سلمة تخشى أن تتقاعس عائشة عن إخبار رسول الله بشكوى ابنته، بسبب الغيرة المكتومة الناشبة بين عائشة وزوجته وفاطمة ابنته، لأن عائشة كانت لا تريد أن يشاركها أحد فى حب رسول الله زوجها.

ورجعت فاطمة إلى زوجها على فقال لها: ما فعلت؟

فقصّت عليه ما وقع. ثم قالت: استحييت أن أسأله. وبدا الضيق على وجه علي، وشعر بالغيظ والغضب. وكان يخشى أن تفسد عائشة عليه وعلى زوجته مسعاهما، للجفوة التي قامت بينه وبين عائشة عند حادثة الإفك، منذ ما يقرب من أربع سنوات، عندما اقترح على علي رسول الله أن يطلق عائشة خلاصاً من الحيرة التي كان يعاني منها رسول الله، بعد أن أثار المنافقون وضعاف الإيمان الشكوك حول إرتكاب عائشة للفاحشة، أثناء رجوع الجيش من معركة بنى المصطلق (يوم المريسيع).^(٩٧)

وأرادت فاطمة أن تخفف عن زوجها ما يعانيه، وأن تتشجع به على التغلب على حيائها، فقالت له: هيا بنا. انطلق معي نذهب إليه.

وذهبت فاطمة بنت النبي مع زوجها على إلى أبيها رسول الله. فقال علي: أنا أحدثك يا رسول الله، لقد شق علينا العمل. وأخذ يقصص على النبي ما تلقاه إبنته من مشقة في أعمال المنزل، وما يعانيه هو من حمل الماء. ثم قال: وقد جاءك الله بسبى وسعة، فأخدمنا.

استمع رسول الله صامتاً، وهو يفكر ملياً فيما يقال، وفي الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم ولا مأوى لهم، ويتخذون من المسجد وما حوله بيتاً، يعيشون فيه على الصدقات؛ لأنهم عاجزون عن العمل، ويريدون أن يقضوا أعمارهم في العبادة وذكر الله، وتلقى الحكمة من فم رسول الله ليحفظوها وينقلوها للأجيال القادمة من بعدهم مثل أبي هريرة.

ثم قال رسول الله لعلي وفاطمة: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم. ولكني أبيع هؤلاء السبى، وأنفق على أهل الصفة أثمانهم.^(٩٨)



فرجعت فاطمة مع زوجها وقد خاب رجاءهما.
 وكان على يظن أنه يطالب بحقه في خمس رسول الله؛ لأنه وفاطمة من «أولى قربي»
 النبي الذين لهم نصيب في خمس الغنائم.

** **

وانصرف رسول الله من صلاة الظهر، فقال له أحد الأعراب الذين ازدحم بهم
 المسجد: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً!!
 فقال له رسول الله: لقد تحجرت (ضيقت) واسعاً. فقام الرجل، وانتحى بناحية
 من المسجد وأخذ يبول. ففوجى الناس بهذا العمل الفاحش، فثاروا إليه وأخذوا
 يدفعونه ليخرجوه من المسجد، وهم يتتهرونه ويزجرونه ويصيحون به (مه..... مه)
 وسبه بعضهم، وأراد آخرون أن يضربوه؛ ليكف عن التبول.
 فارتفع صوت رسول الله (دعوه..... دعوه..... لا تذرموه).
 فتركوه حتى فرغ من بوله.

ثم قال لهم رسول الله: هريقوا على بوله سجلاً من ماء. فأسرع رجل، فأحضر
 دَنُوباً (دلواً كبيرة واسعة) تكاد تمتلأ بالماء، وصبه على بول الأعرابي، الذي وقف في
 جانب المسجد خائفاً يرتجف، وهو يشعر بالذلة، يخشى أن يأمر الرسول بضربه.
 ثم دعاه رسول الله. فتقدم الرجل إليه فزعاً مضطرب الفكر.

فقال له رسول الله: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر. إنما
 هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن.

وأحس الأعرابي بإمتنان عميق لرسول الله، لأنه لم يعاقبه، ولم يؤنبه، ولم يسبه.
 فقال لرسول الله صادقاً: يا بى أنت وأمى.

وتوجه رسول الله إلى الجمع المحتشد في المسجد، وقد لاحظ وجوهاً غريبة
تشخص إليه أبصارها. فقال: يسروا ولا تعسروا. وبشروا ولا تنفروا.

فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين. ^(٩٩)

وتقدم حضرمي بن عامر، الذي جاء على رأس وفد من قبيلة بني أسد بن خزيمة.
عشرة رجال جاءوا ممثلين لقومهم؛ ليعلموا إسلامهم ويبايعوا رسول الله، مظهرين
دخولهم تحت سلطانه وإذعانهم لأحكام شريعة الله. وكانوا قد حملوا معهم نساءهم
وعيالهم ليزداد عطاء رسول الله لهم. وكانت أخبار إكرامه للوافدين عليه قد ملأت
الأسماع في شتى أنحاء جزيرة العرب.

اقترب حضرمي بن عامر، حتى قام بين يدي رسول الله. ثم علا صوته: يا محمد إنا
قد أتيناك تدرع الليل البهيم في سنة شهباء.

يا رسول الله آمنا بك، ولم ترسل إلينا رسولاً. ونحن منك. يجمعنا خزيمة (الجد
الرابع عشر للنبي). حمانا منيع. ونساءنا مواجد، وأبنائنا أنجاد أماجد. ولم نقاتلك كما
قاتلك بنو غطفان. فأعطنا من مال الله الذي عندك.

يمنون على رسول الله إسلامهم طوعاً. ويطلبون ثمناً لذلك بعض المال.

واشتعل غضب رجل من بني غطفان، كان حاضراً في المسجد وسمع ما قاله
حضرمي.

فاندفع يقول مستهزئاً بقوم حضرمي، ومعيراً لهم بأم أحد أجدادهم - وهو مالك
بن مالك. وكانت المرأة تلقب بالزنية، وكان بنو مالك بن مالك يلقبون على سبيل
السخرية ببني الزنية، وحضرمي بن عامر رئيس وفد بني أسد واحد منهم: ألستم بني
الزنية الذين أفسدتم طرقات المدينة بالعدرات (البراز والقاذورات).

وأحس وفد بني أسد بالإهانة البالغة، تنفذ في قلوبهم كالسهم المسموم. فاستعرت

الحمية في قلوبهم، فشهروا سيوفهم يريدون قتل الرجل ومن حضر معه من بنى عطفان. وأوشك الفريقان أن يشتبكا في القتال لولا تدخل الحكماء الذين صاحوا: "اغمدوا سيوفكم وكفوا ألسنتم".

وعلا صوت رسول الله يريد أن يخفف من شعور بنى أسد بالإهانة، ويطيب خواطرم فقال لهم: بل أنتم بنى الرشدة.

فردوا على تودده إليهم بغلظة وجفاء، رافضين تلمظة معهم: بل نحن بنى الزنية. لا ندع اسم أبينا، ولا نحب أن نكون مثل بنى محولة^(١٠٠).

يستهزئون بنى عطفان الذين كانوا يسمون بنى عبدالعزى بن عطفان، فحول رسول الله اسم أبيهم إلى عبدالله بن عطفان، وتقاذفوا السباب مع بنى الزنية، وكادوا أن يقعوا في العراك، لولا تدخل الحكماء الذين حجزوا بين الفريقين المتصارعين وهم يصيحون فيهما: لا يصح هذا الفحش والشجار في المسجد، وفي حضور رسول الله، الذى علت الكآبة وجهه، وأفصحت ملامحه عما يعانيه من أسف، وهو ينظر في الوجوه الغاضبة، والقلوب المتنافرة التى ملأها البغض، فأعرض عنهم.

ثم على حين فجأة تغير وجهه، وصاح من بجواره من أصحابه: اصمتوا..... اصمتوا فإن الوحي ينزل على نبي الله. وساعدوه على الرقاد، وغطوا وجهه الذى يفيض منه العرق.

وأطرقت الوجوه وخشعت الأصوات في المسجد الذى بدأ الصمت يخيم عليه، وسمع كدوى النحل عند رأس نبي الله.

ثم أنطلق من قبضة الوحي. فكشف الغطاء عن وجهه، وطفق يمسح العرق. ثم قام وجلس ساندًا ظهره للجدار، وهو يستعيد وعيه بالمسجد ومن فيه.

فلما أفاق، أخذ يتلو عليهم ما أوحى إليه من كتاب ربه:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُ عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وأحس وفد بنى أسد أن هذا الرجل قد كشف بكلامه العجيب الذى رتله على أسماعهم ما فى قلوبهم من تكذيبه والشك فى حقيقته. فإنهم لم يصدقوا فعلاً أنه نبي يوحى إليه من الله، بل جاؤا راغبين فى الحصول على حمايته، طامعين فى جزيل عطائه. وعرفوا أنه لم ينطل عليه ادعاؤهم الكاذب بأنهم قد آمنوا به.

وبدا لهم كأنه كاهن عظيم يتصل بالعالم الخفى، عالم الشياطين والجن، الذين يخبرونه بالمستور عن أعين الناس.

وكان بنو أسد معروفين فى العرب بالخبرة الطويلة فى ممارسة الطقوس «السحرية» التى يحاول بها الإنسان استجلاء الغيب، والاطلاع على المخبوء فى المستقبل، وتغيير طبيعة الأشياء ومسارها لتتوافق مع رغباته.

كانت تلك حرفتهم وتجارتهم التى تدر عليهم أموالاً طائلة. يأتى إليهم الناس من كل القبائل فى شتى أنحاء الجزيرة العربية، فيدفعون إلى كهنتهم وعرافيتهم وسحرتهم الأموال، والقرايين لألهتهم، من أجل أن يكشفوا لهم عن المخبوء فى المستقبل، أو يدلوهم على أماكن الأشياء المسروقة أو الضائعة، أو يصنعوا لهم «الأعمال السحرية» ويعطوهم التعويذات التى تجلب لهم المنافع، أو محبة من يريدون التقرب إليهم أو تدفع عنهم الأضرار، وأعمال الحسد التى يصنعها خصومهم وكارهوهم.

فقال حضرمي بن عامر: يا رسول الله، نريد أن نسألك عن العيافة (زجر الطير بغرض استجلاء الغيب بملاحظة اتجاه حركة الطير، فالعيافة هي الطيرة) والكهانة وضرب الحصى والسحر؟

فقال رسول الله: ليس منا من تطير، ولا من تُطير له. أو تكهن أو تُكهن له، أو تسحر أو تُسحر له، ومن اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد. فشعر حضرمي بن عامر بالشفقة على نفسه وعلى قومه من الخسائر الفادحة التي ستصيبهم عند إبطال كل تلك الممارسات.

فقال: يا رسول الله هذه أمور نفعلها؟! يريد أن يقول هذه أعمال نعيش عليها وتجلب لنا أرباحاً كثيرة. وكانت أراضى بنى أسد كثيراً ما يصيبها الجذب. فقال رسول الله قطعاً عليه الطريق للظفر بأى استثناء: من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، أو أتى امرأة حائضاً، أو أتى امرأة في دبرها، فقد برىء مما أنزل على محمد.

ومن أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة. ثم أراد رسول الله أن يقوض سوق الكهانة والسحر الرائجة في بنى أسد، ويغلق الباب أمام تجارة الأوهام التي تأتيتهم بالمال الحرام، وأن يقطع أملهم في الحصول على أى استثناء، أو رخصة تبيح لهم الاستمرار في هذا الضلال، فقال: لن يلج الدرجات العلا من تكهن، أو استقسم، أو رجع من سفره تطيراً^(١٠٢).

وتبادل بنو أسد النظرات الزائغة المرتابة، وهم يتهايمسون في أمر هذا الرجل الذى جاؤا لمبايعته طالبين الدخول في سلطانه، والحصول على عطائه. ها هو يجفف ينبوع ثروتهم بإبطاله الأعمال التي اشتهروا بها في العرب، وكانت مصدر رزقهم. وأراد رسول الله أن ينتشلهم من أمواج الشك التي تضرب قلوبهم، وأن يثبت

بصيص النور الذى نفذ إلى قلوبهم، بآية مشهودة، تمد لهم يد المساعدة ليخرجوا سالمين من الفتنة التى تُغرق قلوبهم.

فنادى على رجل منهم وقال له: يا نقادة ابغ لى ناقة حلبانة ركبانة، ولا تولها على ولد. فخرج نقادة بن عبد الله الأسدى يلتمس الناقة التى طلبها رسول الله. ذهب إلى ابن عم له، إذ لم تكن فى إبله ناقة تفى بالشروط التى طلبها رسول الله. فأحاله ابن عمه إلى رجل آخر اسمه «سنان بن ظهير» الذى رضى بمنحه ناقة كانت على الوصف الذى ذكر رسول الله.

وأسرع نقادة بالناقة المطلوبة إلى مسجد رسول الله، حيث أوقفها قريباً من الباب. ودخل بسرعة إلى المسجد وقال: يارسول الله وجدت الناقة التى أمرت بها. وخرج رسول الله إلى الناقة، فمسح ضرعها بيده ليباركها وهو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم بارك فيها وفيمن أرسل بها.

فقال نقادة: يارسول الله، وفيمن جاء بها. فقال رسول الله: وفيمن جاء بها. وأمر رسول الله بوعاء كبير وقده. فأحضر وهما ثم دعا ضرار بن الأزور -أحد رجال بنى أسد - فقال له احلبها ودع داعى اللبن لا تجهده.

فوضع ضرار بن الأزور الوعاء الكبير تحت الناقة، وأخذ يحلبها فأدهشه وأدهش الجمع المحتشد اندفاع اللبن من ضرع الناقة؛ حتى ملأ الوعاء الكبير فى لحظة. فتوقف عن الحلب تاركاً بقية من اللبن فى ضرع الناقة كما أمره رسول الله "دع داعى اللبن لا تجهده" وملأ رسول الله القدح باللبن من الوعاء ثم أعطاه لنقادة وقال له: اسق إخوانك.

وطاف نقادة بالقدح على عدد من الرجال فى الصف الأول، فشربوا حتى رووا. ثم قاموا وتركوا مكانهم لغيرهم. وظل نقادة يطوف بين يد رسول الله الذى يملأ القدح باللبن، وبين صفوف الرجال المتراصين بين يدى رسول الله. وكلما فرغ الوعاء

الكبير، حلب ضرار الناقة حتى يملأه من جديد وكلما فرغ القدح عاد رسول الله ليملأه، ويناوله لنقادة ليسقى الرجال.

وشخصت الأبصار واندھشت القلوب لهذه الآية التي تتبدى أمامهم، وهم يتساءلون عن «سر» البركة التي حلت في ضرع الناقة؛ حتى سقت كل هذا الجمع الغفير من الرجال.

فلما شرب جميع الرجال، سقى رسول الله بيده ضراراً، ثم شرب وسقى سؤره نقادة، مكافأة له على جهده وإكراماً له.

ومع اللبن النازل من الأفواه إلى البطون، شق الإيمان طريقه إلى القلوب المظلمة، فبث فيها النور وأخذ رياح الشك التي كانت تعصف بها.

ولم يجد رجال بنو أسد من بد من إعلان الإسلام، ومبايعة رسول الله. فتقدم زعيمهم حضرمي بن عامر فقال لرسول الله: نسلم على أن تكون صدقات أموالنا لفقرائنا، وإن أستت (أجذبت) بلادنا، رحلنا إلى غيرها أتباعنا على هذا؟

فقال رسول الله: أبايعكم على هذا. فتقدم حضرمي بن عامر، فمد يده ليباع رسول الله وتبعه بقية الوفد^(١٠٣).

** ** *

وفي الليل، بعد صلاة العشاء أخذت الشفقة بقلب النبي على ابنته فاطمة وزوجها علي. فشق طريقه في الظلام إلى بيتهما. وعلى باب البيت قام، ورفع صوته قائلاً: هذا رسول الله يستأذن.

وفوجئت فاطمة وزوجها بصوت رسول الله. وكانا قد أخذتا مضجعهما ودخلا لحافهما بعد أن تخففاً من ثيابهما. فأصابهما الاضطراب، وطفقا يسرعان يريدان أن يضعا بعض الملابس على جسديهما بعض الملابس حياءً من رسول الله.

وشعر رسول الله بحركتهما، فقال لهما مطمئناً مكانكما. كما أنتما في لحافكما. ودخل البيت فوجد الحسن والحسين ينامان في سلام، على فروة خروف في الردهة. وطافت بقلبه ذكرى طفولته في بيت عمه أبو طالب والد علي. كان حينذاك أكبر قليلاً منهما، فإن الحسن لم يبلغ السادسة بعد، والحسين لم يبلغ الخامسة. ودخل إلى حجرة الزوجين البائسين. فوجدهما على حالهما استسلاماً لأمره "مكانكما" يرقدان تحت نفس القطيفة البيضاء التي كانت ضمن جهاز فاطمة منذ أكثر من ست سنوات. قطعة صغيرة من القطيفة لا تكفي لتغطية سائر جسديهما، إذا بسطت طولاً تعرت جنوبهما، وإذا بسطت عرضاً خرج منها الرأسان والعنقان وأعلى الصدرين والأقدام. ولذلك كان يسطنهما عرضاً ليسترا سوءاتهما ويضعان رأسيهما على نفس الوسادة المحشوة بالليف التي كانت منذ أكثر من ست سنوات ضمن جهاز فاطمة.

وفاض قلبه بالمودة والحنان على ابنته وزوجها. فتقدم نحوهما. وعلى حين فجأة قعد بينهما تحت نفس القטיפفة البيضاء، وأحست فاطمة ببرد قدمه على صدرها. ثم قال: أخبرت أنك جئت تطلبين خادماً. فتشجعت فاطمة فقالت: بلغنى أنه قد قدم عليك سبى، فأحببت أن تعطينى خادماً؛ تكفينى العجن والخبز فإنه قد شق على العمل. قال: فما جئت تطلبين أحب إليك أو ما هو خير منه. فغمزها عليّ بقدمه في ساقها؛ إشارة إلى أن تطلب ما هو خير من الخادم. وفهمت فاطمة إشارة زوجها.

فقالت: بل ما هو خير من الخادم.

فقال: ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم؟!

ألا أدلكما على خير مما سألتاه؟!

فقال على وفاطمة: بلى

فقال: كلمات علمنيهن جبريل. إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين،
واحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين أو اختماها بلا إله إلا الله.
فتلك مائة باللسان وألف في الميزان.

خصلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة. ألا وهما يسير، ومن يعمل
بهما قليل. يسبح الله في دبر كل صلاة عشراً، ويحمده عشراً، ويكبره عشراً. فتلك
خمسون ومائة باللسان. وألف وخمسمائة في الميزان. وإذا أخذ مضجعه، يسبح الله ثلاثاً
وثلاثين، ويحمده ثلاثاً وثلاثين، ويكبر أربعاً. فتلك مائة باللسان، وألف في الميزان.
فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة.

تسبحان الله وتقولان: اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم. ربنا
ورب كل شيء منزل التوراة والزبور والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل ذي شر
ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها.

أنت الأول فليس قبلك شيء.

وأنت الآخر فليس بعدك شيء

وأنت الظاهر فليس فوقك شيء

وأنت الباطن فليس دونك شيء

أقض عني الدين وأغنني من الفقر

اصبري يا فاطمة إن خير النساء التي تنفع أهلها. ^(١٠٤).

ثم قام وغادرهما.

*** **

(١٥)

الأقرع بن حابس

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]

لم يجد بنو تميم بدا من الذهاب إلى محمد في مركز حكمه في المدينة؛ لإعلان دخولهم في الإسلام وانضوائهم تحت سلطانه، لعلهم يدخلون في حمايته وينالون عطاءه.

وشكلوا وفداً كبيراً من رجالهم يضم أكثر من سبعين رجلاً. وارتحلوا إلى المدينة وقابلوا الأقرع بن حابس وكلموه في أن يكون رئيس وفدهم المتحدث باسمهم عند عبد محمد؛ لأنه سبق له الانضمام إلى المسلمين، وشاركهم في فتح مكة ويوم حنين وحصار الطائف، ونال من غنائم هوازن زهاء مائة من الإبل عندما قسمها محمد بالجرعانة.

ودخل وفد بني تميم المسجد ساعة صلاة الظهر، فامتلاً المسجد ولم يعد فيه موضع قدم خالياً.

وطال انتظار الناس لخروج رسول الله من حجرة عائشة، حتى يؤمهم في الصلاة. ووجد بنو تميم أن في انتظارهم الطويل إهانة لهم، خاصة الأقرع بن حابس رئيس وفدهم؛ فارتفع صوته منادياً: يا محمد: يا محمد! ولم تأت إجابة من وراء الحجرات التي أغلقت أبوابها. فرفع صوته أكثر وزاد من غلظته: يا محمد!

ولم تأت إجابة، فإزداد شعوره بالإهانة؛ لأنه أحس أن كبريائه قد جرح أمام الحاضرين من قومه. فقال مهدداً منذراً: يا محمد، إن مدحى لزين، وإن ذمى لشين: نحن أكرم الناس.

يتوعد بتشويه سمعة رسول الله في الناس؛ إن لم يبادر بالخروج إليهم ويحسن

معاملتهم ويجزل لهم العطاء.

ولم يكده ينهى كلامه، حتى خرج إليه رسول الله، وقد بدا على وجهه التعب؛ إذ كان مضطجعاً مرهقاً يشعر بثقل رأسه.

وبادره رسول الله، بقول قاطع كالسيف: كذبت. ذاك رب العالمين. مدحه الله الزين. وذمه الشين. وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الله. كانت بداية عاصفة صفعت كبرياء الأقرع بن حابس وألزمته الأدب. فابتلع المذلة وتغاضى عما ناله من إهانة واتهام بالكذب. وقال: إنا أتيناك لنفاخر، فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

وارتسمت على شفتي رسول الله ابتسامة صامتة ساخرة من تعاضم الإنسان بالباطل. إنهم لم يأتوا إلا لفداء أسراهم واستردادهم، ونيل الحماية والعطاء، ولم يأتوا قطعاً للمفاخرة بالشعر والخطابة. وداخلت قلبه شفقة على الإنسان الذي يرديه كبره في الهلاك.

وفتش رسول الله بعينه في الحاضرين؛ بحثاً عن شاعره حسان بن ثابت فلم يجده. وكان من المعتاد أن تبدأ المفاخرة بالشعر أولاً ثم تأتي الخطابة.

فأرسل رسول الله أحد أصحابه يستدعى حسان بن ثابت على عجل. وقال مخاطباً بنى تميم " قد أذنت لخطيبكم" إذ وجد ثابت بن قيس قد نجح في الاقتراب والجلوس في الصف الأول أمامه.

فقام عطار بن حاجب، خطيب بنى تميم فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله.

جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظيماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟! ألسنا برؤوس الناس وأولى

فضلهم؟ فمن فآخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنآ لو شئنا لأكثرنا الكلام ولكنآ نستحى من الإكثار فيما أعطينآ، وإنآ نعرف بذلك. أقول قولى هذا، لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا.

ثم جلس

فنادى رسول الله: يا ثابت بن قيس، قم فأجب الرجل فى خطبته.

فقام ثابت بن قيس فاعتدل. ثم انطلق صوته القوى هادراً: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه. قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه. ولم يكن شىء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين.

ثم دعا الناس إلى الإيآن به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكرم الناس أحساباً وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعلاً.

ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب الله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله. نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله. فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه. ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً^(١٠٥)

ثم جلس.

وكان جلياً أن ثابت بن قيس قد استطاع بفصاحته وقوة صوته أن يسيطر على مستعميه، وأن يؤثر فى قلوبهم أبلغ مما فعل عطارى بن حاجب، الذى اقتصرت خطبته على مدح قومه بنى تميم، وذكر مآثرهم والتفاخر بأنهم أفضل الناس؛ مما كان من شأنه أن يوغر صدور الرجال من القبائل الأخرى، ويملاها بالنفور ويشعل فيها حمية الجاهلية.

ولمى رسول الله شاعره حسان بن ثابت، وهو يدخل المسجد ويأخذ مجلسه فى

الصفوف. ورفع حسان وجهه إلى رسول الله، فنظر إليه نظرة تأييد ومباركة.

وكان حسان طوال الطريق من بيته إلى مسجد رسول الله، يفكر في سجال المفاخرة التي سيدخل معتركها، ويهيبه نفسه للقصيدة التي ينبغي أن يصدق بها مدحاً لرسول الله وفخراً بالإسلام.

كانت الأفكار وأبيات الشعر تتدافع تريد أن تنطلق من صدره. ولكن كان عليه أن يمسك لسانه ويتنظر حتى يسمع ما يقول شاعر بني تميم لينشئ قصيدته من نفس البحر وعلى نفس القافية.

وقال رسول الله مخاطباً بني تميم: قد أذنت لشاعركم."

فقام الزبرقان بن بدر، فألقى قصيدة من ثمانية أبيات ملأها فخراً بقومه بني تميم، ذاكراً أنهم أكرم الناس وأهل النجدة الذين يطمعون الجياع في أزमत القحط، وأهل البطش الذين يحصلون على النصيب الأكبر من الغنائم عند الغزو والنهب.

ونظر رسول الله إلى حسان نظرة التأييد والمباركة وقال له: قم يا حسان فأجب الرجل.

فقام حسان وانطلق لسانه بما ضاق به صدره، من شعر تخلق أثناء استماعه لشاعر بني تميم.

بدأ قصيدته بقوله:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ** قد بينوا سنناً للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريره ** تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

وانسابت أبيات الشعر كموج البحر، هادرة في سلاسة وقوة، فاستحوذت على وجدان وعقل كل الحاضرين في المسجد.

معان جديدة لم يعرف العرب التعبير عنها في أشعارهم. إذ يتفاخر الشاعر بأن

قدوته رسول الله وأصحابه أسبق الناس إلى الخير، وأنهم أصحاب شريعة العدل التي لا ظلم فيها، وأنهم متواضعون لا يتفاخرون عند الغلبة على أعدائهم، وأنهم صابرون عند المصائب والمحن، وأنهم أعفة لا ينساقون وراء الطمع. ولكنهم في نفس الوقت مقاتلون أشداء لا يستطيع أحد مواجعتهم والصمود أمامهم في الحرب.

معان عبر عنها شاعر موهوب، بالغ المهارة في نظم الكلام، وفوق كل ذلك، بل قبل كل ذلك صادق العاطفة ينطق بما يحس به قلبه من حب النبي وأصحابه ولذلك قال مفاخراً بنفسه في ختام قصيدته.

أهدى لهم مدحى قلب يؤازره ** فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ** إن جد بالناس جد القول أو شمعوا

إن العربى الأصيل الذى فطر قلبه على حب الشعر الجيد وتذوقه، والذى رفع القصائد التى نالت إعجابه إلى مكانه الآلهة المعبودة، فعلقها على جدران الكعبة أقدس مقدساته... بالنسبة إلى هذا الإنسان لا يمكن لقصيدة الزبوقان أن تصمد في مواجهة قصيدة حسان، لا من حيث البلاغة وجمال التعبير، أو المعانى الجديدة، أو صدق العاطفة الجياشة، أو حتى الحجم؛ فإن قصيدة حسان بن ثابت بلغت ثلاثة وعشرين بيتاً فقاربت ثلاثة أضعاف قصيدة الزبرقان بن بدر^(١٠٦).

وذاق بنو تميم مرارة الهزيمة مرة أخرى في معركة الشعر، كما ذاقوها أنفأ في ميدان الخطابة. وحاول شاعر لبنى تميم أن يعتصر عقله ووجدانه؛ ليخرج قصيدة ترد على رائعة حسان التى نالت إعجاب كل الحاضرين في المسجد، فلم تجد قريحته إلا بأربعة أبيات دارت كلها حول نفس المعنى: إن قبيلته بنى تميم هم أفضل الناس، وأن لا أحد في العرب يساويهم.

فصكه حسان صكاً شديداً بقصيدة من أربعة عشر بيتاً، نزلت على رؤوس بنى

تميم كالصواعق المحرقة فالتهمت ببلاغتها كل أمل لهم في الفوز.
وأظهر فيها حسان - بباعث من الحماسة - وعيداً وتوبيخاً أخرس بنى تميم عن
الرد.

أنهاها بقوله:

وإلا أبحناكم وسقنا نساءكم ** بصم القنا والمقربات الصلادم
وأفضل ما نلت من المجد والعللا ** ردافتنا عند احتضار المواسم
يهددهم بالقتل واستباحة حرماهم - إن أصروا على العناد - بالرماح الصلبة
والسيوف الصارمة التي لا تنكسر. ويرد على تكبرهم وتفاخرهم بأن ليس لهم أمل في
الارتقاء على سلم المجد والعللا إلا أن يأتوا وراء المسلمين في المواسم المشهودة.
ولم يعد هناك مهرب من الإقرار بالهزيمة. فانتحى بنو تميم في أحد جوانب
المسجد وأخذوا يتشاورون مع بعضهم، ومع الأقرع بن حابس الذي اختاروه رئيساً
لوفدهم ومتحدثاً بإسمهم، فيما يجب عمله وقوله.

"إن القبائل كلها في شتى أنحاء الجزيرة العربية تتدافع وفودها إلى يثرب لمبايعة
محمد، والدخول في طاعته، وإعلان الدخول في الإسلام، فليس من الحكمة في شيء
أن يبقوا على كفرهم، ويصبحوا معزولين منبوزين من القبائل من حولهم".

"إن المصلحة تقتضي أن يحذوا حذو غيرهم من العرب؛ فقد صار محمد السيد
المطاع" ولا خوف علينا من الفرس؛ فإن الأمراء هناك مشغولون بالصراع على العرش
". "ويبدو أن شمس الفرس قد آذنت بالغروب. لتشرق شمس العرب مع هذا الرجل
الذي جئنا نطلب منه اطلاق سراح أسرانا. فكيف نطلب هذا ونظل على الكفر به
وعصيانه". ثم لخص أحد رجالهم رأيهم بقوله: "فإن لم يكن نبياً فهو ملك؛ فلنعش في
جنابه ولنهنأ بخيراته وعطائه وحمايته".

وأيده الأقرع بن حابس فقال: وأبى! إن هذا الرجل لمؤتى له: لخطيه أخطب من خطيينا ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا.

وأحس رسول الله أن رأيهم يميل إلى إعلان الدخول في الإسلام. فأحب أن يشجعهم على المضي قدماً في هذا الصراط المستقيم، فخطبهم: أبشروا يا بنى تميم. أبشروا يا بنى تميم."

فأخرجهم صوته من مناجاتهم. والتفتوا إليه واجمين لا يعرفون كيف يردون عليه. كان يحب أن يسمع منهم: قلبنا البشرى يا رسول الله.

أو يقولون: بم تبشرنا يا رسول الله. فيقول: أبشركم بجنة عرضها السموات والأرض. إن آمنتكم وأطعتم. ولكنهم ظلوا صامتين لا يعلمون بم يجيبون النداء. فأعاد لهم القول موضحاً ما يجب قوله:

اقبلوا البشرى يا بنى تميم

اقبلوا البشرى يا بنى تميم.

وانتظر أن يقولوا: قلبنا البشرى. ولكن الأقرع بن حابس المتحدث باسمهم اندفع يقول متكلماً بلسان قومه: قد بشرتنا فأعطنا.

فتغير وجه رسول الله، فزايه الاستبشار وبدت عليه الكآبة وتذكر ما قيل عند تقسيم غنائم يوم حنين بالجعرة. "قد أكثرت من قولك أبشر فأعطني وأنجز لي وعدك."

ولزم رسول الله الصمت وقد ضاق صدره. ثم تهلل وجهه وهو يرى نافع بن زيد يدخل المسجد مع وفد من رجال حمير من أهل اليمن. فخطبهم بقوله: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم.

وجاءته الإجابة المرجوة من نافع بن زيد، إذ قال: قلبنا يا رسول الله. قلبنا يا

رسول الله.

فتألق وجه رسول الله وواصل نافع بن زيد كلامه قائلاً: وجئنا لتتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر. ما كان؟ وكيف كان.

وعرف نبي الله أنهم يسألون عن بدء الخلق وكيف نشأت السماوات والأرض.

فقال: كان الله ولا شيء غيرَه

وكان عرشه على الماء

ثم خلق الله اللوح المحفوظ والقلم

وأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب

فقال القلم: ما اكتب؟

قال: علمي في خلقي إلى يوم القيامة

فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة

وكتب مقادير الخلائق قبل أن تخلق السموات والأرض وما فيهن.

ثم خلق الله السموات والأرض وما فيهن ثم استوى على عرشه ^(١٠٧)

ولم يجد بنو تميم بداً من إعلان إسلامهم ومبايعة رسول الله. فتقدم الأقرع بن

حابس، فقال: يا رسول الله إن قومي قد جاؤا ليعلموا إسلامهم ويبياعوك. نشهد أن لا

إله إلا الله وأنت رسول الله. وبسط يده ليباع، فبايعه رسول الله. ثم تبعه بقية الوفد.

ثم قال الأقرع بن حابس: "يا رسول الله، إن قومي جاؤك يسألونك أسراهم".

فنظر إليه رسول الله نظرة ذكرته بأنه قد بادر بإعلان رفضه وقومه للامن على

أسرى هوازن الذين وقعوا في أيديهم يوم حنين "عليك أن تشرب من نفس الكأس".

ثم قال رسول الله: أؤدى عنكم من بيت مال المسلمين نصف الضء الذى

يطلبه أصحاب الأسرى. وأعطى كل واحد منكم جائزة: اثنتى عشرة أوقية من الفضة".

فاستحسنوا هذا الفضل والعطاء. فقال رسول الله متسائلاً: ما بقى منكم أحد؟ يعنى لم يؤمر له بجائزة؟ فقال شاعرهم الزبرقان بن بدر - الذى كان يلقب بقمر نجد - طمعاً فى المزيد: يا رسول الله إن معنا رجلاً هو عمرو بن الأهم قد خلفنا فى ظهرنا يحرس إبلنا. يريد أن يأمر له رسول الله بجائزة مثلهم.

وكان قيس بن عاصم ييغض الزبرقان بن بدر؛ لاعتقاده أنه يسعى لزعامة بنى تميم، وأنه أراد أن يظهر فى هيئة الزعيم الحريص على نفع أبناء قومه، راجياً - كما يظن قيس - أن يأمر الرسول باستعماله أميراً على بنى تميم. وكان قيس يرى أنه الأحق بها؛ لأنه أكثرهم مالاً، وكان قائد جيشهم فى يوم مشهود يسمونه "يوم كلاب" وييغض أيضاً عمرو بن الأهم؛ بسبب شجار قديم وقع بينه وبين والد عمرو - واسمه سنان بن خالد - فى ذلك اليوم ف ضرب قيس سناناً بقوس ضربة شديدة على فمه حطمت أسنانه، فأصبح يعرف باسم الأهم.

فاندفع قيس بن عاصم يقول: يا رسول الله، لا تعطه. إنه غلام حدث تركناه فى ركابنا، وأزرى به. إنه لا يؤبه له.

وشعر رسول الله بالضيق. وبدا الفتور والنفور على وجهه وقال "اثتوني به".

فأسرع الزبرقان بن بدر إلى عمرو بن الأهم؛ ليخبره أنه قد طلب من رسول الله أن يأمر له بجائزة مثل بقية رجال بنى تميم، وبما قال قيس بن عاصم فى حقه؛ لعل عمرو بن الأهم يشهد له ويكون نصيره فى نزاعه مع قيس بن عاصم على رئاسة بنى تميم. وكان عمرو بن الأهم على صغر سنه حكيماً بليغاً وشاعراً مجيداً يسمع لقوله.

وبدا واضحاً لأصحاب رسول الله أنه يفكر فى اختيار أحد رجال الوفد؛ ليكون

أميراً على بنى تميم. وأخذوا يتناقشون ويتجادلون في أى الرجال أحق بالإمارة. وسرعان ما جاء الزبرقان بعمر بن الأهتم، وقام الرجلان بين يدي رسول الله. ولما كان الزبرقان يخاف من أن يكون قيس بن عاصم قد كلم رسول الله في الإمارة على بنى تميم أثناء غيابه؛ فاندفع يقول: يا رسول الله، أنا سيد بنى تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم، آخذ لهم بحقوقهم، وأمنعهم من الظلم، وهذا - وأشار إلى عمرو بن الأهتم - يعلم ذلك.

ونظر الزبرقان إلى قيس بن عاصم نظرة التحدى، وإلى عمرو بن الأهتم يطلب تأييده وعونه.

ونظر رسول الله إلى عمرو بن الأهتم يسأله بلسان الحال: ما قولك في صاحبك؟

وهنا قرر عمرو بن الأهتم أن يصدق رسول الله، دون أن يغضب صاحبه الذى طلب له الجائزة، وسعى إليه يطلب نصرته. فقال: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أذنيه.

وبوغت الزبرقان بهذا الوصف الرديء في خاتمة الحديث، الذى لا يؤيد مسعاه لنيل الإمارة. فإذا كان لا يسمع كلامه إلا أذناه، فإنه يكون غير مطاع في قومه، ومن ثم فهو غير جدير بالإمارة. وأحس الزبرقان بطعنة الغدر تبرز من وراء الكلمات. ونظر إلى عمرو بن الأهتم نظرة تقول: "يا لك من صاحب خائن ناكر للجميل" وقال وهو يتميز من الغيظ: والله لقد كذب يا رسول الله. ولقد علم منى غير ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد.

وانطلق لسان عمرو بن الأهتم ساخراً، مستهزئاً بكلام الزبرقان وتبريره يقول: أنا أحسدك؟!

فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحق الولد، مبغض في العشيرة.

ونزلت كلمات ابن الاهتم على رأس الزبرقان كالصواعق المحرقة، فالتهمت كل أمله في نيل الإمارة. فطأطأ رأسه مطرقاً، يشتعل قلبه بالغضب والغيط، وقد جف لسانه لا يستطيع أن ينطق بكلمة.

ونظر رسول الله إلى ابن الأهتم يسأله بلسان الحال، كيف لون تعبيره. " هل كذبت في الأولى أو في الآخرة ؟"

والتقط فؤاد ابن الأهتم السؤال الذي باحت به نظرة رسول الله، فقال مجيباً: والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت آخراً، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى وفي الأخرى جميعاً.

ولاحت على وجه رسول الله نظرة دهشة، متعجباً من قدرة الإنسان على الجدل و إخفاء الحقيقة بفصاحة اللسان، الذي يلون الأشياء على النحو الذي يوافق هواه، مستحضراً قول الله " وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً " وقال: إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة " (١٠٨)

ورفع بلال آذان صلاة العصر، وهبط قلب الزبرقان، غارقاً في بحر مظلّم من خيبة الأمل، متحسراً على الإمارة التي أفلتت من يديه، وزاد من أسفه وحسرتة، ابتسامة الشماتة التي تألقت على وجه قيس بن عاصم. ولكنه واسى نفسه بأن ذلك قد يكون خيراً له.

وربما في هذه اللحظة دخل الإيمان في قلب الزبرقان (١٠٩).

وذهب وفد بنى تميم ليأخذوا جوائزهم من أسامه بن زيد، خازن رسول الله على بيت مال المسلمين؛ ويستردوا سباياهم من بيت رملة بنت الحارث التي كانت قد

تبرعت بجعل دارها الواسعة ملجأ للأسرى والجرحى العائدين من المعارك.
ولما رأى أصحاب رسول الله. أنه لم يستعمل أحداً من بنى تميم أميراً على قومه.
ولابد لهم من أمير يتولى أمرهم، فقال أبو بكر: يا رسول الله، استعمل عليهم القعقاع
بن معبد.

فرد عليه عمر بن الخطاب: لا يا رسول الله، بل أمر عليهم الأقرع بن حابس.
فغضب أبو بكر، واحمر وجهه، وقال لعمر رافعاً صوته: ما أردت إلا خلافي.
فغضب عمر وعلا صوته: ما أردت خلافاً. فرد عليه أبو بكر: بل أردت خلافي،
أتريد أن تستبد برأيك؟!

فعلا صوت عمر: بل أنت من يفعل ذلك. ^(١١٠)

تجادلا بحدة وارتفعت أصواتهما، وقد علت حمرة الغضب وجهيهما، غير متبهيين
إلى جلوسهما بين يدي رسول الله، الذي أخذ يعتريه ما يجده عند نزول الوحي عليه.
فتصبب وجهه عرقاً، وتقلصت عضلاته وارتعش جسده، وغاب عن المسجد، الذي
خيم عليه الصمت. وانتبه الناس إلى دخول النبي في قبضة الوحي، فأطرقوا كأن على
رؤوسهم الطير، وهم يسمعون عند رأس النبي كدوى النحل.

ومرت لحظات مفعمة بالرهبة. ثم أطلق النبي من قبضة الوحي، فأخذ يمسح
العرق المتصبب من وجهه المتألق، وملامح وجوه أصحابه تستبين أمام بصره، وهو
يستعيد الوعي بالمسجد ومن فيه.

ثم أخذ يتلو عليهم ما أوحى إليه من كتاب ربه، والأبصار والأفئدة تتطلع إلى
وجهه تريد أن تعرف ماذا قيل له، وكتبة الوحي استعدوا لتدوين كلام الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾
ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۚ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ



أَعْمَلَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾.

وفاض قلب أبي بكر الصديق بالندم على ما بدر منه من رفع صوته بيني يدي رسول الله فاقرب من رسول الله وقال له:

والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد الآن إلا كأخى السرار ^(١١٢).

أما عمر بن الخطاب فقد التزم الصمت، عازماً ألا يرفع صوته أبداً في حضرة النبي ^(١١٣) وخرج من المسجد وقد اكتسى وجهه بلون الغضب، يخالط ما يغشاه من الندم، متجاهلاً نظرات أبي بكر الذي أخذ ينظر إليه محاولاً أن يقدم إليه اعتذاره.

* * * * *

وقام رسول الله بجوار المنبر؛ ليرحب بوفد أهل اليمن برئاسة نافع بن زيد، داعياً المؤمنين من الأنصار والمهاجرين إلى إحسان ضيافتهم وإكرامهم، وتعليمهم ما يتيسر من القرآن وفروض الإسلام، وقال:

أتاكم أهل اليمن، هم ألىٰ قلوباً وأرق أفئدة. الإيمان يمان والحكمة يمانية.

والفخر والخيلاء فى أهل الخيل والإبل.

والسكينة والوقار فى أهل الغنم.

ألا وإن الجفاء وغلظ القلوب فى الفدادين، أهل الوبر عند أصول أذنان الإبل والبقرة.

الإيمان ها هنا الإيمان ها هنا.

ومد ذراعه اليمنى مشيراً، وفهم أصحابه أنه يريد اليمن.



ثم التفت على حين فجأة وأشار بيده اليسرى إلى جهة الشرق وهو يقول
بصوت عال، كأنه يصرخ:

رأس الكفر حيث يطل قرنا الشيطان فى ربعة ومضر
من ههنا جاءت الفتن.

من ههنا جاءت الفتن.

بدا للجالسين أمامه فى المسجد شاخص العينين، يحدق فيما لا يرونه، كأنها ينظر إلى
حوادث المستقبل تعرض أمامه. ثم التفت إليهم، ورفع إلى السماء وجهه ويديه وهو
يقول بصوت متضرع:

اللهم بارك لنا فى شامنا

اللهم بارك لنا فى يميننا

فقال بعض رجال المشرق: يا رسول الله! وفى نجدنا.

فقال: اللهم بارك لنا فى شامنا

اللهم بارك لنا فى يميننا

فقالوا: يا رسول الله! وفى نجدنا.

فقال دون أن يلتفت إليهم: اللهم بارك لنا فى شامنا

اللهم بارك لنا فى يميننا

فقالوا فى إصرار: يا رسول الله وفى نجدنا؟!

فقال: هناك تكون الزلازل والفتن.

ثم سكت للحظات. ثم قال بصوت المعلم متأنيًا:

(إذا طلع حاجب الشمس فلا تصلوا حتى ترتفع، وإذا غاب حاجب الشمس فلا

تصلوا حتى تغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فحينئذ يسجد لها الكفار^(١١٤).

** ** *

وكان على بنى تميم أن يمشوا في المدينة بضعة أيام؛ ليتعلموا شيئاً من القرآن وفروض الإسلام قبل أن يرجعوا إلى بلادهم.

وقضى الأقرع بن حابس ليلته الأخيرة مؤرقاً، يتقلب جسده على فراشه، لا يقدر على النوم. ويتقلب فؤاده بين الأسئلة الشائكة الملهمة، مسترجعاً أحداث حياته الماضية ومستشرفاً مصيره في الأيام القادمة.

لقد ترك قومه مع نفر قليل من أصحابه، وذهبوا إلى يثرب، وانضموا إلى جماعة المسلمين، قبل ما يقرب من عام. عندما أدركوا بعقول يقظة تستطيع قراءة حركة الأحداث أن محمداً قد أصبح سيد العرب وملكهم الذي ستدين له كل القبائل بالطاعة. فأسرعوا والتحقوا بجيش المسلمين وهم يفتحون مكة أم القرى. وشاركوا في القتال يوم حنين. ولقد عرف محمد مكانته، فأجزل له العطاء فمنحه مائة من الإبل، مثله في ذلك مثل زعماء القبائل وصناديد قريش.

"وأثار ذلك حفيظة حسادي، خاصة الأنصار أهل يثرب الذين أغضبهم محابة محمد لى. وها هو عمر بن الخطاب، الرجل القوى، مسموع الكلمة والمقرب من محمد يجدنى جديراً برئاسة قومي والإمارة عليهم إذن سأعود مع بنى تميم بعد أن أعلنوا إسلامهم أميراً عليهم. إننى من الآن سيدهم".

وحسم الأقرع بن حابس أمره وعزم الذهاب إلى محمد. وبينما كان بنو تميم يجهزون الرواحل ويتهيأون للعودة إلى بلادهم، تسلل الأقرع بن حابس واتخذ طريقه إلى بيت محمد، مع صعود شمس الضحى إلى السماء. واستأذن للدخول على رسول الله فأذن له.

وهناك قام مذهولاً شاخص العينين؛ إذ باغته مشهد غريب. محمد يُجلس حفيده الحسن ابن ابنته فاطمة على فخذه، ويقبله في فمه، وسط جمع من الرجال، فيهم الزعماء ووجهاء أقوامهم.

"أليق بملك تدين له قبائل العرب بالطاعة أن يلاعب طفلاً يناهز الخامسة من عمره في جمع من الشيوخ ورؤساء القبائل؟!!"

ولم يطق الأقرع صبراً ولا صمتاً؛ فانطلق لسانه وعلا صوته الغليظ مستنكراً: أقبِلون الصبيان؟! فنظر إليه رسول الله ملياً. ثم قال له متحدياً استهجاناً ومستهيئاً باستنكاره: نعم.

فأجابه الأقرع معترضاً ومعبراً عن رفضه لهذا السلوك: "فوالله ما نقبلهم. إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً أبداً، وما قبلت إنساناً قط!! فصنع الرسول جفاء وغلظة قلبه بقوله: "أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة". ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. من لا يرحم الناس لا يرحمه الله.

من لا يرحم لا يرحم. ومن لا يغفر لا يغفر له، ومن لا يتب لا يتب عليه، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله^(١١٥).

ثم توجه بالخطاب إلى الجمع الملتف حوله، وقد تألق وجهه بنور الحكمة، فقال..

"لما قضى الله الخلق، كتب على نفسه في كتابه: إن رحمتي سبقت غضبي.

فهو عنده على العرش قبل أن يخلق الخلق، وجعل الله الرحمة يوم خلق السماوات والأرض مائة جزء، كل جزء طباق ما بين السماء والأرض. فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ليوم القيامة، وأرسل في خلقه كلهم في الأرض جزءاً واحداً. الجن والإنس والبهائم والطيور والهوام.... فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، فتعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطيور بعضها على بعض، حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه.



فإذا كان يوم القيامة أكملها الله بهذه الرحمة مائة يرحم بها عبادة المؤمنين.
فلو يعلم الكافر بكل ما عند الله من الرحمة، لم يقنط من الجنة أحد، حتى إن إبليس
يتناول للشفاعة لما يرى يوم القيامة من سعة رحمة الله.
ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن من النار، ومن طمع في جنته
أحد" (١١٦).
وأيقن الأقرع بن حابس أن لا أمل له في طلب الإمارة من رسول الله. فأحاط به
الأسف، وانصرف محبطاً مغتاضاً يكظم غضبه.
وعاد إلى قومه الذين كانوا يتعجلون الرجوع إلى بلادهم. ورجع معهم كما كان
قبل أن يعلن الإسلام.



الرؤية

(الهوامش والملاحظات التفسيرية)

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

(١) ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

قَدَرًا: وقتًا، يعنى زمنًا محددًا، له بداية وله نهاية، يعنى موعدًا.

قال الله تعالى لكليمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٠].

"جئت على قدر": أتيت يحملك إلينا موعد (قَدَر) معلوم فى اللوح المحفوظ،

يعنى موعدًا مضروبًا فى العلم الإلهى قبل خلقك.

إذن، القَدَر (بفتح الدال) هو الوقت المحدد (الموعد). والقَدَر (بإسكان الدال)

هو النصيب أو القسم، يعنى الجزء من الشيء.

فليلة القَدَر هى الليلة التى يظهر فيها جزء من علم الله المكنون فى اللوح

المحفوظ، وهو الجزء المخصوص للسنة القادمة التى تبدأ بليلة القدر من كل عام.

إذن، توجد سنة زمنية (دنيوية) تبدأ فى التقويم (الحساب) الهجرى (العربى)

باليوم الاول من شهر المحرم. وهو تقويم يعتمد على حركة القمر فى دورانه حول نفسه

(محوره). فهو تقويم قمرى.

وسنة زمنية (دنيوية) تبدأ فى التقويم (الحساب) الميلادى المسيحى (الغربى) باليوم

الأول من شهر يناير. وهو تقويم يعتمد على حركة الأرض حول الشمس. فهو تقويم

شمسى.

وهناك سنة دينية (روحية) تبدأ بليلة القدر من كل عام.

وهى الليلة التى ينزل فيها "روح الله" والملائكة بقَدَر (جزء) من علم الله المسجل

فى اللوح المحفوظ، يكشفون عنه لقلب النبى الأُمى ﷺ، القائم بين يدى الله ﷻ، أعنى

سره الخالد في الحضرة الإلهية، فيقربونه خطوة ويرفعونه درجة في سيره الدائم نحو مقامه الرفيع المحمود يوم القيامة.

ومن معنى التجزئة (تقسيم الشيء الواحد إلى أجزاء) التي لا تتأتى إلا بالحساب (التقدير أو التقويم) اتخذ لفظ القَدْر معنى تقويم (حساب) مكانة الشيء بين الأشياء الأخرى، أعنى تقدير درجته بالمقارنة والموازنة مع الأشياء الأخرى، فأصبح من معانى الفعل (قَدَرَ) حساب درجة الشيء وسط أقرانه وأشباهه أو أضداده.

وبهذا المعنى جاء النص القرآنى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. والمعنى: وما استطاعوا أن يضعوا الله ﷻ بعقولهم (أفئدتهم) في المكانة التي يستحقها، وعجزوا عن أن يحسبوا الدرجة التي يعلوا بها الله فوق جميع الأشياء التي يعلمونها؛ لأنها كلها مخلوقاته (مصنوعاته) التي أخرجها من الغيب.

حق قدره: القدر الذي يستحقه، أعنى المكانة الجديرة به.
مقدوراً: محسوباً، قد أحكم ضبطه.

أمر الله: إرادة الله التي سجلها في اللوح المحفوظ عندما كتب علمه قبل خلق السموات والأرض، وقد خلقهن من أجل أن يَكُنَّ مجالاً لإظهار علمه؛ أى تحقيق إرادته التي أودعها في "ذلك الكتاب".

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾: وكانت إرادة الله التي أودعها في كتاب علمه قد حكم بخروجها من "ذلك الكتاب" في موعد محسوب لا تتأخر عنه، ولا تتقدم لحظة واحدة ولا طرفة عين، بل ولا أقل من ذلك.

كما أخبر عن ذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] يعنى: وكل شيء أظهرناه من الغيب بوقت محسوب في العلم الإلهي.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وليس أمرنا النازل إلى أى شيء في

الغيب ليظهر ويصبح مشهوداً، إلا كلمة واحدة تشبه في سرها وصغر وقتها التفاتة بالبصر أو طرفة عين، فإنها نور ينزل إلى الشيء الكامن في الغيب والمراد خلقه (إظهاره) مع كلمة كن فيكون.

(٢) سورة الزخرف - الآية ٣١

(٣) انظر روايتنا "الطريق إلى غار حراء" فصل أبرهة ص ١١٦-١١٧

(٤) من دعاء النبي ﷺ عندما طارده سفهاء ثقيف.

(٥) تشوهت بعض الروايات بالتصحيف (تغيير النطق ورسم الحروف) فجاءت بلفظ "إحراق"!!

(٦) فذك: قرية كبيرة على الطريق بين المدينة المنورة والشام، تقع إلى الشمال من المدينة المنورة على مسافة يومين أو ثلاثة أيام من السير.

كانت أرضاً خصبة يشتغل سكانها -وأكثرهم من اليهود- بالزراعة. فلما حاصر رسول الله خير في مطلع العام السابع من الهجرة، واشتد بسكانها من اليهود الحصار، بعثوا رسولاً منهم إلى رسول الله يتفاوض معه على أن يفك عنهم الحصار، نظير أن يجلوا من الجزيرة العربية، أو أن يبقوهم في أرضهم بخير، يعملون فيها مقابل أن يعطوا المسلمين نصف الثمار، فوافق رسول الله ﷺ.

فلما علم أهل فذك بما حدث لأهل خير، بعثوا إلى رسول الله يريدون التفاوض معه على الصلح، والبقاء في بلدهم مقابل إعطائه نصف أرضهم. فأرسل إليهم حبيصة بن مسعود رضي الله عنه، فتفاوض مع رئيس أهل فذك يوشع بن نون. دعاهم إلى الإسلام ولتبقى معهم أرضهم كلها فأبوا، واتفقوا على أن يعطوه نصف أرضهم.

فصارت نصف أرض فذك ملكاً خاصاً برسول الله ﷺ؛ لأنها كانت من الفئ الذي وهبه الله ﷻ لرسوله ﷺ ولم يحارب المسلمون من أجل الحصول عليها.

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

أوجفتكم: حركتم. والمقصود لم تبدلوا جهداً في الحصول عليها، بل منحها الله أو بالاحرى أرجعها هبة خالصة لرسوله ﷺ.

وكان رسول الله ينفق بثمان الثمار التي تأتيه من هذه الأرض على المحتاجين، خاصة أبناء السبيل. وكانت أرض فذك أحد أسباب الخلاف العميق بين بنت النبي فاطمة رضي الله عنها وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه من ناحية وأبي بكر الصديق رضي الله عنه على الناحية الأخرى عندما أصبح خليفة على المسلمين.

وكانت فاطمة تعتقد بأحقية زوجها علي بن أبي طالب بالخلافة (الحكم) وبأحقيتها في وراثته أرض فذك عن النبي ﷺ. ذهبت رضي الله عنها إلى أبي بكر رضي الله عنه، وقالت له غاضبة وكانت فيها حدة: من يرثك؟ فقال لها: ولدي وأهلي.

فقالت: فما بالك ورثت رسول الله دوننا؟! فقال لها: يا بنت رسول الله ما ورثت ذهباً ولا فضة. فقاطعتها قائلة: سهماً بخير وصدقتنا بفذك.

فقال لها: يا بنت رسول الله سمعت رسول الله يقول: إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أَطْعَمَنِهَا اللَّهُ حَيَاتِي، فَإِذَا مِتُّ فَهِيَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. كما كان رد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أزواج النبي عندما طالبنه بنصيبهن في إرث النبي ﷺ: سمعت رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة، وإنما هذا المال لآل محمد، لنائبتهم ولضيفهم، فإذا مت فهو إلى ولي الأمر من بعدي. فأمسكت أزواج النبي عن الطلب، ولكن فاطمة لم تمسك ولم تسكت فقالت: إن رسول الله جعل لي فذك. إن رسول الله نحلنيها (وهبني إياها).

فقال أبو بكر رضي الله عنه: أريد على ذلك شهوداً.

فجاءت له بزوجه على بن أبي طالب وأم أيمن مولاة النبي ﷺ، فشهدا لها.
فقال لها: يا بنت رسول الله، قد علمت أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل
وامرأتين. فانصرفت رضي الله عنها غاضبة، وظلت على غضبها حتى ماتت.
وكان خطأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أنه تعنت مع فاطمة وظن أنها يمكن أن تكذب
فطلب الشهود ثم إنه لم يفتن إلى أن رسول الله ﷺ قال: "فهو إلى وإلى ولي الأمر من
بعدي"

فأعطى الحاكم حق التصرف في المال الذي تركه رسول الله. ومن ثم كان يمكنه
إرضاء بنت رسول الله ﷺ دون أن يخالف أمره.

ولذلك شعر أبو بكر الصديق بالندم على هذا الخطأ في آخر حياته، وعبر عن ذلك
لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي صحح الخطأ، فجعل أرض فدك لورثة النبي ﷺ، فصار
العباس بن عبدالمطلب عم النبي يتنازع مع علي بن أبي طالب عليها.
واستحى عمر رضي الله عنه أن يتدخل لحل الخلاف بينهما.

فكان علي رضي الله عنه يقول: إن النبي جعلها في حياته لفاطمة فهي هبة ممنوحة لها.
وكان العباس يأبى ذلك ويقول هي ملك رسول الله وأنا وارثه.
وظلت أرض فدك تنتقل من يد ورثة علي بن أبي طالب إلى غيرهم حسب أهواء
الحكام في مختلف الدول (العصور).

(٧) خان يهود بنى قريظة العهد الذي كتبوه مع رسول الله في الصحيفة التي
وقعوها مع بقية سكان المدينة المنورة، والتي ألزمت كل من وقع عليها بالدفاع عن
المدينة ضد من يداهمها.

وذلك عندما اتفقوا مع الأحزاب التي هاجمت المدينة في العام الخامس بعد الهجرة على أن يسمحوا لهم بالدخول إلى المدينة من الناحية التي يسكنون فيها بعد ردم الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة ليحولوا دون اقتحامها.

ولذلك عندما هزم الله ﷺ الأحزاب بالريح الشديدة التي ضربت خيامهم وأجبرتهم على الانسحاب؛ فإن رسول الله حاصر بنى قريظة بجيشه، فلما ضاق عليهم الخناق استسلموا ورضوا أن يحكم عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، زعيم الأوس وكان حليفاً لهم في الجاهلية، فظنوا أنه سيخفف الحكم عليهم، لكنه رضي الله عنه حكم بقتل المحاربين منهم وسبى النساء والأولاد عقاباً شديداً على خيانتهم وغدرهم، وردعاً لكل من تسول له نفسه خيانة أهل وطنه.

(٧) انظر شرح الحديثين ٣٠١٢، ٣٠١٣ في كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" يُذكر الصحابي رسول الله ﷺ في هذا الحديث بحديثه السابق، الذي قاله يوم حنين ونهى فيه عن قتل النساء والذرية (الأطفال) مما يدل دلالة قاطعة على أن القتال الشرعي الواجب في الإسلام لا يكون إلا للمقاتلين الذي يحاربون المسلمين، والقتل لا يكون عقاباً إلا لجناية القتل أو الفساد في الأرض الذي يعنى البغى على السلطة الشرعية القائمة بالعدل وانتهاك حرمت (حقوق) الناس. أما مجرد الكفر، أعنى اعتناق عقيدة أخرى تخالف عقيدة الإسلام فليس له عقاب في الدنيا إنما حسابه وعقابه عند الله يوم القيامة.

(٩) جلابيب: جمع جلباب، والجلباب ثوب واسع غليظ خشن (غير شفاف)، كان يلبسه الرجال والنساء على السواء، خاصة الفقراء. وقول هذا الرجل من هوازن، يذكرنا بقول عبدالله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين في المدينة المنورة - عندما قال في أعقاب غزوة بنى المصطلق (المريسيع) في السنة الخامسة بعد الهجرة، أى قبل ثلاث سنوات: ما لنا ولجلابيب محمد، يقصد أصحاب محمد الفقراء من المهاجرين الذين يلبسون الثياب الغليظة الخشنة.

ففى هذا التعبير كناية عن الفقر ورثاة الحال، وفيه دليل لا يدحض على أن الجلاب كان من الثياب التى يلبسها الرجال ولا يختص بالنساء، وأنه لا علاقة له بستر الوجه من قريب، ولا بعيد، فهو ثوب يستر سائر الجسد، ولذلك فإننا فى غاية الدهشة من غفلة بعض الأئمة الأعلام الذين يُسمع لكلامهم، الذين اتخذوا من الآية القرآنية الكريمة التى يقول الله فيها:

﴿يَتَّابِعُهَا النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجِكَ وَبَنَانِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

أقول اتخذوا منها دليلاً على وجوب النقاب، الذى يعنى ستر الوجه!!
وبدلاً من أن يجتهدوا فى معرفة معانى الألفاظ الواردة فى الآية، كما استعملها العرب فى كلامهم، راحوا يجرون وراء بعض الآثار المنسوبة لعائشة رضي الله عنها، ولعبد الله بن مسعود رضي الله عنه لتفسير الآية، رغم أن تلك الآثار لا تعطيهم الدليل الذى يلهثون وراءه، إذا دققنا وأمعنا النظر فى مضمون ألفاظها.

وفى الحقيقة، إن الآية تأمر جميع النساء البالغات المكلفات - بكل بساطة ووضوح - بلبس بعض الثياب الواسعة الغليظة (غير الشفافة) وهذه هى الجلابيب. وذلك عند خروجهن من بيوتهن، حيث يكن موضع نظرات الغرباء فى الطرق والمحلات العامة وغيرها من الأماكن التى يجتمع فيها النساء والرجال.

إذن، فالآية الكريمة تنهى النساء المكلفات عن الخروج من البيوت فى الملابس الخفيفة الضيقة الشفافة التى يمكن أن يلبسها داخل البيوت فى صحبة الأزواج والمحارم. وتأمرن بأن يضعن على أجسادهن فوق الملابس التى يرتدين داخل البيوت بعض الجلابيب التى لا تصف ولا تكشف مواضع الزينة فى أجسامهن، التى تغرى الرجال بالنظر إليها وتفتنهم.

فقوله "يدنين عليهن" معناه: يقربن بعض الجلابيب على أجسادهن فوق الملابس الجاخلية أو البيتية الخفيفة التي قد تكون ضيقة واصفة، وشفافة كاشفة، والتي بوسعهن أن يلبسها داخل البيوت. والمدقق في قراءة الأحاديث النبوية يعلم أن المرأة عندما كانت تريد الخروج من البيت لسؤال رسول الله عن شيء كانت تضع فوق ملابسها البيتية بعض هذه الأثواب الواسعة الغليظة (السميكة). فإن لم يكن عندها، استعارت من جارتها أو قريبة لها.

ذلك الأمر أدنى (أقرب وأدعى) أن يعرفن عند النظر إليهن بأنهن من التقيات المحتشمات، اللاتي لا يستعرضن مفاتنهن في سوق الإغراء فلا يؤذَيْن بالقول أو الفعل الخادش للحياء أو الداعي لارتكاب الفاحشة (الزنا).

ورغم هذا الأمر الواضح، فإن الله ﷻ يعلم بسابق علمه أنه لن يتم الالتزام به من النساء، والرجال المتطلعين للمتعة المحرمة، ولكنه ﷻ بموجب دوام مغفرته ورحمته يغفر ذلك ولا يمنع رحمته عن هؤلاء المخطئين. ولذلك ختم الآية بقوله: وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. ولم يقل مثلاً وكان الله شديد العقاب.. فتأمل!!

والسؤال: ما علاقة هذه الآية الكريمة البيئة بستر الوجه (النقاب) كما توهم وزعم بعض أئمتنا الأعلام الذين يُسمع لقولهم كما لو كان حياً من السماء حملته ملائكة كرام بررة.. فتأمل!!

(١٠) انظر الحديثين رقم ٣٠١٧، ورقم ٦٩٢٢ في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري والحديث ٦١٢٥ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير.

(١١) الحديث رقم ٧١٧٩ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير". وفي هذا الحديث النبوي الذي قطع إلى حديثين: الأول يقول: "من بدل دينه فاقتلوه" ورواه ابن عباس رضِيَ الله عنهما وأخرجه البخاري في حديثين (٣٠١٧-٦٩٢٢)

وأخرجه ابن حنبل وأصحاب السنن (أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه) والثاني يقول: "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له" ورواه أنس ابن مالك رضي الله عنه أقول تتبدى في هذا الحديث النبوى مأساة علم الحديث والفقه الإسلامى بكل وضوح.

حيث انتزع النصف الأول من الحديث "من بدل دينه فاقتلوه" من سياقه التاريخى، أعنى من الحادث الذى وقع فى حياة (سيرة) النبى ﷺ والذى كان سبباً فى قول الرسول ﷺ لهذا الحديث. ثم بنى الفقهاء بعد ذلك حكمهم على فهم خاطئ يحصر معنى الدين فى العقيدة أو الديانة، ومن ثم خرجوا بحكم وجوب قتل المرتد (الذى خرج من الإسلام). مع أن لفظ الدين يُستعمل فى اللغة العربية وفى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى الشريف بمعانٍ مختلفة (متنوعة) تدور حول الملك والسلطان والطاعة والإذعان للحكم وغيرها. ولينظر القارئ الكريم لتلك المعانى فى كتاب "لسان العرب لابن منظور" مادة (دين) ص ١٤٦٧-١٤٧٠، والدليل الذى لا يُدحض على أن لفظ الدين لا يعنى تحديداً وفى كل الأحوال العقيدة الدينية هو تمييز رسول الله ﷺ نفسه فى القسم الثانى من الحديث - والذى صار فى كتب السنة النبوية حديثاً مستقلاً - بين الإيمان وبين الدين إذ قال "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" ومعناه: لقد فقد الإيمان من خان الأمانة؛ فقد أصبح فى الحقيقة كافراً بالله، وإن ظل فى الظاهر مؤمناً يُعد فى نظر الناس من المؤمنين. فقد كفر وإن بقى ظاهراً على الملة فى الأمة (الجماعة) ثم قال "ولا دين لمن لا عهد له" ومعناه لقد حُرِم من الولاء (الانتماء إلى الأمة) والحقوق المترتبة عليه من خان العهد، والعهد هنا هو البيعة التى عقدها الفرد مع الحاكم على السمع والطاعة فى مقابل حفظ الحقوق (إقامة العدل). والمقصود أن مَنْ سعى لنقض البيعة (عدم الوفاء بعهد السمع والطاعة) ونازع فى ذلك الحاكم الشرعى سلطته، وكان بذلك من الساعين إلى تمزيق وحدة الأمة بالتنازع على الحكم، فقد -بذلك السعى الخبيث- حقوقه التى

يكفلها له الدين (الشريعة أو القانون) باعتباره فردًا من الجماعة أو مواطنًا في الدولة، ومن بينها الحق في الحياة؛ وبذلك يُباح قتله ولا يستحق المحافظة على حياته. وهو المعنى الذى يوضحه حديث نبوى آخر "من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم، ويفرق جماعتكم فاقتلوه". (الحديث رقم ٥٩٤٤ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير).

"إذا بويح خليفتان فاقتلوا الآخر (الثانى) منهما" (الحديث رقم ٤٢١ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير)

"من خلع بدأ من طاعة، لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية" (الحديث رقم ٦٢٢٩ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير).

"من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمية: يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتل فقتله جاهلية ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه" (الحديث رقم ٦٢٢٧ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير).

وقوله: "فليس منى ولست منه" يذكرنا بقول القرآن الكريم مخاطباً النبى محمد رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] ومن الواضح الذى لا يحتاج إلى توضيح أن تفريق الدين فى هذه الآية القرآنية أى تقسيمه وتقطيعه على أطراف تتنازع، يعنى التنازع على السلطة (الحكم) واقتسامها بين أطراف متصارعة عليها، يستند كل زعيم منهم على تأييد شيعته (جماعته التى تناصره)، ولذلك قال بعدها مباشرة: "وكانوا شيعا" يعنى وصاروا بهذا التنازع جماعات متصارعة، وتمزقت وحدة الأمة.

وقال: كانوا بمعنى ظلوا أى بقوا، للدلالة على إصرارهم على التفرق الذى يمزق وحدة الأمة.

إذن الدين هنا يعنى الحكم أو السلطة التى تُكتسب شرعا بالبيعة. وتفرقة الدين تعنى اختلاف فى البيعة وتعددتها بين متنافسين متصارعين على السلطة. أولئك المتصارعون الذين فرقوا الدين (البيعة) ينتزه رسول الله ﷺ أن يكون واحداً منهم أو أن يُنسبوا إليه، كما قال عن كل واحد فيهم: "فليس منى ولست منه" وكما قال القرآن الكريم له: "لست منهم فى شيء" ومن هنا نفهم أن قوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه" يعنى من غيّر بيعته التى فى عنقه، للحاكم الذى اجتمع عليه الناس - يعنى أغلب الأمة - وأعطاهما لرجل آخر يتطلع إلى سدة الحكم، فمزق بذلك وحدة الأمة، أو عاش متمرداً (لا يدين) بالطاعة للحاكم (ال خليفة) الذى رضىه أغلب الناس، هذا الرجل يستحق القتل (فاقتلوه).

ولذلك نرى أن هذا الحديث "من بدل دينه فاقتلوه" قد قاله رسول الله ﷺ عندما خان عينية بن حصن عهده، وذهب بإذن رسول الله ﷺ ليتفاوض مع زعماء ثقيف وليتحدث باسم رسول الله والمسلمين، ولكنه خان العهد "وبدل دينه" وحرص ثقيف على التشدد والاستمرار فى القتال؛ فارتكب بذلك جناية الخيانة العظمى التى تنفى ولاءه لجماعة المسلمين، وتحرمه من حقوق الولاء، وأول هذه الحقوق حفظ النفس، ولذلك أباح رسول الله قتله، ليس لأنه غيّر عقيدته (ديانته) وارتد بعد الإسلام، ولكن لأنه خان الأمة التى ينتمى إليها وذهب إلى الأعداء ليتحدث باسمها.

ولكن لأن الحديث النبوى انتزع من سياقه التاريخى والنصى، فكان لابد أن يفضى إلى هذه الخطايا الفكرية (الفقهية)، والتاريخية التى شوهت وجه الإسلام وطمست حقيقته.

إن لفظ الدين يستعمل في اللغة العربية لمعاني عديدة، واستعمل كذلك في القرآن الكريم، ويكفى أن نضرب مثلاً على ذلك في آية واحدة وهى الأخيرة في التنزيل (الخروج من الغيب) والثالثة في السورة الخامسة (سورة المائدة) في ترتيب المصحف الشريف والتي قال فيها الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. دينكم هنا يعنى شريعتكم، التى هى مجموع المبادئ الأساسية أو القواعد العامة التى تنظم حياتكم الدنيا، وتضبط العلاقات بينكم. فهى القانون الأعلى الذى يماثل الدستور، فى الدول المعاصرة والتى ينبغى أن تستندوا إليها وتستلهموها وترجعوا إليها عند إصدار القواعد الجزئية الخاصة بكل نشاط (عمل) من نشاطات أعمال المعيشة.

والإكمال يعنى سد النقص، أى تزويد الشيء بما كان يحتاج إليه. والمعنى فى الآية لقد أكملت لكم شريعتكم ولم تعودوا - بعد هذه الآية التى نزلت فى هذا اليوم (التاسع من ذى الحجة من العام العاشر بعد الهجرة ونبى الله واقف بعرفات فى حجة الوداع) - فى حاجة إلى أية قواعد عامة أو مبادئ أساسية جديدة لاستنباط الأحكام (القواعد الجزئية الخاصة) التى تنظمون وتديرون بها معيشتكم فى هذه الحياة الدنيا. إذن الدين فى هذا الموضع يعنى الشريعة.

والنعمة هنا الواردة فى قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ هى القرآن الكريم، والمعنى لقد أوصلت القرآن الكريم بهذه الآية فى هذا اليوم إلى الغاية النهائية، التى ليس وراءها (بعدها) شيء ينتظر نزوله (مجيئه من الغيب).

والإتمام هو الوصول بالشيء إلى غايته، انظر إلى قوله ﷻ: ﴿تُرَآئِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ومعناه أوصلوا الصيام أو اذهبوا به إلى غايته وهى قدوم الليل.

وفى الآية ١٨٥ من سورة البقرة قال لنا: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ والمعنى ولتسدوا النقص فى عدد الأيام التى يجب عليكم أن تصوموها بصيام عدة (عدد من) أيام أخرى

تساوى عدد الأيام التى أفطرتم فيها وعجزتم عن الصوم بسبب المرض أو السفر. إذن الإكمال ينظر إلى أجزاء الشيء أو أفراد النوع، فيسعى إلى سد النقص فيها. والإتمام ينظر إلى حقيقة الشيء أو معناه الكلى فيسعى إلى إظهاره وإبلاغه غايته النهائية. والقرآن الكريم بالنظر إلى حقيقته هو نور الله الذى كشف به ﷺ عن نفسه، معبراً عن ذاته (جل في علاه) وهو النعمة الكبرى التى تدرج تحتها وتؤول إليها كل النعم، وهو بهذا المعنى كل لا يتجزأ ولذلك قال ﷺ عنه: ﴿وَيَأْتِىَ اللَّهُ إِلَّا الْآنَ يُتِمُّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨]، وقال: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. والمعنى فى هذه الآيات الوصول بتنزل القرآن الكريم إلى الغاية النهائية، حتى لا يبقى منه شيء محبوس أو محتجز فى الغيب.

وغنى عن البيان أننا لا نتحدث هنا عن تقسيم وترتيب النص القرآنى الناطق باللسان العربى، إلى سور وآيات فى المصحف الشريف، فإن ذلك العمل قصد به تيسير تعامل العقل البشرى مع كلام الله. والتوجيه الإلهى لنا بهذا التعبير هو النظر إلى النص القرآنى باعتباره كلاً لا يتجزأ، أو كائناً حياً لا يمكن اقتطاع عضو منه. وهذا للأسف الشديد ما عجز المفسرون عن رؤيته.

ثم يقول: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] هنا يستعمل لفظ "ديناً" بمعنى ديانة أى عقيدة وشريعة، أعنى الدلالة على مجموع الرسالة الإلهية النازلة فى القرآن الكريم. وهكذا نرى أنه ﷺ قد استعمل نفس اللفظ الدين للدلالة على معنيين متميزين: الشريعة ومجموع الرسالة الإلهية (الديانة)، بالضبط كما استعمل من قبل لفظ التأويل للدلالة على معنيين مختلفين فى قوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فقوله: ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلَهُ﴾ يعني: وطلباً لصرف معاني الألفاظ في الآيات المتشابهة إلى معانٍ خاطئة (باطلة) لا يريد لها منزل القرآن ﷻ، وتتوافق وتتوافق أهواء ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عن هدى الله.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: ولا يتبين المعنى الصحيح المقصود من بين المعاني العديدة التي يحملها النص المتشابه إلا الله ﷻ.

وهكذا نرى أنه في آية واحدة قد استعمل لفظ واحد وهو التأويل للدلالة على معنيين متمايزين، بل متضاربين: صرف اللفظ المتشابه إلى معنى خاطئ، وصرف اللفظ المتشابه إلى معنى صحيح يكشف غموضه. وهكذا نرى أن السياق الذي ترد فيه الألفاظ المتشابهة ذات المعاني المتعددة هو وحده الذي يكشف المعنى الصحيح المقصود، وأن انتزاع النص (اللفظ) من سياقه يفضي إلى معانٍ خاطئة ويؤدي إلى الضلال (الزيغ).

ولما كانت الأحاديث النبوية التي نعرفها اليوم والمدونة في كتب السنة النبوية، قد انتزعت من سياقها النصي - إذ رويت كأطراف (أجزاء) مستقلة عن بقية الحديث الذي كان خطبة أو موعظة ألقاها رسول الله، أو حواراً أداره مع بعض الناس - وعن سياقها التاريخي، إذ رويت منفصلة عن الحادث الذي قيلت فيه، أقول لما كانت هذه حال أغلب ما نسميه أحاديث نبوية، فإن هذا أفضى في حالات كثيرة إلى أخطاء وضلالات، مما يتطلب إعادة تدوين الأحاديث النبوية على نسق جديد يضع الحديث في سياقه النصي والتاريخي، ويضم الروايات المختلفة في رواية واحدة جامعة.

إن الحديث الذي يقول: "من بدل دينه فاقتلوه" لم يرد في صحيح البخاري وغيره إلا على لسان ابن عباس رضيهما في معرض اعتراضه على ما قام به علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قام بحرق بعض الزنادقة الذين ادعوا ألوهيته، وكانوا يذهبون إلى المسجد ويتحدثون بهذه الدعوة الكافرة، فعاقبهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه عقاباً شديداً،

فأمر بحفر خندق وألقاهم فيه ثم أشعل فيهم النار. (وقيل في وصف أولئك الزنادقة ومعتقداتهم أقوال شتى لا تعيننا ولا تثبت (ولا تصح) بأدلة قاطعة؛ لأنها كلها أقوال مُرسلة من تراث شفهي انتقل من الأفواه إلى الأسماع عبر الأجيال، فحمل من الأخطاء والأوهام ما لا يمكن تجنبه). فلما بلغ ابن عباس ذلك ﷺ أنكره وقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله الذي قال: " لا تعذبوا بعذاب الله (النار)، ولقتلهم لقول رسول الله: من بدل دينه فاقتلوه".

ففهم ابن عباس أن تبديل الدين هنا يعنى الخروج من الاسلام بعد الدخول فيه، يعنى الارتداد عن الإسلام، وهو فهم نعتقد بخطئه؛ لتعارضه مع آيات القرآن المجيد التي تبيح للإنسان اختيار الدين، وأحاديث وسيرة النبي ﷺ الذي وافق ووقع على وثيقة مكتوبة تبيح للإنسان العودة إلى الكفر والشرك بعد الدخول في الإسلام، وهذه الوثيقة هي صلح الحديبية. ولا نريد الإطالة هنا، وندعو القارئ الكريم إلى قراءة ما كتبناه في كتاب الحرية الدينية (حرية الاعتقاد والعبادة) في كتابنا الحريات العامة والحقوق السياسية في القرآن والسنة ص ٤٥٣ - ٥٢٥.

وقد بينا آنفاً المعنى الأقرب للصواب (للحق)، وهو أن تبديل الدين يعنى تغيير البيعة للحاكم والولاء لجماعة المسلمين، الذي يؤدي إلى تمزيق وحدة الأمة. وندعو القارئ مرة أخرى إلى قراءة باب تحصين السلطة الشرعية ضد العصيان (البغى) ص ٣٣٨ - ٣٤٥ في كتابنا الحريات العامة والحقوق السياسية في القرآن والسنة. ولكن للأسف الشديد أُقيم على هذا الفهم الخاطئ لجزء من حديث نبوى منتزع من سياقه النصي والتاريخي ما أُطلق عليه حد الردة. فتأمل.

ولا ننكر أن بعض الأحاديث ذكرت إباحة قتل المرتد عن الإسلام مثل الحديث الذي ذكره ابن حجر في شرحه للحديث رقم ٦٩٢٢ في كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري والذي يقول أن الرسول ﷺ قال لمعاذ بن جبل، حين بعثه إلى اليمن

حاكماً وليدعو الناس إلى الدخول في الإسلام، ويعلم المسلمون أمور دينهم: "أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه، فإن عاد، وإلا فاضرب عنقه. وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها، فإن عادت وإلا فاضرب عنقها".

ونقول إن هذا الحديث - حتى وإن صح - وهو ليس في رتبة الصحيح بمعيار أصحاب علم الحديث لا يعطى أساساً لما أطلق عليه الفقهاء حد الردة. ذلك؛ لأنهم يتغفلون عن الحالة الخاصة والظرف التاريخي المخصوص الذي قيل فيه هذا الحديث، وإن صح وروده. فإن اليمن كانت لعشرات السنين ميداناً للصراع المحتدم بين الامبراطورية البيزنطية (الروم) والامبراطورية الساسانية (الفرس) للاستحواذ والسيطرة على طرق التجارة العالمية التي يوجد مركزها في أرض اليمن. ولذلك تعاقب على حكم اليمن لعشرات السنين ملوك وأمراء يدينون بالولاء إما للروم أو للفرس. وتكونت في اليمن طوائف دينية متصارعة: المسيحيون يدينون بالولاء للروم، الذين اجتهدوا في نشر الديانة المسيحية عبر البعثات التبشيرية التي لم تنقطع طوال عشرات السنين.

وفي المقابل اجتهد الفرس في نشر المجوسية ثم اليهودية كنقيض محارب للمسيحية. ولذلك فعندما دخل الإسلام أرض اليمن، فإن كثيراً من أهلها كانوا يظهرون الإسلام على سبيل الخداع والكيد ثم ينكصون على أعقابهم ويرتدون إلى عقائدهم الأولى؛ لأغراض دنيوية وسياسية، لا علاقة لها بحرية اختيار الديانة.

ولذلك عانى خالد بن الوليد رضي الله عنه الأمرين من التقلب والخداع طوال ستة أشهر على أرض اليمن. وأرسل رسول الله ﷺ بعده على بن أبي طالب. وكان من قبل قد أرسل كلا من أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما. فإن كان رسول الله ﷺ قد قال هذا الحديث لمعاذ بن جبل رضي الله عنه؛ فلائنه ﷺ يحذره من أن إعلان الدخول في الإسلام ثم الخروج أو الارتداد عنه، إنما يدل على خديعة ومكر بالمسلمين في وقت الحرب والصراع والاضطراب السياسي الذي كان يشتعل في أرض اليمن. كأنه ﷺ

قال له: لا تفرح ولا تغتر بمن يجيئك معلناً الدخول في الإسلام، ولا تأمن له، ولا تطلعه على أسرار جماعتك، فإنه قد يكون مخادعاً يمكر بك وبالمسلمين. فإن ارتد فادعوه للعودة إلى الإسلام؛ لكي يبرهن على صدق نيته حين أعلن الدخول في الإسلام. فإن أبى الرجوع؛ فقد برهن على أنه كان كاذباً مخادعاً يضمّر السوء للجماعة المسلمين، وهم في حالة الحرب، وشأنه في ذلك شأن عيينة بن حصن حين ذهب يتفاوض مع ثقيف في حصنهم باسم المسلمين، فنقض البيعة وخرج من الطاعة (الدين) وخان العهد؛ فاستحق القتل. وإن كان عيينة بن حصن لم يقتل فعلاً؛ لأنه سرعان ما أعلن التوبة، فقبل منه رسول الله ﷺ، رغم علمه ﷺ بكذبه وخداعه، ولكنه كان يأمر بقبول ما يظهره الناس وينهى عن التفتيش في نواياهم الكامنة في قلوبهم.

مرة أخرى وليست أخيرة نقول: إن انتزاع الأحاديث النبوية من سياقها النصي والتاريخي، وبناء أحكام الفقه على أجزاء متقطعة من الأحاديث النبوية ومنتزعة من سياقها؛ سيؤدى دائماً إلى ضلالات ونتائج كارثية.

(١٢) انظر ترجمة الحارث بن كلدة في كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير - الجزء الأول - ص ٢٨٩.

(١٣) اعترف نفع بن مسروح بحقيقة نسبه إلى أبنائه عند الموت، فقال لهم أبي مسروح الحبشي. انظر كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير - الجزء الخامس - ص ١٧١ قال لمن ألح عليه في إعلان نسبه (أبيه): أنا من إخوانكم في الدين، وأنا مولى رسول الله (من أعتقه رسول الله)، وإن أبى الناس إلا أن ينسبونى، فأنا نفع بن مسروح. انظر نفس المصدر ص ٣١٤.

(١٤) انظر ترجمة نافع بن الحارث بن كلدة في نفس المصدر ص ١٣٣. والاثنان نافع ونفع أخوان من الأم سمية لزياد الذى ولدته ولم يُعرف له والد فسمى زياد بن أبيه. وكان زياد رجلاً ذكياً حاد الذكاء وقائداً حكيماً وخطيباً بارعاً، ويعد أحد دهاة

العرب، فصار أهم رجال معاوية بن أبي سفيان عندما صار ملكاً على المسلمين وحاول معاوية أن يلحقه (ينسبه) إلى أبيه لأن أبا سفيان هو أبو زياد الحقيقي (الجسدي) الذي زنا بسمية قبل الإسلام، فصار اسمه زياد بن أبي سفيان، وكان يسمى من قبل زياد بن عبيد الثقفي، انظر ترجمة زياد بن سمية في كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة الجزء الثاني ص ٢٤٠-٢٤١.

(١٥) سيحاول سادة ثقيف عندما أعلنوا إسلامهم، وجاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ أن يستردوا أولئك العبيد الذين أعتقهم رسول الله، ولكنه ﷺ سيرفض ويقول: "أولئك عتقاء الله لا سبيل إليهم" إذن لقد غير (بدل) سادة ثقيف ديانتهم، دون أن ينجحوا في تغيير (تبديل) ما ألفوه من أعراف وتقاليد اعتادوا العيش عليها ومنها - بلا جدال - الرق (استعباد الناس).

(١٦) نص الحديث النبوي الذي تناثرت أطرافه في مختلف الروايات التي أوردها الإمام ابن حجر في شرحه للحديثين ٢٥١٧، ٦٧١٥ والأحاديث ٢٧٠٠، ٦٠٥٠، ٦٠٥١ في كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته» للأستاذ محمد ناصر الدين الألباني. ولا شك أن اختيار رسول الله لهذه الصياغة (بكل عضو منه عضواً....) دعوة بليغة إلى أن يرى الإنسان السيد المالك أنه صورة من الإنسان العبد المملوك، فهو تأكيد لحقيقة وحدة الأصل الذي نشأ منه كل البشر، وأن جميع الناس - في جوهرهم - صور لكائن واحد.

(١٧) الحديثين ٦٣٠٧ و ٦٣٠٨ في كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير» للأستاذ محمد ناصر الدين الألباني، وقد جاء الحديث رقم ٦٣٠٨ الذي رواه عمرو بن عبسة بلفظ "في سبيل الله" بدلاً من وتفسيراً للفظ "في الإسلام" في الحديث رقم ٦٣٠٧ الذي رواه كعب بن مرة. والإسلام بلا جدال في النص القرآني هو سبيل الله.

(١٨) نص الحديث الذى كان جزءاً من الخطبة (الموعظة) النبوية التى ألقاها رسول الله ﷺ أثناء حصاره جيش ثقيف بمدينة الطائف، عندما نزل إليه عبيد ثقيف من الحصن، طالبين التحرر من الرق. وقد تناثرت أطراف هذا الحديث واختلفت (تعددت) رواياتها فى الأحاديث التى أوردتها أو أشار إليها الإمام ابن حجر العسقلاني فى شرحه للأحاديث ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٢٩١، ٣٥٠٨، ٣٥٠٩، ٤٣٢٦، ٤٣٢٧، ٦٧٦٦، ٦٧٦٧، ٦٧٦٨، ٦٨٣٠، ٦٠٤٥، ١٠٣ ٦، ٦١٠٤، والأحاديث ٢١٤٢، ٢٢١٠، ٢٢١١، ٥٤٣١، ٥٩٨٧، ٥٩٨٨، ٥٩٨٩، ٦١٣٩، ٦٥١٩، ٦٥٢٠، ٧٤٣٤، ٧٤٣٦، ٧٤٣٧. فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير".

وعلينا أن نلاحظ مرة أخرى - وليست أخيرة - كيف قد تم تقطيع خطبة (موعظة) نبوية واحدة إلى عشرات "الأحاديث" فى مختلف مراجع الحديث النبوى. ويكفى أن نذكر أن عبارة "من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده فى النار" قد وردت بمختلف الصيغ فى عشرات الأحاديث، حتى أن هذه العبارة تعد أحد الأمثلة القليلة بل النادرة على الحديث «المتواتر» أى الحديث الذى رواه جم غفير من الناس، محال أن يتواطئوا على الكذب. وفى هذا إشارة أكثر من بليغة إلى أن الكذب على رسول الله ﷺ كان حقيقة تاريخية لا يمكن الشك فيها؛ مما يحتم علينا أن نكون أشد حذراً وأكثر تدقيقاً عند تناول الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ وقد ورد فى حديث طويل مضطرب، بل شديد الاضطراب منسوب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخذ الرقم ٦٨٣٠ فى كتاب «فتح البارى شرح صحيح البخارى» عبارة تقول: "إننا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو أن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم".

ولا شك فى أن أى انسان يتذوق كلام القرآن الكريم يرفض - بكل يقين وثقة -

أن يكون مثل هذا الكلام الركيك من كلام رب العالمين. هل يعقل أن يكون نص الآية كذا أو كذا؟! وفي هذا الحديث أيضا وردت عبارة "والشيخ والشيخة فارجموها البتة" بزعم أنها كانت من آيات القرآن المجيد نسخت.

ولا يخفى على عاقل حكيم يعرف قدر بلاغة القرآن الكريم أن مثل هذه الألفاظ في المحال أن تكون من آيات الذكر الحكيم، الذى صُرب مثلاً أعلى للبلاغة وكان معجزة الرسول الأعظم. فتأمل كيف يتمسك عباد النصوص البشرية ببعض الأحاديث التى تشكك فى القرآن المجيد، وتثير الشبهات حول نصه المعجزة.

(١٩) انظر ترجمة نوفل بن معاوية الديلى فى كتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» لابن الأثير الجزء الخامس ص ١٨٣.

(٢٠) نص الحديث النبوى الذى تناثرت أطرافه واختلفت وتعددت رواياته وأورده الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى فى ثلاثة أحاديث ٦١٢٦، ٦٢٦٧، ٦٢٦٨ فى كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير».

(٢١) انظر ترجمة خولة بنت حكيم بن أمية السلمية فى كتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» الجزء السادس ص ٢١٢.

(٢٢) سقنا فى هذه القصة مختلف الروايات التى أشار إليها وأوردها الإمام ابن حجر العسقلانى فى شرحه للأحاديث ٤٣٢٤، ٥٢٣٥، ٥٨٨٥، ٥٨٨٦، ٥٨٨٧، ٦٨٣٤ فى كتاب «فتح البارى بشرح صحيح البخارى».

وعندما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، فإنه استدعى هيتاً، وأمره بالخروج من المدينة، فنفاه (أجلاه) إلى المنطقة التى كان يطلق عليها الحِمَى " فكان يدخل كل جمعة يطلب الصدقة والطعام. كما نفى رسول الله ﷺ العبد الأسود «أنجشة» الذى كان يسوق الإبل التى تحمل النساء فى السفر. وكان أنجشة جميل الصوت، فإذا سار بالإبل رفع صوته بالغناء، فتستجيب الإبل لجمال صوته؛ فتتهز متراقصة وتسرع فى سيرها،

فتأذى النساء فوقها؛ فقال له رسول الله: ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير.
انظر الأحاديث ٦١٤٩، ٦١٦١، ٦٢٠٢، ٦٢٠٩، ٦٢١٠، ٦٢١١ في كتاب «فتح
البارى بشرح صحيح البخارى»

يطلب منه أن يكف عن الغناء أو يخفض صوته، حتى لا تهتز وتسرع الإبل في سيرها فيؤذى ذلك النساء الراكبات فوقها. وشبه رسول الله النساء بالأوعية الزجاجية (القوارير) التى يسهل كسرها. وفى ذلك إشارة لطيفة إلى ضعف النساء البدنى (الجسدى) والوجدانى (العاطفى)، إذ يبعث جمال الصوت فى أنفسهن الرغبات المكبوتة إلى التحرر والانطلاق؛ مما قد يفضى بهن إلى الوقوع فى أسر الشهوات المحرمة.
وكان العبد الأسود أنجشة من المخثنين الذين ينظر إليهم باعتبارهم من غير أولى الإربة من الرجال، ولذلك يباح لهم الاطلاع على عورات النساء داخل الحجرات ومعرفة أسرارهن. ودخل رسول الله ﷺ ذات يوم، فوجد أنجشة الذى كان يدلل فيقال له «أنه» عند امرأته عائشة وهى تقول له: "يا أنه"، ألا تدلنا على امرأة نخطبها على عبد الرحمن بن أبى بكر (أخيها)، تريد أن تنتفع بخبرة أنجشة فى اختيار امرأة جميلة لأخيها عبد الرحمن.

فأخذ المخنث يصف امرأة يرشحها، وسمعه رسول الله؛ فغضب وقال له: اخرج من المدينة إلى حمراء الأسد وليكن بها منزلك. فكانت عقوبة ذلك المخنث النفى، درءاً للفتن التى يمكن أن يثيرها باطلاعه على عورات النساء، وأسرار البيوت. (انظر شرح الحديث رقم ٥٢٣٥ فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى).

وأتى النبى ذات يوم برجل قد خضب يديه ورجليه مثل النساء، وأقاموه بين يدى النبى. فقال: ما بال هذا؟ يسأل لماذا قبضتم عليه؟ وماذا تريدون به؟ فقالوا إن هذا يتشبه بالنساء. قال: أخرجوه إلى البقيع (منطقة المقابر خارج المدينة)، فقالوا: ألا تقتله؟! قال: إني نهيت عن قتل المصلين (انظر نفس المصدر).

ويتبين لنا مما سبق، أن رسول الله ﷺ اعتبر أولئك المخنثين (المتشبهين بالنساء) مرضى؛ يجب وقاية الآخرين من شرهم، وليس باعتبارهم جناة مجرمين يجب قتلهم أو إبادتهم. وغنى عن البيان أن ذلك كان مشروطاً بعدم ارتكاب الفاحشة (ممارسة الشذوذ الجنسي أو المثلية الجنسية) أعنى اللواط أو السحاق أى عدم الجهر بذلك. والنفى خارج المدينة يمكن أن يتحقق الآن في عصرنا بوجود مصحات (مشافى) تعالج المصابين بالأمراض العقلية.

(٢٣) انظر الأحاديث ٤٣٢٥، ٦٠٨٦، ٧٤٨٠ في كتاب فتح البارى شرح صحيح البخارى.

(٢٤) نسجنا هذا المشهد من روايتنا بالتفاصيل التى أوردتها الإمام محمد بن يوسف الصالحى فى كتابه «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» - الجزء الخامس ص ٥٥٦ - ٥٦٦.

(٢٥) انظر كتاب «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» - الجزء الخامس ص ٥٦٦ - ٥٦٧، وترجمة سراقه بن مالك فى كتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» الجزء الثانى ص ٢٩٦ - ٢٩٧ والحديثين ٤٢٥٤، ٤٢٦٣ فى كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير» من اعداد الأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى، وعندما فتح المسلمون فارس (الدولة الساسانية) ودخلوا قصر كسرى فى العاصمة المدائن، كان سراقه بن مالك من بين أولئك الفاتحين، الذين أحضروا تاج كسرى ومنطقته وسواريه ضمن الغنائم إلى المدينة المنورة، فأصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان حينئذ أميراً للمؤمنين على استدعاء سراقه إلى مسجد رسول الله وألبسه تاج كسرى ومنطقته وسواريه، وقال له: ارفع يديك ليرى الحاضرون فى المسجد سوارى كسرى على يدي سراقه، وقل الله أكبر، الحمد لله الذى سلبها كسرى الذى كان يقول: أنا رب الناس، وملك الملوك، وألبسها سراقه بن مالك، رجلاً أعرايياً من بنى مدلج.

(٢٦) انظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الجزء الخامس ص ٥٦٧-٥٦٨.
(٢٧) انظر شرح الحديث النبوى رقم ٥٩٩٩ فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

(٢٨) انظر شرح الحديثين: ٧٣٢٨، ٥٨٥٩ فى نفس المصدر.

(٢٩) انظر كتاب «سبل الهدى والرشاد» - الجزء الخامس ص ٤٧٤، ٤٧٥ وترجمة النضير بن الحارث فى «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» الجزء الخامس. وأسرع رجل من بنى الديل إلى النضير بن الحارث ليبشره بعطية رسول الله، طامعاً أن يمنحه النضير شيئاً منها، فقال النضير: والله ما طلبتها ولا سألتها وما أريد أخذها؛ لأننى أحسب أن رسول الله لم يعطنى ذلك إلا تآلفاً على الإسلام وما أريد أن أرتشى على الإسلام.

ثم راجع نفسه؛ إذ رأى أن من سوء الأدب أن يرفض عطية رسول الله، فأخذها وأعطى من بشره عشرة منها. ثم هاجر إلى المدينة حتى خرج فى جيش المسلمين الذى فتح الشام، وقُتل شهيداً فى معركة اليرموك فى رجب سنة ١٥هـ. وقد اختلط أمره على بعض المحدثين، فظنوه أخاه النضر بن الحارث الذى أُسر فى معركة بدر وأمر رسول الله ﷺ على بن أبى طالب بقتله؛ لأنه كان شديد العداوة للمسلمين (انظر ترجمة النضر بن الحارث فى نفس المصدر الجزء الخامس ص ١٤٥ - ١٤٦) ولقد ظل النضير بن الحارث - وكان من أحلم قريش - يقول فى كل مناسبة: الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام، ومن علينا بمحمد، ولم نمت على ما مات عليه أبائنا.

(٣٠) سياق واحد يجمع مختلف الروايات التى تبشر فيها هذا الحديث النبوى، والذى أوردتها الألبانى تحت الأرقام ٧٦٦١، ٧٨٦٨، ٧٨٧٢، ٧٨٨٣، ٨٨٧٣ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير وقد ذكر مواضع تخريجها فى مختلف المصادر.

(٣١) انظر كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الجزء الخامس ص ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٣٢) انظر ترجمة النضير بن الحارث في كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة الجزء الخامس ص ١٤٩.

(٣٣) وصدق حكيم ما عاهد رسول الله ﷺ عليه فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما صار خليفة للمسلمين يدعوه؛ ليأخذ عطاءه من بيت مال المسلمين، فيأبى أن يقبل منه شيئاً. وفي عهد خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا معشر المسلمين إنى أشهدكم على حكيم. إنى أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. وصدق رسول الله ﷺ ما وعد حكيماً، فمات وهو أكثر قريشاً مالاً من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله.

(٣٤) نسجنا القصة من عشرات الروايات التى أوردها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٣٦، ١٤٧٢، ٢٢٢٠، ٢٥٣٨، ٢٥٣٨، ٢٧٥٠، ٣١٤٣، ٥٣٥٥، ٥٣٥٦، ٥٩٩٢، ٦٤٤١.

قوله: خضرة حلوة - وصف مؤنث للمال - يعنى ثمرة خضرة حلوة، فالمال هو إحدى زينتى الدنيا، ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

فمن أخذه بسخاوة نفس: فمن أخذه بطيب نفس، والمعنى من يسأل المال، عليه ألا يكثر فى السؤال ويلج على المسؤل حتى يخرجه، فيضطر أن يعطيه، وهو غير راضٍ تحت سيف الحياء، تخلصاً من الحرج (الضيق) الذى وقع فيه.

"بورك له فيه" وضع الله ﷻ البركة فى هذا المال المأخوذ عن رضى المعطى، والمعنى: قدر الله ﷻ له النفع فى هذا المال الذى أعطى عن طيب نفس، "ومن أخذه بإشراف نفس": ومن سأل المال متطلعاً إلى إحراج المعطى، مصراً على أخذ المال منه

حتى إن أعطاه عن غير رضى. "لم يبارك له فيه" قدر الله ﷻ له عدم الانتفاع بما أخذ من مال، فلم يستفد به شيئاً، كأنه لم يأخذه. "وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى": وأفضل الصدقة التى يقدمها صاحب المال وهو غنى غير محتاج إليها؛ حتى لا تتطلع نفسه إلى استردادها مرة أخرى، أو يندم على بذله لها، خير الصدقة ما ترك غنى ولم تخلف وراءها فقراً أو ندماً على إعطائها. وابدأ نفقتك بمن تعول؛ لأنهم الأولى بالرعاية والواجب عليك أن تكفيهم حاجتهم "فكفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول" وقوله: "أسلمت على ما سلف لك من خير"، يعنى أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ونفع غيره من الخلق، حتى وإن كان كافراً؛ لأنه ﷻ هو العدل. وإنك يا حكيم بإسلامك (دخولك فى الإسلام)، قد أضفت على حسناتك التى أوجبها الله لك على ما سبق لك من أعمال الخير فى زمن الجاهلية (قبل الإسلام)، فحرف (على) هنا يعنى الإضافة أو الزيادة. ولذلك جاءت الفقرة الأخيرة من الحديث "إن الكافر يثاب فى الدنيا بالرزق على ما يفعله من حسنة"، والتى رويت كحديث مستقل أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه لبيان هذا المعنى: وبهذه الإضافة الواردة فى الفقرة الأخيرة يُحل الإشكال الذى أثار الخلاف بين المفسرين والفقهاء.

وغنى عن البيان أن الكافر لا يثاب على ما عمل من حسنات فى الآخرة؛ لأن الكافر لا يؤمن أصلاً بالآخرة، فكيف يثاب فى حياة لا يعتقد بوجوده فيها؟! والذى يؤكد صحة ما ذهبنا إليه، قول حكيم بن حزام رضى الله عنه فى نهاية القصة: "فوالله لا أدع شيئاً صنعتته فى الجاهلية، إلاّ فعلت مثله فى الإسلام"، والذى يؤكد اطمئنانه على إثابة الله له على ما صنع فى الجاهلية، فشجعه هذا على مواصلة الإحسان بعد الإسلام؛ لأن ثوابه بعد الإسلام سيكون مضاعفاً فى الدنيا والآخرة. فتأمل!

(٣٥) روى عمرو بن تغلب هذا الجزء من الحديث الوارد فى هذه القصة، وكان يقول كلما رواه: فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله حمر النعم. يقصد أن كلمة

رسول الله في الثناء عليه بضمه إلى جملة من وضع الله في قلوبهم الإيمان (الخير)، والغنى أفضل عنده من امتلاك الإبل.

(٣٦) نسجنا هذه القصة من مختلف الروايات التي أوردها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث ٢٧، ٩٢٣، ١٤٦٩، ١٤٧٨، ٣١٤٥، ٦٤٧٠، ٧٥٣٥.

الجزع: فقد الصبر؛ فهو نقيض الصبر. والصبر هو تحمل الألم دون شكوى، أعنى حبس (منع) اللسان عن الشكوى، ولفظ الصبر - أصلاً - يدور معناه حول الحبس. ومن ثم فإن الجزع يعنى العجز عن تحمل الألم (المشقة)، وكثرة الشكوى.

والهلع: شدة الحرص المهلك على المال ومتاع الدنيا، ومن ثم فإن الهلع أو الهلوع هو من يفقد صبره (يجزع) عند فقد المال ومتاع الدنيا، ومن ييخل عن النفقة. وقد فسر القرآن الكريم معنى الهلع أبلغ تفسير حين قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

خلق: صنع، أى كَوَّن بنيانه، أو بُنى كيانه على صفة شدة الهلع، يعنى شدة الحرص على متاع الدنيا، وعلى رأس هذا المتاع المال، فهو هلوع بموجب الخِلقة أى التركيبية الأساسية المودعة في كيانه. وفسر صفة الهلوع بأنه إذا مسه الشر بمعنى الألم والضرر فإنه يكون جزوعاً: شديد الجزع، وإذا مسه الخير يعنى الغنى أى كثرة المال وكل ما ينفع في أمور الدنيا فإنه يكون "منوعاً" شديد البخل، شديد الحرص على ما معه، لا يريد أن يبذله لغيره، كما قال ﷺ في آية أخرى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

والسر وراء هذا الهلع هو الإدراك العميق بأن حياة الإنسان في هذه الدنيا سريعة الزوال، كأنها لحظة أو لمحة بالبصر، إذا قورنت بالخلود بالحياة الآخرة، فمن ثم فكلمنا قل إيمان الإنسان بالحياة الأخرى بعد الموت، كلما زاد إحساسه بسرعة زوال الحياة

الدنيا، واشتد حرصه عليها (هلعه). ولكن هذا الخلق (الصنع والتركيب) المبني على الهلع ليس قيداً ملازماً للإنسان، وحاكماً لسلوكه أى خلقه، لا يملك الفكاك منه؛ لأن القرآن الكريم قد استثنى من هذا الخلق (السلوك) الذميم المصلين، المؤدين للزكاة، والمؤمنين بالحساب بين يدي الله بعد البعث من القبور.

ومن ثم نفهم أن الإيمان المفضى إلى طاعة الله ﷻ هو الذى يحرر الإنسان من الخلق الذميم المركز في أساس خلقه، أعنى كيانه الدنيوى، المادى المشهود. ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿ [المعارج: ٢٢-٣٠] إذن فوظيفة التدين الحقيقى هى تحسين خلق الإنسان وتأهيله للحياة الخالدة في جنات النعيم ثم جنات عدن يوم القيامة.

(٣٧) قدمنا في هذا السياق نص الحديث النبوى، الذى تناثرت أشلاؤه في مختلف الروايات التى أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث ٣١٣٨، ٣٦١٠، ٥٠٥٨، ٦١٦٣، ٦٩٣١، ٦٩٣٢، ٦٩٣٣، ٦٩٣٤، ٧٥٦٢ في كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى، والأحاديث ٢٩٩٧، ٣٦٥٤، ٣٦٦٠، ٣٦٦٢، ٣٦٦٨، ٨٠٠٦، ٨٠٥٢، ٨٠٥٣، ٨٠٥٤، ٨٠٥٦، ٨٠٥٧، ٨٠٦٣، ٨١٧١ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير من إعداد الأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى.

ونريد أولاً أن نلفت انتباه القارئ إلى أن رواية الأحاديث النبوية قد اختلط عليهم الأمر، فتشابهت عليهم أحاديث الرسول ﷺ التى تناولت الخوارج، فنقول لبيان الأمر وفض الاشتباه، أن رسول الله ﷺ قد تكلم عن الخوارج وتنبأ بظهورهم في ثلاثة أحاديث في ثلاثة أحداث من سيرته العطرة.

(أ) الحديث الأول: عند اعتراض عبد الله بن ذى الخويصرة التميمي، على قسمة غنائم يوم حنين بالجعرانة في شهر ذى القعدة، من السنة الثامنة بعد الهجرة، وهو الحديث الذى أوردناه آنفاً.

قوله "ويحك": صيغة تحذير من الخطر الذى يهدد المخاطب، تبعثها الرحمة به، والخوف عليه من العذاب وطلب النجاة له، وبذلك فهى على خلاف كلمة ويلك التى تعنى معنى الغضب عليه والانذار من الخطر الذى ينتظره.

"والرمية": الطريدة أى الصيد الذى يطارد من أجل اقتناصه، والانتفاع به.
 "والنصل": حديدة السهم التى تُوضع أو بالأحرى تُغرز فى مقدمته أو رأسه، ومن ثم فالنصل هو السلاح الذى يخترق جسد الرمية (الصيد)، فمن المفترض أنها أول جزء يتعلق به الدم.

"والرِصاف": جمع رَصَفَة، والرِصاف هى القطع الصغيرة المتماثلة التى تُوضع حول فوهة السهم، حيث ينغرز النصل من أجل إحكام تثبيت النصل فى عود السهم. ولذلك فمن المفترض عند نجاح الرامى فى إصابة الهدف (الرمية) أو الصيد، أن يسيل الدم على الرِصاف، ويتجمع عليها وحوها بعض الفرث.

والنَضى: العود أو القلم الذى يُصنع منه السهم، فهو قطعة الخشب التى تؤخذ من الشجر، ثم تُبرى وتهذب ليصنع منها السهم. إذن فالنضى هو القدح والمقصود هنا الجزء من السهم ما بين النصل والقُدْذ.

والقُدْذ: جمع قذة وهى الريشة، فالقُدْذ هى الريش، أى القطع الصغيرة الحادة التى تثبت على جانبى القدح (العود أو القلم) من أجل تسهيل اندفاع الهواء وتسهيل اختراقه لجسد (الرمية الصيد)، وإحداث أشد تمزيق فيها.

والفُوقَة: وتُذكر أيضا فيقال لها (الفوق)، هى نهاية السهم، أعنى الطرف الآخر

المناظر للرأس الذى يغرز فيه النصل، ويطلق لفظ الفوقة (أو الفُوق) على موضع اتصال السهم بالوتر. قوله ﷺ حتى يترد السهم إلى فوقته، يعنى حتى يرجع السهم إلى موضع اتصاله بالوتر، والمعنى حتى يعود إلى وضعه قبل الانطلاق من الوتر المشدود. والمقصود حتى يغير هؤلاء القوم تدينهم الزائف والفساد الذى أخرجهم من الإسلام، ويرجعوا إلى التدين الصحيح الصالح الذى كان عليه رسول الله ﷺ والمؤمنون الصالحون، وهو شرط مستحيل التحقق، يناظر قوله ﷺ فى وصف استحالة دخول الكافرين جنات النعيم: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، الذى يعنى حتى يدخل الحبل الغليظ فى ثقب الإبرة الضيق. والتحليق هو المبالغة والإكثار من حلق شعر الرأس، وجاءت بعض الروايات بلفظ التسييد وهو تكرار حلق شعر الرأس واستئصاله على الدوام؛ حتى لا تترك له فرصة النمو والتوفر، والتحليق أو التسييد يخالف سنة رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، -رضوان الله عليهم- الذين كان من عادتهم توفير شعر الرأس والامتناع عن المبالغة فى حلقه.

وسَبَلَات (أو سباله) سبع أو سنور: شوارب أسد أو هر (قط). انظر لسان العرب مادة سبل ص ١٩٣١.

بَضْعَة: قطعة لحم مترهلة.

تدردر: تحدث صوت اختلاط عند حركتها. مُخْرَجُ اليَدِ: مقطوع أو مبتور اليد، ورُوى فى مختلف الروايات بعدة ألفاظ مثل مجدع اليد، أو مثدون اليد، أو مُودن اليد. ويصف رسول الله ﷺ فى هذا الموضع من الحديث، الرجل المسمى نافع ذو الثدية. وكان رجلاً فقيراً من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله عنه الذين شايعوه وناصروه فى قتاله لمعاوية بن أبى سفيان.

ثم انقلب عليه وانضم إلى من خرجوا عليه، وأخذوا فى التاريخ اسم الخوارج وقاتلوا علياً فى معركة النهروان، وانتصر على عليهم علياً انتصاراً حاسماً، فلم يبق من

جنودهم سوى تسعة أفراد، هم الذين واصلوا حركة الخوارج في التاريخ الإسلامي أثناء الدولة الأموية والعباسية. وكان نافع ذو الثدية هو الآية التي تين أن القوم الذين كان فيهم هذا الرجل هم المقصدون بحديث رسول الله ﷺ ولذلك كانت همة على بن أبي طالب رضي الله عنه بعد انتصاره الساحق على الخوارج، في معركة النهروان استخراج جثة نافع ذو الثدية من بين القتلى؛ من أجل أن يبرهن على أنه رضي الله عنه كان على حق في قتاله للخوارج، وأنه كان على رأس الطائفة التي وصفها رسول الله ﷺ بأنها أولى الطائفتين بالحق.

وفي هذا الحديث النبوي الصحيح يتنبأ رسول الله ﷺ بانقسام جماعة المسلمين إلى طائفتين متناحرتين وهما: على بن أبي طالب رضي الله عنه ومن انضم إليه وناصره، ومعاوية بن أبي سفيان ومن تحالف معه، وأن الطائفة التي سيطر عليها - فيما بعد - لفظ الخوارج ستظهر عند اشتداد الصراع بين طائفة على بن أبي طالب رضي الله عنه وبين طائفة معاوية بن أبي سفيان، والحديث صريح في بيان أن علياً ومن كانوا معه هم الطائفة التي كانت على حق (أولى الطائفتين بالحق)، ومن ثم يتبين بلا جدال أن معاوية بن أبي سفيان ومن كانوا معه على الباطل.

وقوله: في أعراضهم يعنى في أوساطهم؛ أى بينهم. والمقصود بيان أن أجيال متعاقبة من أصحاب التدين الفاسد، الذين يبالغون في إظهار تعبدتهم وتعمقهم في الدين، سيتوالى ظهورهم في مختلف العصور، حتى يأتي زمن ظهور المسيح الدجال، فيكون الجيل من أولئك المتنطعين (المتشددين بالباطل) الذين يشهدون ظهور الدجال ضمن جنوده الذين يعيشون في الأرض فساداً. وعندما يقول رسول الله ﷺ: "ينشؤ نشو يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن قطع، كلما خرج قرن قطع" فهو يبين أن الخوارج ظاهرة تاريخية، سيتوالى ظهورها، وتتكرر عبر الأجيال، بدءاً من الجيل الأول الذي ظهر عند احتدام العراك الدموي بين على بن أبي طالب رضي الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان، حتى الجيل الذي سيشهد ظهور الدجال، قبيل قيام الساعة. ومن ثم

فلكل جيل (عصر) من أجيال الأمة الإسلامية خوارجة الذين يظهرون في هيئة العباد القرآنيين، شديدي التدين ولكنهم - في الحقيقة - أبعد الناس عن حقيقة الإسلام؛ لأن إيمانهم زائف (كاذب)، فهم يبحثون عن السلطة باسم الدين.

ولقد نبى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل ابن ذى الخويصرة وأبوه ذى الخويصرة - واسمه حرقوص بن زهير وكان من زعماء الخوارج - لأن الخوارج الذين سينضم إليهم عبدالله وأبوه لم يكونوا قد خرجوا بعد بتمردهم المسلح على السلطة الشرعية؛ فليس من الشريعة في شيء أن يعاقب الناس على نياتهم المودعة في قلوبهم، ولا على أفكارهم التي يعلنونها بكلامهم، ما لم ينتهكوا حرمت وحقوق غيرهم من الناس.

كما بين رسول الله ﷺ أن الفتنة التي سيثيرها الخوارج ليست منحصرة في ابن ذى الخويصرة التميمي، بل سيحملها ويشعلها أقوام يتوالى ظهورهم عبر العصور؛ لأن منشأها أو أصلها يكمن في الإيمان الزائف، أعنى طلب السلطة الدنيوية باسم الدين. وهذا أسوأ أشكال النفاق.

ولقد ضرب الخوارج المثل في التنطع (التشدد الديني الزائف) مع سوء الخلق، كما يتبين لنا من القصة التي رواها أبو برزة الأسلمي رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ، عندما كان في مدينة الأهواز (تقع في جنوب إيران حالياً) أثناء ظهور فتنة الخوارج وسيطرتهم على بعض الأراضي في إيران وجنوب العراق ومحاصرتهم لمدينة البصرة، أدركته صلاة العصر، وكان يركب فرسه على شاطئ مجرى مائى ضحل قد نضب ماؤه، فحلى الفرس وتوضأ. فلما دخل في الصلاة، انطلقت الفرس فخشى أن تبعد عنه كثيراً وتشرد. فاسرع نحوها يتبعها وهو لم يزل في صلاته، فأخذ بعنانها وعاد القهقري - راجعاً بظهره - وأكمل صلاته، وهو ممسك بعنان (زمام) الفرس في يده حتى لا تنفلت وتشرد. وكانت الفرس تنازعه أثناء صلاته، فيضطر إلى التحرك قليلاً معها، وهو

يصلى. وراه رجل من الخوارج وكان يسير مع صاحب له، فسخر من أبى برزة الأسلمى رضي الله عنه وقال لصاحبه: ألا ترى إلى هذا الحمار ترك صلاته من أجل فرس. اللهم افعل بهذا الشيخ وأخذ يسبه ويلعنه. فلما قضى أبو برزة رضي الله عنه صلاته، قام إلى الرجل الذى سبه ولعنه، وكان قد انضم إليه بعض أصحابه من الخوارج. فقال أبو برزة رضي الله عنه: إني سمعت قولكم وإنى غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وشهدت تيسيره، والله ما عنفى أحد منذ فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن منزلى متراخ (على مسافة بعيدة)؛ فلو صليت وتركت فرسى، لم آت أهلى إلى الليل، وإنى إن كنت أرجع مع دابتي أحب إلى من أن ترجع إلى مألها (المكان الذى اعتادت أن تأوى إليه) فيشق ذلك على (انظر شرح الحديثين ١٢١١، ٦١٢٧) فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر.

(ب) الحديث الثانى

وهو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب رضي الله عنه، وأنبأ فيه بوصف الخوارج ومصيرهم وأمره بقتالهم وبشره بالنصر عليهم. حدث ذلك قبيل مطلع العام التاسع بعد الهجرة، عندما استأذن على بن أبى طالب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدخول فأذن له. ولم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حينذاك غير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موجهاً خطابه لعل: "كيف أنت، وقوم من أمتى يخرجون بعدى فى آخر الزمان" (فى نهاية زمان خلافة على بن أبى طالب عندما أصبح أميراً للمؤمنين، وهو ما تحقق بالفعل)، من قبل المشرق، أشداء أحداً، حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، سيماهم التحليق، ذلقة ألسنتهم بالقرآن، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، يقولون من قول خير البرية، ليست صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، ولا قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه أبداً، فإذا خرجوا فاقتلوهم أينما لقيتموهم؛ فإن قتلهم حق على كل مسلم. وإن فى قتلهم أجراً عظيماً لمن قتلهم عند

الله يوم القيامة، من قتلهم فله أجر شهيد، ومن قتلوه فله أجر شهيد. لو يعلم الجيش الذين يصيرونهم ما قُضى لهم على لسان نبيهم -يعنى يوم القيامة- لنكلوا عن العمل وآيتهم أن فيهم رجلاً له عضد، ليس فيه ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدى، عليه شعرات بيض، مجدع (مبتور أو مقطوع) اليد، كأن يده ثدى امرأة حبشية. إنهم من أبغض خلق الله إليه. شر الخلق والخلقة. شر الخلق والخلقة. شر الخلق والخلقة، هم شرار أمتى ويقتلهم خيار أمتى. إنهم شر قتلى أقتلهم الأرض وأظلتهم السماء.

ثم أخذ رسول الله يقص على علي بن أبي طالب تفاصيل معركة النهروان، التي ستقع بعد ما يقرب من ثلاثين سنة، بين علي بن أبي طالب ومن معه عندما يصير أميراً للمؤمنين، وبين الخوارج الذين سيخرجون عليه ويكفرونه ويحاربونه. (ذكرنا في هذا السياق نص الحديث النبوى الذى تناثرت أشلاؤه، واختلفت ألفاظه فى عشرات الروايات التى أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث ٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠، فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى).

وقد نشأت فرقة الخوارج بعد قبول علي بن أبي طالب التحكيم بينه وبين معاوية بن أبى سفيان، الذى رفض أن يبايع علياً، وأن يأخذ له بيعة أهل الشام، إلا بعد أن يقتص علي بن أبى طالب من قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه أو يأذن لمعاوية بطلبهم والاقتصاص منهم. وكان ذلك مجرد احتيال من معاوية للخروج من مبايعة علي؛ إذ وجد الفرصة سانحة للانقضاض على سلطة الخلافة (سدة الحكم) وتحقيق الحلم القديم لبنى أمية فى السيادة على العرب، وانتزاعها من بنى هاشم، وهو حلم يعود إلى عصر الجاهلية قبل الإسلام، حيث دار الصراع والتنافس على السيادة بين بنى هاشم وبنى أمية. وقد دارت بين الطائفتين - طائفة علي بن أبى طالب وطائفة معاوية بن أبى سفيان - معركة طاحنة، استمر القتال فيها بضعة أشهر. ثم رجحت كفة علي بن أبى طالب رضي الله عنه الذى أوشك أن يسحق جيش معاوية. وهنا تفتق دهاء عمرو بن العاص

-وكان مع معاوية- عن حيلة بارعة، استغل فيها تدين جنود على وطية قلوبهم، فنصح جيش معاوية بأن يرفعوا على أسنة الرماح أوراقاً من المصاحف التي كتب عليها القرآن الكريم، وأن يصيحوا بأعلى أصواتهم مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله، والصلح بين الطائفتين المتقاتلين حقناً لدماء المسلمين، إلى كتاب الله، يا عباد الله، الصلح بين المسلمين حقناً لدمائهم، لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.

وابتلع جنود على الطُّعم وانطلت عليهم الحيلة، فكفوا عن القتال خوفاً من الوقوع في معصية الله. وضرب الخلاف صفوف على بين مرید للقتال وراغب في الصلح حقناً لدماء المسلمين، ففرقت الكلمة، وتشتت الجمع. ورأى على بن أبى طالب أن مصلحة الأمة في إيقاف القتال والبحث عن الصلح، فكتب إلى معاوية بقبول التحكيم. ورجع كل جيش إلى بلده، جيش معاوية إلى الشام، وجيش علي إلى العراق. هذا ما انتهت إليه موقعة صفين عام ٣٧ هجرى في آخر زمان خلافة علي وقبل قتله بثلاث سنوات.

وهنا ظهرت فرقة الخوارج الذين رفضوا التحكيم، ورأوا أن علياً قد أخطأ بل قد كفر بقبوله التحكيم؛ لأنه بزعمهم قد انسلخ من قميص ألبسه الله له وهو الخلافة، وأنه قد حكّم الرجال في دين الله. (ويتضح من ذلك أنهم يتوهمون أن الحاكم (الخليفة) يستمد سلطته أعنى شرعية حكمه بأمر من الله، وليس باختيار الناس له. ومن ثم فبدعوى تحكيم شرع الله، أو تحت شعار تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية يريد الطامعون في السلطة الانقضاض والوثوب على سدة الحكم، زاعمين أنهم يستمدون شرعيتهم من الله وليس اختيار الناس لهم. وههنا تكمن خطيئة رافعى الشعارات الإسلامية ومأساة التاريخ الإسلامى).

واجتمعوا في قرية بجنوب العراق اسمها حروراء، قرية من الكوفة: مركز حكم على بن أبى طالب- فأخذوا اسم الحرورية -، وكانوا معروفين بكثرة التعبد (الصلاة والصيام)، وقراءة القرآن، فأخذوا اسم القرائين، وكانوا من الزهاد، الذين يلبسون

البرانس فأطلق عليهم اسم أصحاب البرانس وكان من زعمائهم عبد الله بن الكواء
اليشكري، وعبد الله بن وهب الراسبي، وزيد بن حصن الطائي، وحر قوص بن زهير
والد عبد الله الذي اعترض على قسمة رسول الله ﷺ لغنائم حنين بمنطقة الجعرانة
والذي أوردنا حديثه آنفاً.

وأرسل على بن أبي طالب ﷺ إليهم عبد الله بن عباس ﷺ لينظرهم ويمجادهم
ليثبت لهم بالدليل خطأهم. وبالفعل استطاع ابن عباس أن يفحهم في المناظرة،
فتراجع أغلبهم، أو بالأحرى تظاهروا بالمراجعة، ورجعوا معه إلى الكوفة وأظهروا
الدخول في طاعة على بن أبي طالب أمير المؤمنين. وكان رأى ابن عباس ﷺ فيهم إنهم
يذهبون إلى آيات القرآن الكريم التي تتناول الكافرين، فينزلون حكمها على المؤمنين
ويسيتون فهمها، فيؤولونها على غير وجهها.

وأرسل على بن أبي طالب إلى من بقى منهم بحروراء أن يرجعوا إليه ويدخلوا
في طاعته، كما دخل الناس فأبوا. فأرسل إليهم "كونوا حيث شيءتم، وبيننا وبينكم أن
لا تسفكوا دمًا حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا أحداً، فإن فعلتم نبذت إليكم
الحرب" فإذا كان لنا في الخلفاء الراشدين المهديين أسوة حسنة - كما أمرنا رسول الله
ﷺ - فإن هذا العمل من على بن أبي طالب ﷺ يبين لنا مشروعية قيام حزب سياسى
يعارض الحكم بل الخليفة الراشد، بل يكفره، مادام لا ينتهك حقوق وحرمات الناس
"لا تسفكوا دمًا حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً"، ونرجو من القارئ أن
يطالع كتابنا «شرعية الأحزاب السياسية في القرآن والسنة».

ولكن الذين رجعوا إلى الكوفة، وأظهروا طاعتهم لعلى بن أبي طالب، وجدوا
غضاضة كبيرة في أنفسهم عندما سألهم الناس عن سبب خروجهم على أمير المؤمنين،
ثم سبب رجوعهم إلى طاعته. كان كبيراً عليهم أن يعترفوا بخطئهم، ورجوعهم إلى
الحق بعد ما تبين لهم. ولذلك أشاعوا في الناس أنهم لم يرجعوا إلى على بن أبي طالب إلا

بعد أن ندم وتاب من خطيئة قبول التحكيم وعاد إلى الإسلام بعد أن كان كفر!! وقد رجعنا إليه؛ لأنه عاد إلى الإسلام وندم على قبول التحكيم فإن قبل القضية قاتلناه وإن نقضها قاتلناه معه!!

كان الاعتراف بالخطأ يحط من شأنهم ووجهتهم عند الناس. وعندما بلغ علياً ما يقولونه ويروجونه في الناس، قام خطيباً على المنبر، ودعا بمصحف كبير بالغ الفخامة، فرفعه أمام أعين الناس، وأخذ يهزه ويضربه بيده، وهو يقول: أيها المصحف حدث الناس، أيها المصحف احكم بين الناس!! وتعجب من حضر بالمسجد، وقالوا ماذا؟ إنسان؟ إنما هو مداد وورق، ونحن نتكلم بما رويانا منه. فانطلق صوت علي بن أبي طالب من فوق المنبر، قائلاً: كتاب الله بيني وبين هؤلاء. يقول الله في امرأة واحد: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] وأمة محمد أعظم من امرأة رجل. يقصد ﷺ إذا كان الله قد أمر بالتحكيم بين رجل وامرأة متزوجين، خوفاً من حدوث شقاق يسبب الطلاق والفراق وهدم بيت من بيوت المسلمين، فكيف لا نقبل التحكيم بباعث الخشية من تفرق أمر أمة محمد ﷺ الذي أصبح وشيكاً بل أمراً مقضياً بعد وقوع النزاع والافتتال.

وواصل علي بن أبي طالب ﷺ حديثه قائلاً: ونقموا على أن كاتب معاوية وقد كاتب رسول الله سهيل بن عمرو والله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

يُذكر علي بن أبي طالب الناس بصلح (هدنة) الحديبية الذي أبرمه ووقعه رسول الله ﷺ مع سهيل بن عمرو رسول كفار قريش والمتحدث باسمهم، عندما رفضوا دخول رسول الله مكة في العام السادس بعد الهجرة، وطلبوا منه الرجوع دون أن يتمكن من زيارة الكعبة، وعقدوا معه اتفاقاً يقضي بقيام هدنة لمدة عشر سنوات، وأن يرجع هذا العام على أن يعود في العام القادم ويأذنوا له بدخول مكة لمدة ثلاثة أيام فقط.

كان على بن أبي طالب عليه السلام كاتب ذلك الصلح وعندما أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم صيغة الصلح (الاتفاق) قائلاً: "هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو" رفض سهيل هذا اللقب وقال: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما منعناك من حج البيت. اكتب هذا ما عاهد عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل: امح رسول الله واكتب هذا ما عاهد عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو" ووجد على بن أبي طالب غضاظة كبيرة في نفسه أن يمحو وصف رسول الله. فقال رسول الله: أرني موضعها، يعني موضع الكلمة "رسول الله" فمحاها بنفسه، وقال لعل: ستُجزى بمثلها.

وتحققت النبوة عندما تمت كتابة اتفاق التحكيم بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان إذ رفض مندوب معاوية أن يوصف على بلقب أمير المؤمنين، وقال: لو نعلم أنك أمير المؤمنين ما قاتلناك. واضطر على بن أبي طالب عليه السلام أن يتنازل عن لقبه أمير المؤمنين رغبة منه في إبرام الاتفاق حقناً لدماء المسلمين.

* * * * *

واجتمع الخوارج في مسجد الكوفة واتفقوا أن يتنادوا من جنبات المسجد بأصوات عالية هاتفين "إن الحكم إلا لله" بينما كان على بن أبي طالب يخطب من فوق المنبر، في حركة تذكرنا بما يفعله أصحاب الشعارات الإسلامية في المساجد في زمننا. فقال على بن أبي طالب: كلمة حق يُراد بها باطل.

ثم خاطبهم: لكم علينا أن لا نمنعكم من المساجد، ولا من رزقكم من الفئء (نصيبكم من الغنائم) ولا نبذوكم بقتال ما لم تحدثوا فساداً وتسفكوا دماً.

ووجدوا أنهم لا يستطيعون البقاء في الكوفة - مركز حكم (عاصمة) على بن أبي طالب - بعد أن فند حججهم وأبطل أدلتهم؛ فاستبان جهلهم بشريعة الله، وفقدوا

هيبتهم عند الناس الذين أصبحوا يستخفون بهم. فضلاً عن أن وجودهم في الكوفة يجعلهم صيداً سهلاً في متناول يد علي بن أبي طالب إن أراد البطش بهم.

فخرجوا من الكوفة.. وتجمعوا واحتشدوا في المدائن، التي كانت عاصمة فارس (الإمبراطورية الساسانية). وبدأوا يسيطرون سلطانهم على الأرض ويخضعون الناس لحكمهم.

وواصل علي بن أبي طالب بعث الرسل إليهم، يطلب منهم الرجوع إلى سلطانه والدخول فيما يدخل فيه الناس. ولكنهم أبوا، بل بدأوا يوسعون نطاق حكمهم في جنوب العراق مقتربين من الكوفة عاصمة علي بن أبي طالب. وازدادوا بطشاً وبغيّاً، فأعلنوا كفر كل من لا يؤمن بمعتقدهم. بل بدأوا يستعرضون الناس في الطرق، يوقفونهم، ويسألونهم عن اعتقادهم، فإن وافقوهم خلوا سبيلهم، وإن خالفوهم، قتلوهم أو سجنوهم واستولوا على ممتلكاتهم وانتهكوا حرمتهم. فطفق الناس يفرون من بطشهم.

وكان عبدالله بن خباب بن الأرت عاملاً (والياً) لعلی بن أبي طالب على قرية بجنوب العراق. فلما رأى الخوارج (الحرورية) يقتربون من نطاق ولايته، والناس يفرون منهم مفزوعين، حاول الفرار ولم يكن معه إلا جارية له، تحمل في رحمها جنيناً.

فأوقفه جماعة منهم، وقال زعيمهم: من أنت؟

قال: عبدالله بن خباب بن الأرت.

فقالوا له: أنت ابن خباب صاحب رسول الله؟

قال: نعم.

قالوا: فحدثنا حديثاً لرسول الله عن أبيك.

قال: قال رسول الله: "تكون فتنة، فإن استطعت أن تكون عبدالله المقتول فكن، ولا تكن عبدالله القاتل."

وأحسَّ عبدالله بن خباب وهو ينطق بالحديث أن رسول الله ﷺ يخاطبه من وراء ستار الموت يدعوه للاستسلام للقدر الإلهي، فأذعن في سره للأمر.

وجاء صوت زعيم العصاة: إذن فكن عبدالله المقتول.

وقال لجنوده: خذوه فاضربوا عنقه.

وإذا برجل منهم يقترب، وفي يده ثمرة أخذها من بستان قريب لرجل من أهل الكتاب، فوضعها في فمه.

فقال له أصحابه: ثمرة معاهد.. فيم استحللتها؟!

فأصاب الذهول عبدالله بن خباب فصاح فيهم: أنا أعظم حرمة من هذه الثمرة.

فضربه أحدهم على فمه ليسكته، فأسال دمه، بينما كان صوت قائدهم يصيح فيهم: خذوه فاضربوا عنقه، وشقوا بطن جاريته لنرى ما في رحمها. ففعلوا ما أمروا به.

* * * * *

وذاع نبأ هذه الجريمة البشعة، وبلغ النبأ علماً، فتذمر أصحابه وطالبوه بقتلهم، وتساءلوا غاضبين يملأ الغيظ صدورهم عن سر صبره عليهم، رغم كثرة حديثه عنهم بأنهم المقصودون بحديث رسول الله ﷺ الذي قال له فيه:

كيف أنت، وقوم يخرجون بعدى في آخر الزمان من قبل المشرق أشداء أهداء، حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، سيماهم التحليق، ذلقة ألسنتهم بالقرآن، يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم يحسبون أنه لهم وهو عليهم. يقولون من قول خير البرية. ليست صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، ولا قرأتكم إلى قراءتهم بشيء، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه أبداً.

فإذا خرجوا فاقتلوهم أينما لقيتموهم؛ فإن قتالهم حق على كل مسلم. وإن في قتلهم أجراً عظيماً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة. من قتلهم فله أجر شهيد، ومن قتلوه فله أجر شهيد.

لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم لنكّلوا عن العمل.... وآيتهم أن فيهم رجلاً له عضد، ليس فيه ذراع. على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض، مجدع اليد، كأن يده ثدى امرأة حبشية.

إنهم من أبغض خلق الله إليه. شر الخلق والخليقة. شر الخلق والخليقة. شر الخلق والخليقة، إنهم شرار أمتى يقتلهم خيار أمتى، إنهم شر قتلى أقتلهم الأرض وأظلتهم الساء.

كان على بن أبي طالب يحدث أنصاره بهذا الحديث ويقول عن هؤلاء القوم: " يقولون كلمة الحق لا تجاوز هذا منهم " ويشير إلى حلقة، ويقول لأنصاره: لولا أن تبطروا لحدثكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد".

وكان كلما رأى حركة الخوارج وما يقومون به من فظائع يقول "صدق الله وبلغ رسوله" فيسأله أصحابه عن سر قوله، فيحدثهم بحديث رسول الله عن هؤلاء القوم. فلما وقعت فاجعة عبدالله بن خباب بن الأرت وجاريتها، أرسل على بن أبي طالب إليهم: " أفيدونا بقاتل عبدالله "

فأرسلوا إليه: كلنا قتله!!

فاتخذ على بن أبي طالب عليه السلام قراره الحاسم الذي غير مسار تاريخ المسلمين إلى الأبد. قرر أن يرسل إليهم الجيش الذي كان قد أعدّه وجهزه لقتال معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام.

وكان هذا القرار مثيراً لفتنة كبيرة في صفوف أنصاره. إذ تساءلوا مرة بعد أخرى،

كيف نقاتل قوماً يقولون لا إله إلا الله محمداً رسول الله ويسيرون الصلاة ويقرأ القرآن؟! ولماذا قرر أن يقاتلهم الآن بعد أن كان يرفض قتالهم؟! وهل هذا الحديث الذى يكرره عنهم قد قاله رسول الله حقاً؟ أم أن علياً يقول له لتبرير أمره بالقتال وإثارة حميتنا لقتالهم؟ هل تحدث رسول الله ﷺ بهذا الحديث حقاً أم أنه مجرد رأى لعل بن أبى طالب؟

فاضطر ﷺ أن يقوم فيهم خطيباً ليقول لهم: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً، فوالله لأن آخر من السماء إلى الأرض فتخطفنى الطير أو تهوى بى الريح فى مكان سحيق أحب إلى من أن أكذب عليه. ما سمعتمونى أحدثكم عن رسول الله فحدثوا به. وما سمعتمونى أحدثكم فى غير ذلك فيما بينى وبينكم، فإنما الحرب خدعة. وحدثهم حديث رسول الله عن الخوارج، فقام إليه عبيدة بن عمرو معبراً عما يجول فى قلوبهم من شكوك فقال: يا أمير المؤمنين، الله الذى لا إله إلا هو لقد سمعت هذا الحديث من رسول الله.

فقال على: إى والله الذى لا إله إلا هو قد سمعته.

فقال عبيدة بن عمرو: أنت سمعته؟!

قال على: إى ورب الكعبة.

فأعاد السؤال واستحلفه ثلاث مرات، ليطرد الشك من قلوبهم.

*** **

ولكن بقى الشك، حتى وهم يستعدون ويتجهزون للقتال. والجيش يزحف حتى وصل إلى شاطئ نهر دجلة عند منطقة النهروان، وصار على وجنوده بحذاء الخوارج على الشاطئ الآخر.

وأخذ على يبعث إليهم بالرسل لعلهم يرجعون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم ولكنهم أبوا إلا القتال.

يقول جندب بن عبدالله البجلي، وكان من جنود على بن أبي طالب: انتهينا إلى معسكرهم، فإذا فيهم أصحاب البرانس (الذين كانوا معروفين بالزهد والعبادة وكثرة تلاوة القرآن) وإذا لهم دوى كدوى النحل من قراءة القرآن. فدخلني من ذلك شدة. فنزلت عن فرسي وقمت أصلى. فقلت: اللهم إن كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فأذن لي فيه.

وإذا بعلى بن أبي طالب يمر بى. فلما حاذانى قال: تعوذ بالله من الشك يا جندب. فقامت إليه واقتربت منه. وإذا برجل يقبل علينا على بردون (دابة تشبه البغل أو الحمار) ويصيح مذعوراً وهو يلهث من الفزع مخاطباً على بن أبي طالب: إن كان لك بالقوم حاجة....

فإنهم قد قطعوا النهر... يريد أن يستحثه ويستعجله لبدء القتال.

فقال على في ثقة ويقين: ما قطعوه.

ثم جاء آخر على نفس الحال من الفزع وكرر ما قال الأول.

ثم جاء ثالث وأعاد القول.

فقال على: لا. ما قطعوه ولا يقطعونه. وليقتلن من دونه. عهد من الله ورسوله.

فلم يملك جندب نفسه وصاح: الله أكبر.

ثم ركب جندب فرسه وسار مع على إلى معسكر المسلمين فقال له على: سأبعث إليهم رجلاً يقرأ عليهم القرآن من مصحف يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فلا يقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبل. ولا يُقتل منا عشرة، ولا ينجو منهم عشرة. عهد من الله ورسوله.

ووصل علي إلى معسكر جنوده، فأشرف على استعداد جيشه. وأرسل إليهم رجلاً يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه.

فلما غادرهم رشقوه بالنبل وهو عائد إلى معسكر علي، فسقط قتيلاً.

فقال علي لجنوده: والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم الذين حدثنى رسول الله عنهم. فإنهم قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا في سرح الناس.

وأعطى على إشارة البدء بالقتال قائلاً: دونكم القوم ارموهم بالرماح، وسلوا سيوفكم من جفونها؛ فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء.

وانطلق جنود علي بن أبى طالب يرمون الأعداء بالرماح والنبال وهجموا عليهم بالسيوف كرجل واحد، فأردوهم قتلى، بعضهم على بعض. وكان عدد الخوارج يوم النهروان حوالى أربعة آلاف مقاتل وقائدهم عبدالله بن وهب الراسبى.

انسحق جنود الخوارج تحت وطأة هزيمة ثقيلة؛ فلم ينج منهم إلا تسعة رجال، سيكونون الأصل الذى ستنمو منه شجرتهم الخبيثة عبر الأجيال كما قال رسول الله ﷺ: " ينشؤ نشو يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج منهم قرن قطع، حتى يخرج فى أعراضهم المسيح الدجال".

(الحديث رقم ٨١٧١ فى كتاب " صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير" من إعداد الأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى. وهو جزء من حديث رسول الله ﷺ عن الخوارج قاله يوم تقسيم غنائم حنين بمنطقة الجعرانة فى شهر ذى القعدة سنة ٨هـ).

ومن أولئك الناجين ومن انضم إليهم سيخرج عبدالرحمن بن ملجم الذى سيغتال على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو ساجد بمسجد الكوفة، فى صلاة الفجر بعد ما يقرب من عامين.

ولم يقتل من جنود علي بن أبى طالب يوم النهروان سوى تسعة شهداء، وتحققت نبوءة وبشرى نبي الله ﷺ لعلى بن أبى طالب بالنصر الحاسم على الخوارج؛ أهل التنطع فى الدين.

ولا شك في أن فتنة المتنطعين المتاجرين بالدين، الذين يبحثون عن السلطة الدنيوية باسم الله وتحقيق شريعته... لا شك في أنها من أشد الفتن التي تتعرض لها قلوب الناس. ولذلك بقى بعض الشك في قلوب أصحاب على بن أبى طالب عليه السلام حتى بعد تحقق النبوة والبشرى التي أعلنها قبل القتال بالنصر الحاسم. ولذلك طلب من جنوده أن يبحثوا وسط القتلى عن "نافع ذى الثدية" الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتبر أن وجوده مع قوم دليل على أنهم المقصودون بحديثه عن الذين "يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية ولا يعودون فيه أبداً". قال لهم: التمسوا فيهم المخرج (مبتور اليد) اطلبوا ذا الثدية الذى قال رسول الله أنه آيتهم.

فذهب بعض أصحابه يفتشون وسط أكوام القتلى فلم يجدوه. فرجعوا إليه فقالوا: لم نجده.

فقال لهم: ارجعوا فالتمسوه، فوالله ما كذبت، ولا كُذبت والله ما كذبت ولا كُذبت، والله ما كذبت ولا كُذبت.

فرجعوا يبحثون عن الآية. فلما تأخروا قام على بن أبى طالب بنفسه ومعه بعض أصحابه ليفتش عنه.

ورأوا كومة من القتلى بعضهم فوق بعض فى خربة، على شفير النهر، أرضها يغطيها الطين. فقال لأصحابه: أخروهم.

فأخذوا يزيحون القتلى حتى ظهر نافع ذو الثدية أسفلهم مما يلي الأرض، فأخرجوه وأخذوا يجرون جثته حتى وضعوه بين يدي على بن أبى طالب. فصاح: الله أكبر. صدق الله وبلغ رسوله.

يقول أبو سعيد الخدرى بعد أن يروى حديث رسول الله عن الخوارج: أشهد أنى سمعت هذا الحديث من النبى، وأشهد أن علي بن أبى طالب قاتلهم وحضرت معه يوم قتلهم بالنهر وان، فجئى بالرجل (نافع ذى الثدية، آية الخوارج) على النعت الذى نعت النبى صلى الله عليه وسلم.

(ج) الحديث الثالث:

كان رسول الله ﷺ في مطلع العام العاشر بعد الهجرة قد أرسل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ومعاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن؛ ليعلموا من آمن من أهلها عقيدة الإسلام وشريعته. ولكن اليمن كانت بلدًا متعدد الأديان، فكان فيها الوثنيون، والمسيحيون، واليهود، والمجوس. كما كانت لمئات السنين ميداناً للصراع المحتدم بين الفرس (الإمبراطورية الساسانية) والروم (الإمبراطورية البيزنطية)، وقد اجتهدت كل من الإمبراطوريتين في نشر دينها في القبائل العربية، واستطاعت كل واحدة منهما أن تجتذب بعض القبائل والجماعات بالأموال والهدايا للزعماء، فضلاً عن الانضمام إلى الدين. ولذلك تعاقب على حكم اليمن الملوك والأمراء المواليون والخاضعون لنفوذ إحدى الدولتين.

ويوضح تلك الحقيقة التاريخية، أن اليمن كانت عند ميلاد النبي محمد ﷺ تحت حكم الملك الحبشي «أبرهة»، الذي كان بمثابة نائب لملك الحبشة (مملكة إكسوم) ويخضع للسيادة والنفوذ البيزنطي. ولكن عند بزوغ نجم رسول الله ﷺ وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، كانت اليمن تخضع للسيادة الفارسية ويحكمها - ولو إسمًا - الملك باذان، نائباً عن كسرى.

ولذلك تعرض المسلمون في أرض اليمن لمضايقات كثيرة من جانب المواليين لكل من الإمبراطوريتين على السواء. وكان هذا هو السبب الذي من أجله بعث رسول الله ﷺ بخالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس جيش إلى اليمن، ليكون درعاً يحمي المسلمين من الاعتداءات المتكررة. واستمرت تلك المناوشات العسكرية ما يقرب من ستة أشهر. وأظهرت بعض القبائل العربية كثيراً من الخيانات ونقض العهود. فبعد أن تعقد صلحاً، يُباغت خالد بن الوليد رضي الله عنه ببعض الحركات المريبة والاستعدادات للقتال. واستمر الحال على هذا المنوال زهاء ستة أشهر، فشرع خالد بن الوليد رضي الله عنه وكثير من

جنوده بالضيق والضجر من البقاء في هذه البلاد المتقلبة.

فأرسل رسول الله ﷺ على بن أبي طالب رضي الله عنه على رأس جيش إلى اليمن وحمله رسالة إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، مفادها: ارجع إلى المدينة وليرجع معك من الجنود من أراد مغادرة اليمن، ومن أراد البقاء فليبق مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي أمره رسول الله ﷺ بقبض خمس الغنائم، وليس لها مع خالد بن الوليد.

وبالفعل عاد خالد بن الوليد رضي الله عنه على رأس من أحب الرجوع للمدينة، ومعه خمس الغنائم، في «شوال من السنة العاشرة بعد الهجرة»، وكان رسول الله ﷺ يهيئ نفسه ويتجهز لحجة الوداع ويستعد لمغادرة الدنيا.

وكان من ضمن الخمس (نصيب رسول الله من الغنائم) ذهبية (قطعة ذهب) في أديم (جلد) مقروظ (مدبوغ بالقرظ). والقرظ نبات يزرع في اليمن وكان يستعمل في دبغ الجلود.

كانت تلك الذهبية كتلة من خام الذهب (التبر) ولذلك قيل في وصفها: لم تحصل من ترابها.

وأخذ رسول الله ﷺ يقسم ما جاء من الغنائم على من حضر من الناس، الذين طفقوا يسارعون الخطي ويتنافسون ليظفر كل واحد منهم بنصيب من خمس رسول الله ﷺ.

ولم يبق من الغنائم شيء، إلا تلك الذهبية، فرأى رسول الله ﷺ أن يقسمها على أربعة من رؤساء أقوامهم. فقسمها بين:

عيينة بن حصن؛ زعيم بني فزارة

والأقرع بن حابس؛ أحد رؤساء بني تميم.

وزيد الخليل بن مهلهل الطائي، وكان قد وفد على النبي ﷺ على رأس وفد طيء

قبل أقل من سنة وسماه رسول الله ﷺ "زيد الخير".

وعلقمة بن علاثة الذى كان يتنافس ويتنازع الرياسة على بنى عامر مع عامر بن الطفيل.

وسمع عبدالله بن ذى الخويصرة التميمي نبأ قسمة الغنائم فحث خطاه، ممناً نفسه أن يظفر بشيء منها. وتكرر ما حدث قبل عامين. إذ وجد رسول الله قد فرغ من قسمة الغنائم كلها ولم يبق له شيء "ها هو يظلمك مرة أخرى يا عبدالله" ولم يملك نفسه من الغيظ والغضب، فارتفع صوته الغليظ وهو يقول: يا محمد اتق الله!

وغضب رسول الله حتى احمرَّ وجهه، وأمعن النظر إلى رأس الرجل المحلوقة، ولحيته الكثثة الشعثاء، تحيط بوجهه الأسود وعلامة ضخمة بارزة - تتوسط جبهته - أثراً واضحاً لكثرة السجود. لكن عينيه الغائرتين بين وجنتيه البارزتين وجبينيه النائتين، تفيضان بالسخط والنفور والتحدي. يقوم بقامته المديدة، مشمراً إزاره، مُستفزاً، ينتفض جسده.

وتمالك رسول الله نفسه. وقال له موبخاً: ويلك، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله؟! من يطع الله إذا عصيته وأنا رسول الله؟!!!

وفزع عبدالله من سهام الغضب التي تصوب نحوه من عيون أصحاب رسول الله، وانطلق صوت خالد بن الوليد يقول: يا رسول الله، دعنى أضرب عنقه. ألا أضرب عنقه؟!!!

وتذكر ابن ذى الخويصرة ما وقع له منذ عامين بالجعرانة، حين أمسك به عمر بن الخطاب، ووضع السيف على رقبته، طالباً الإذن بقتله.

وجاء صوت رسول الله: لا دعه، لعله أن يكون يصلي.

وأطلق ابن ذى الخويصرة ساقيه، فاراً بحياته، بينما كان خالد بن الوليد يقول

لرسول الله كالمعاتب: وكم من مصلٍ، يقول بلسانه ما ليس في قلبه. تكلم وهو يتذكر كم عانى من خيانات وأكاذيب في أرض اليمن.

وجاء صوت رسول الله محذراً من البحث في نوايا الناس المستودعة في القلوب (البواطن) وقد وشى صوته بالغضب: إنى لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم.

وأطال رسول الله النظر إلى ظهر ابن ذى الخويرة، وهو يولى هارباً حتى ابتعد واختفى.

ثم قال: إن من ضئضى هذا، يخرج قوم يقولون مثل قوله من قبل المشرق - وأشار بيده إلى جهة الشرق (العراق) - محلقة رؤوسهم يقرأون القرآن، كأحسن ما يقرأه الناس، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية. يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان. لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وشمود. هم شر البرية وقتلهم حق على كل مسلم".

جمعنا في هذا السياق مختلف الروايات التى أوردها أو أشار إليها ابن حجر في شرحه الأحاديث: ٣٣٤٤/٤٣٥١/٤٦٦٧/٧٤٣٢ فى كتابه «فتح البارى بشرح صحيح البخارى».

وقوله: "إن من ضئضى هذا" لا يعنى كما توهم أغلب المفسرين أن ابن ذى الخويرة التميمى هو والد الطائفة التى اخذت فى التاريخ اسم الخوارج، فهو ليس أبوهم الجسدي الذى خرجوا من صلبه، بل المقصود: أنه على شاكلة ابن ذى الخويرة التميمي، أعني على طريقته من التدين الفاسد أو على ملته سيخرج أقوام " يقولون مثل قوله". فالخوارج ليسوا ذرية ابن ذى الخويرة بل هم على ملته، بالضبط كما أننا - نحن المسلمين المؤمنين - أبناء "أبينا إبراهيم" فإنه - عليه الصلاة والسلام - ليس أبانا

الجسدى، فإننا لم نولد من صلبه، بل هو أبونا الروحي؛ لأننا - إن كنا صادقين - على ملته ﴿وَلِلَّهِ آيَاتُكُمْ يُزَيِّمُ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]. كما أن الكافرين ينظر إليهم باعتبارهم أبناء إبليس.

وعلينا هنا أن ننبه العقول إلى أن أصحاب الحديث النبوي كما جاءت به رواياتهم قد اختلط عليهم شخص عبدالله بن ذى الخويصرة التميمي، فمرة يقولون "ذا الخويصرة" وفي أخرى يقولون ابن ذى الخويصرة. كما أنهم خلطوا بينه وبين نافع ذى الثدية الذى عده رسول الله ﷺ "آية الخوارج" بمعنى أن وجوده وقتاله مع قوم يبرهن على أنهم المقصودون بوصف رسول الله ﷺ للقوم الذين "يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية". وقوله "لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود" بيان واضح الدلالة على أنهم سيخرجون بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأنه يجب قتالهم قتالاً شديداً لا هوادة فيه، بغية إبادتهم كما أباد الله ﷻ عاداً وثمود؛ فلم يبق منهم إلا أحاديث تروى فى كتب التاريخ. وقد قاتلهم علي بن أبي طالب قتالاً شديداً فى موقعة "النهران"، فلم ينج منهم سوى تسعة مقاتلين، كما ذكرنا آنفاً فى شرح الحديث الثانى.

والحكم بقتلهم (وقتلهم حق على كل مسلم) ليس كما توهم الفقهاء والمحدثين بسبب كفرهم وارتدادهم عن الإسلام؛ بل بسبب خروجهم على السلطة الشرعية بتمرد مسلح، سفكوا فيه الدم الحرام وانتهكوا الحرمات التى أمر الله بحفظها واحترامها. فقطعوا الطرق، ونهبوا الأموال، ودمروا الممتلكات العامة والخاصة وسفكوا الدماء.

ولذلك نهى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قتل عبدالله بن ذى الخويصرة بالجعرانة عند قسمة غنائم يوم حنين فى ذى القعدة سنة ٨ هـ - كما بينا فى الحديث الأول - ونهى خالد بن الوليد رضى الله عنه عن قتله فى شوال سنة ١٠ هـ كما بينا هنا فى الحديث الثالث؛ لأن الخوارج لم يكونوا قد خرجوا بعد، وليس من شريعة الله ﷻ فى

شيء حساب الناس على نواياهم وما استودع في قلوبهم؛ لأن الحساب على ذلك متروك لله ﷻ يوم القيامة «حَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» كما قال ﷺ في حديث " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " .

وأثار قسم الذهبية على الأربعة نفر غيظ وغضب بعض المهاجرين والانصار وقالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا. وقال رجل من أصحاب النبي: كنا نحن أحق بهذا المال منهم.

فلما أبلغ رسول الله بمقالمهم وعلم حالهم، خرج إليهم وجمعهم في المسجد بعد الصلاة. فقام فيهما خطيباً، وقد أفصح صوته عن الغضب البادي على وجهه. فقال موضعاً سبب إعطائه هؤلاء نفر من الرؤساء، ومعاتباً أصحابه على إساءة الظن به؛ لأنهم عندما يظنون أنه يجامل في قسم الغنائم حتى وإن كانت من الخمس الذي هو نصيبه الخاص بموجب حكم القرآن، فإنهم بذلك الظن يتهمون به بخيانة الأمانة باعتباره حاكماً مأموراً بالعدل ومراعاة صالح الأمة عند تقسيم الثروة:

" إنما أتالفهم "

أيأمننى الله على أهل الأرض ولا تأمنونى؟

ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء؟

يأتينى خبرها فى الصباح والمساء؟

قوله: أيأمننى الله على أهل الأرض معناه أنه ﷺ خليفة (وكيل او نائب) لله ليحكم على أهل الأرض بالعدل، فإذا جامل أحداً - كما ظنوا - فقد ظلم وخان الأمانة التى حملها الله ﷻ له.

(٣٨) انظر نص القصيدة فى السيرة النبوية لابن هشام - الجزء الرابع ص ١٠٩ (طبعة كتاب التحرير - دار الشعب بالقاهرة عام ١٣٨٤ هـ) والبداية والنهاية لابن كثير

- الجزء الرابع ص ٣٥٨-٣٥٩ (طبعة دار الريان للتراث)، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد- الجزء الخامس ص ٥٨٠ (طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- وزارة الأوقاف بجمهورية مصر العربية - عام ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م)

يقول الشاعر: إن الإبل والشاة التي أحضرتها هوازن إلى أرض المعركة كانت متاحة له ويستطيع بكل يسر أن ينهبها، لكنه تجنبها (تلافها) وانشغل بالهجوم (الكر) على الأعداء فوق فرسه على الأرض السهلة اللينة التي لا يثبت عليها أحد، وهي المقصودة بلفظ الأجرع.

وأنه بهجومه على القوم منعهم أن يناموا ويستريحوا وأنه لم ينم عندما نام الناس. ولكنه بوغت وصدّم بأن ما كان يستطيع أن ينهبه من غنائم العدو مع فرسه (العبيد) قد قُسم على عينة بن حصن والأقرع بن حابس.

ذلك رغم أنه كان في الحرب صاحب الدفع والصد (ذو تدراً) لكنه لم يُعط شيئاً - ولم يكن أحد يستطيع أن يمنعه من أخذ ما يريد - إلا إبلاً صغيرة قليلة العدد (أفائل أو أفایل). كانت هي كل مكافأته على حسن قتاله وشجاعته. وقد فُضل عليه عينة بن حصن والأقرع بن حابس، رغم أن حصناً وحابساً لا يفوقان أباه مرداس وليس واحد منهما يسمو فوقه. وينهى القصيدة بعتاب ولوم لرسول الله الذي إذا لم يرفع مكانة إنسان، فإنه لا يستطيع أن يرتفع في الناس بل يبقى ذليلاً قليل الشأن.

(٣٩) انظر نفس المصادر.

(٤٠) جمعنا هذه القصة من مختلف الروايات التي أوردها أو أشار إليها ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٣١٥٠، ٣٤٠٥، ٤٣٣٥، ٤٣٣٦، ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩١، ٦٣٣٦.

ويشير رسول الله ﷺ في هذا الحديث إلى إيذاء بنى إسرائيل لموسى عليه السلام عندما اتهموه بالزنا مع إحدى البغايا، التي أعطاهم قارون بعض المال لتتهم موسى بالزنا معها.

فإذا كان بنو إسرائيل قد اتهموا رسولهم بالزنا، ففي ذلك مواساة وتعزية للنبي محمد ﷺ الذي اتهمه المنافقون بالظلم في القسمة فالزنا خطيئة أكبر من مجافاة العدل في قسمة الغنائم.

(٤١) جمعنا في هذا السياق مختلف الروايات التي أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه الأحاديث: ١٥٣٦، ١٧٨٩، ٤٣٢٩ في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

ويتضح من السياق أن العرب كانوا يعرفون مناسك الحج، ومحظورات الإحرام. ولكنهم كانوا يتساهلون في هذه المحظورات عند أداء العمرة.

وهنا موضع سؤال الرجل: هل يجب مراعاة محظورات الإحرام عند أداء العمرة مثل الحج. وكانت إجابة رسول الله ﷺ نعم يجب الالتزام بمحظورات الإحرام عند أداء العمرة، شأنها في ذلك شأن الحج.

(٤٢) الآيتين ٥٨، ٥٩ من سورة التوبة.

"يلمرك": يُسَىء إليك بالقول، فيسبك إذ ينسب إليك ما لا يليق من الصفات المذمومة في غيابك، أو من وراء ظهرك. إذن فاللمز هو الغيبة.

(٤٣) وكان النعمان بن مقرن حامل لواء بني مزينة يوم الفتح، وقد استشهد في معركة نهاوند سنة ٢١هـ في فتح فارس. انظر ترجمة النعمان بن مقرن في أسد الغابة في معرفة الصحابة - الجزء الخامس: ص ١٦٢-١٦٣.

(٤٤) سياق يجمع مختلف الروايات التي أوردها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث رقم ٣٥٢٨، ٦٧٦١، ٦٧٦٢ في كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» والأحاديث: ٤٣، ٣١٥٦، ٦٦٣٧ في كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير» من إعداد الاستاذ/ محمد ناصر الدين الألباني.

(٤٥) نسجنا هذه القصة من مختلف الروايات التي أوردها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٣١٤٦، ٣١٤٧، ٣٥٢٨، ٣٧٧٨، ٣٧٧٩، ٤٣٣٠، ٤٣٣١، ٤٣٣٢، ٤٣٣٣، ٤٣٣٤، ٤٣٣٧، ٥٨٦٠، ٦٧٦١، ٦٧٦٢، ٧٢٤٤، ٧٢٤٥ في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري، والأحاديث رقم: ٢١٤٠، ٢٧٩١، ٧٩٧٠، ٧٩٧٢ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير من إعداد الأستاذ/ محمد ناصر الدين الألباني.

(٤٦) سياق يجمع نص الحديث النبوي الذي تمت به بيعة الأنصار مع رسول الله عند الجعرانة، في ذى القعدة من السنة الثامنة بعد قسم غنائم يوم حنين، والذي تناثرت أجزاءه في مختلف الروايات التي أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث رقم: ٦٩٣، ٣٧٩٧، ٧٠٥٥، ٧٠٥٦، ٧١٤٢، ٧١٩٩، ٧٢٠٠، ٧٤٤١.

ويمكن تسمية هذه البيعة "بيعة التنازل عن المطالبة بالحكم أو الخلافة التي رأى رسول الله ﷺ أن تتولاها قريش؛ تحقيقاً لمصلحة الأمة، في الفترة الزمنية (التاريخية) العصيبة التي ستعقب انتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ حرصاً على وحدة المسلمين وتجنباً لتمزق الأمة بالتنازع والصراع القبلي. فهو حكم "تاريخي مؤقت"، وليس تشريعاً دائماً، يصلح لكل زمان ومكان.

والمبايعة على "السمع" تعني الإقرار بشرعية الحاكم، وكف النفس عن منازعته في حقه في تولي الأمر (الحكم)، أو التشكيك فيه. ومن ثم يكون الإنسان (المواطن المحكوم) في مقام «السمع» منتظراً ما يُلقى عليه من أوامر (قرارات) الحاكم، مهيباً نفسه لقبولها.

وهو مقام يفضي به إلى وجوب طاعة الأمر النازل عليه من الحاكم. وهذه هي المبايعة على «الطاعة».

و«السمع والطاعة» لا يتوقفان على حال المحكوم من النشاط (الإقبال والحماسة) أو الكسل (التراخي والفتور)، أو كثرة المال (السعة) أو قلته (العسر). بل هما - السمع والطاعة - واجبان عليه في كل حال، وهما من حق الحاكم على المحكومين.

وقوله ﷺ للأَنْصار: "وألا تنازعوا الأمر أهله" معناه ألا تطالبوا بحقكم في تولي الحكم، أي لا تطمحوا إلى منصب الخلافة، التي سيعلم رسول الله - بعد الانتهاء من هذه البيعة - أنها من حق قريش. في الفترة الزمنية التي ستعقب وفاته ﷺ.

ولكن الكف عن المنازعة في الحكم، مشروط بحفظ الحاكم (ولى الأمر) لدين الله (الإسلام). فإن دعا الحاكم وأمر بما يخالف دين الإسلام واستغل سلطته في نشر الكفر، وأكره الناس على عبادته غير الله، سقط حقه في السمع والطاعة. ذلك معنى قوله ﷺ: "إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان" والمقصود: ألا يأمر الحاكم بعبادة غير الله، ويكره الناس - بموجب سلطته - على معصية الله. ههنا لا سمع ولا طاعة. ولذلك جاء بعدها مباشرة المبايعة على "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" والمعروف هو العدل والمنكر هو الظلم.

سُئِلَ رسول الله عن معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

فقال ﷺ: "إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقابه" (الحديث رقم ١٩٧٤ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير) فلما استوضحوا منه معنى المنكر، قال: إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه" (الحديث رقم ١٩٧٣ في نفس المصدر).

ففسر ﷺ المنكر بالظلم. ومن ثم فإن معنى المعروف: العدل. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معناه الدعوة والتعاون على تنفيذ العدل ومقاومة الظلم.

وتغيير المنكر يعني الأخذ على يد الظالم، والمقصود منع الظالم من إنفاذ ظلمه، أعنى الحيلولة بينه وبين ممارسة الظلم.

ويتحقق هذا بكراهية الظلم، أعنى النفور منه والامتناع عن مشاركة الظالم في ظلمه. وهذا هو الإنكار بالقلب، فهو إنكار صامت وهذه هي الدرجة الأولى من إنكار المنكر التي تحفظ الإيمان في القلب. وليس دونها حبة خردل من الإيمان كما قال رسول الله ﷺ، وهي الواجب على كل إنسان مؤمن.

والدرجة الثانية: الإنكار باللسان. ويعني إعلام الظالم، ومواجهته - بالكلام - بأنه يظلم. وهذا واجب العلماء.

والدرجة الثالثة: الإنكار باليد، أعنى بالعمل. المقصود التدخل الفعلي من أجل منع الظالم من ممارسة ظلمه. وهذا واجب على كل من له سلطة على منع الظلم. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وقوله ﷺ: "وأن تقولوا بالحق حيثما كنتم" معناه: وجوب إعلان الحق في أي مقام دون خوف من لوم اللائمين، الذين لا يحبون الحق. والحق يعني العلم والعدل. والذين لا يحبون العلم هم الجاهلون، والذين لا يحبون العدل هم الظالمون. قول الحق في مواجهة الجاهلين والظالمين من شعائر حب الله ﷻ.

قال الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذا تحذير لأمة العرب الذين شهدوا تنزل القرآن - وهم الجيل الأول من المسلمين (أمة محمد) - بأنهم إن خرجوا من الإسلام (دين الله) وتقاعسوا عن حمله ونشره؛ فإن الله سوف يبعث من الغيب قوماً آخرين يقومون بدينه، وهؤلاء القوم تتحقق فيهم الصفات الآتية:

- (١) يربطهم بربهم وثاق الحب (يحبهم ويحبونه).
 - (٢) يتواضعون لأخوتهم في الإيمان حتى درجة التذلل "أذلة على المؤمنين" ناظرين وموقرين أخوة الإيمان "الروحية".
 - (٣) لا يخضعون (لا يتذللون) لمن ينكرون نبوة محمد ﷺ الذي يربطهم بخالقهم، بل يغالبون من يحاول إخضاعهم (إذلالهم) من هؤلاء الكافرين (أعزة على الكافرين).
 - (٤) يبذلون جهدهم (أقصى ما في وسعهم) من أجل الإسلام (يجاهدون في سبيل الله) باللسان في ميدان دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام، وبالنفوس والمال في ميدان القتال دفاعاً عن المسلمين.
 - (٥) ولا يخافون في جهادهم لومة لائم من الجاهلين المعاندين الذين لا يحبون الحقيقة ويرفضون الإذعان للدلائل والبراهين، والظالمين الذين يكرهون العدل.
- ذلك الحب الإلهي الذي يثمر كل هذه الخصال الحسنة هو نعمة من الله (فضل الله) يهبها من يختار من عباده (يؤتيه من يشاء) والله واسع عليم.
- واسع: شمل عطاؤه كل شيء؛ فهو سخي العطاء يمنح دون أن يخشى نقص ما في خزائنه من الرحمة.
- عليم: يتبين حقيقة جميع الأشياء، إذ تكونت في نفسه صورة صحيحة كاملة لكل شيء، شاملة لجميع التفاصيل الدقيقة؛ فهو لا يعزب (لا يخرج عن علمه) ﴿مَثَقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].
- والكتاب المبين هو الصورة (النسخة) السماوية من اللوح المحفوظ، الذي سجل الله فيه علمه قبل خلق السموات والأرض. إذن، اللوح المحفوظ هو الصورة الأولى (النسخة الأصلية) من علم الله ﷻ؛ فهو المرآة التي يتجلى على صفحتها علم الله.

والكتاب المبين هو الصورة أو النسخة التي نزلت من اللوح المحفوظ إلى السماوات السبع حيث حملت كل سماء نصيبها من علم الله - عند إنشاء هذا الكون المشهود - في اليومين الخامس والسادس من أيام (أحقاب) الخلق.

وكل إنسان يحمل في قلبه (باطنه) نسخة من اللوح المحفوظ يخرج (يظهر) جزء منها بأعمال الإنسان في حياة الابتلاء على هذه الأرض.

وقوله ﷺ للأنصار: " إنكم ستلقون بعدي أثرة شديدة " معناه أنكم ستواجهون من الحكام الذين يتولون قيادة الأمة بعد وفاة النبي ﷺ ظمًا شديدًا بسبب إسراف الأمراء في جباية الأموال لأنفسهم وبطشهم بخصومهم المعارضين لهم، المنكرين عليهم جورهم.

وقد تحققت هذه النبوءة في أجلى صورة عندما هاجم جنود يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المدينة المنورة، فانتهكوا الحرمات وأكثروا فيها الفساد، فيم عُرف في التاريخ باسم "يوم الحرة".

وقد أوصى رسول الله ﷺ الأنصار بالصبر، وقد اعترف أنس بن مالك رضي الله عنه - وهو أحد الأنصار - أنهم لم يصبروا.

وقوله ﷺ: " موعدكم الحوض "، يعنى إنكم لن تظفروا بالانتصاف ونيل حقوقكم كاملة إلا عند البعث من القبور وشربكم من ماء الحوض الذى يمدّه نهر الكوثر في الجنة، عندما أعطى كل واحد منكم بيدي شربة لا يظمأ بعدها أبداً، ويتمكن من معاينة أهوال يوم القيامة سالماً من كل أذى، غانماً رحمة الله.

(٤٧) اختلطت هذه البيعة - التي عقدت بالجعرانة في «شهر ذى القعدة من العام الثامن بعد الهجرة» بعد قسمة غنائم يوم حنين - والتي أسميتها بيعة التنازل عن الحكم، مع البيعة الأخرى التي عقدها رسول الله ﷺ مع الأنصار عند العقبة بمنى،

قريباً من مكان رمى الجمرات. في «ليل اليوم الثاني من أيام التشريق (الثاني عشر من ذى الحجة) من العام الثاني عشر» بعد بدء نزول القرآن، والتي تعهد فيها الانصار بحماية الرسول ﷺ وأصحابه من المؤمنين عندما يهاجرون إليهم في يثرب، التي ستصير المدينة المنورة.

جاء رسول الله ﷺ مع عمه العباس بن عبدالمطلب وعدد قليل من أصحابه، إلى وفد الانصار، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

قال رسول الله: يا عماء خذلي من أخوالك.

يناشد في الأنصار بعد رابطة الإيمان صلة الرحم؛ إذ يذكرهم بأنهم أخواله؛ لأن أم جده عبدالمطلب هي "سلمى بنت عمرو" من بنى النجار، وهم إحدى قبائل يثرب المعروفين بالعزة والمنعة (القدرة على حماية من يستجير بهم).

فقال العباس بن عبدالمطلب: إن ابن أخي محمداً منا من حيث علمتم، وقد منعناه (حميناه)، وهو في عز أهله، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وذاك، وإلا فمن الآن.

ولم يرق هذا الخطاب للأنصار، خاصة أخواله بنى النجار؛ لما فيه من ادعاء بالوهم وتفاجر بغير حق، وثار في أفئدتهم السؤال: "لو كان محمد في منعة وعز؛ فما الذي اضطره إلى أن يترك موطنه وأهله، ويطلب الحماية في بلد آخر؟!"

فقال أبو أمامة أسعد بن زرارة، وهو نقيب بنى النجار، الذي استضاف مبعوث رسول الله: مصعب بن عمير لمدة عام كامل في بيته، عندما أرسله رسول الله ليدعو الناس إلى الإسلام، وليعلم المؤمنين دينهم، وهو الذي كان يؤم المسلمين في صلاة الجمعة: تكلم أنت يا رسول الله، فخذ لربك ولنفسك منا ما شئت، ثم أخبرنا مالنا من الثواب.

فقال رسول الله: أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤنوا، وتنصروننا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم.

قال أسعد بن زرارة: فما لنا؟

قال رسول الله: الجنة، وأسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم.

قال أسعد: لك ذلك.

وأراد رسول الله أن يجعل هذا الاتفاق عهداً موثقاً مسئلاً، فقال: أتبايعونني؟!

فأحسوا بالرهبة، فقالوا: علام يا رسول الله نبايعك؟

فقال رسول الله: تبايعونني على ألا تشرکوا بالله شيئاً

ولا تسرقوا

ولا تنتهبوا

ولا تزنوا

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق

ولا تقتلوا أولادكم

ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم

ولا تعصوني في معروف

فمن وفي منكم فأجره على الله وله الجنة.

ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا؛ فهو كفارة له وطهور. ومن غشي

من ذلك شيئاً، ثم ستره الله، فأمره إلى الله؛ إن شاء عفا عنه وغفر له. وإن شاء عذبه.

وسكت لحظات. ثم جاء صوته قوياً قاطعاً: أتبايعونني؟

فتعالت أصواتهم مجيبين النداء: نبايعك يا رسول الله.

فقال رسول الله: أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً. مستحضراً قول الله في الآية الثانية عشرة من سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

فاختارت كل جماعة منهم نقيباً وقدمته.

فقال رسول الله للنقباء: تعالوا بايعوني.

فتسابقوا إليه. وكان البراء بن معرور أسرعهم - إذ وقع في قلبه أن رسول الله هو يد الله، التي امتدت من الغيب؛ لتتشله من الهلاك، وتلقى به في جنات النعيم الذي لا يزول - فاندفع إليه فكان أول من صافحه.

فقال رسول الله للنقباء بعد أن صافحهم: أنتم كفلاء (وكلاء) لى على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم.

قالوا: نعم.

هذه هى قصة بيعة العقبة، نسجناها من مختلف الروايات التى أوردتها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث: ١٨، ٣٨٨٩، ٣٨٩٠، ٣٨٩١، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩، ٤٨٩٤، ٦٨٠١، ٦٨٧٣، ٧٢١٣، ٧٤٦٨. ومن ترجمة البراء بن معرور وترجمة أسعد بن زرار فى كتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» للإمام ابن الأثير.

لقد اختلطت هذه البيعة (بيعة العقبة الكبرى) مع بيعة الجعرانة، بسبب أن راوى حديث البيعتين واحد وهو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

كما اختلط الأمر على رواة الحديث، فسموا بيعة العقبة الكبرى بيعة النساء وقالوا - وهما - أن رسول الله ﷺ قد قرأ الآية رقم ١٢ من سورة الممتحنة وهو يبايع الأنصار عند العقبة. قبل الهجرة!! ولم تنزل هذه الآية - كما هو معلوم - إلا بعد صلح الحديبية

الذى وقع فى آخر السنة السادسة بعد الهجرة. والسر فى الاختلاط يرجع - فى رأيي - إلى أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو يقص حديث بيعة العقبة، انتبه إلى أن بنود البيعة تتطابق مع بنود بيعة النساء اللاتي يأتين مهاجرات من عند الكفار، فذكر أن رسول الله بايع الأنصار على ما بايع عليه النساء وقرأ الآية. فتوهم الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه هو الذى تلا الآية عند المبايعة.

وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث البيعة "ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم" الذى يتطابق مع قول الله تعالى فى الآية متحدثاً عن النساء ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] يعنى النهي عن نسبة الاولاد إلى غير آبائهم الحقيقيين (الجدسين) وهي جريمة ترتكبها النساء غالباً؛ لأنهن اللاتي يحملن الاولاد فى بطونهن. والبطن هو الذى يحتوي على الرحم وهو تقع بين اليدين والرجلين.

وبالهتان - الذى يعنى لغة الكذب العظيم - هو ثمرة الزنا الذى ينتج مولوداً ينسب إلى غير والده. وهذا هو الافتراء الذى يعنى نسبة الشئ إلى غير صاحبه.

ولا ننسى أن وفد الانصار الذين بايعوا رسول الله كان يضم امرأتين.

(٤٨) نسجنا هذه القصة من مختلف الروايات التى أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث رقم ٢٠٣٢، ٢٠٤٢، ٢٠٤٣، ٣١٤٤، ٤٣٢٠، ٦٦٩٧.

(٤٩) اقرأ قصة النعمان بن المنذر فى كتابنا «عند الغروب ولمن الملك؟» روايتان - من منشورات الوادى للثقافة والإعلام - دار النشر للجامعات - القاهرة ٢٠١٦.

(٥٠) انظر نص القصيدة فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" -

الجزء الخامس: ص ٥٧١، البداية والنهاية الجزء الرابع ص: ٣٥٢.

(٥١) نسجنا هذا السياق من مختلف الروايات التى أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث: ٢٣٠٧، ٢٣٠٨، ٣١٣١، ٣١٣٢، ٤٣١٨، ٤٣١٩، فى

كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى. والإمام محمد بن يوسف الصالحى فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" - الجزء الخامس ص ٥٦٨-٥٧٣. وسيرة النبى لابن هشام - الجزء الرابع ص ١٠٣-١٠٥. وكتاب البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الرابع ص ٣٥٢-٣٥٣.

وأمره ﷺ للناس أن يرجعوا إلى عرفائهم (نقبائهم) على أن يرفع العرفاء (النقباء) إليه ﷺ الأمر الذى انتهى إليه تشاورهم، فيه دلالة أكيدة على مشروعية " التمثيل " النبائى؛ إذ يقوم بعض الأفراد بالتعبير عن مطالب الجماعات التى ينتمون إليها، أمام الحاكم (السلطة التنفيذية).

كما كان تأكيد رسول الله ﷺ لوفد هوازن أنه لا يستطيع الانفراد بالامر (باتخاذ القرار) فى شأن رد السبى إليهم، بل إنه لابد أن يرجع إلى الناس (جموع الشعب) ليستطلع رأيهم، وليعمل به؛ أى لينفذ ما يرضونه.... كان فى التأكيد على هذا الأمر دليلاً لا يدحض على معنى "الشورى" ووجوب العمل بما تقتضيه.

كما كان ترك الأمر لاختيار (لمشيئة) الأفراد، إذا أحبوا (رضوا) ردّوا السبى، وإذا كرهوا (رفضوا) احتفظوا به... كان ذلك تأكيداً أكثر من واضح على حرية الأفراد والجماعات فى اختيار آرائها، ومشروعية مخالفة (معارضة) الحاكم فيما رآه.

وهكذا نرى أن هذا المشهد فى السيرة النبوية يجسم فى أجلى صورة رؤية الشريعة الإسلامية للأسس التى تقوم عليها شرعية السلطة السياسية. ألا وهى: (البيعة والعدل والشورى). ونحيل القارئ إلى كتابينا: "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" و" شرعية الأحزاب السياسية فى القرآن والسنة" وهما من توزيع دار النشر للجامعات - مكتبة الوفاء ١ درب الأتراك بالأزهر.

(٥٢) انظر كتاب " البداية والنهاية " للإمام ابن كثير - الجزء الرابع: ص ٣٤٩ -

(٥٣) نسجنا هذه القصة من التفاصيل التي أوردها ابن هشام في "سيرة النبي" - الجزء الرابع: ص ١٠٥، ١٠٦، والإمام ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" - الجزء الرابع: ص ٣٥٤ والإمام محمد بن يوسف الصالحى في كتابه "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" - الجزء الخامس: ص ٥٧٣ - ٥٧٤.

ولا درها بماكد: وليس لبن ثديها غزيراً. فهي لا تصلح مُرضعاً.
بيضاء غريرة: بيضاء اللون صغيرة السن، غير خبيرة بتجارب الحياة التي تضيء على الإنسان هما وتكسوه حزناً.

نَصَفاً وثيرة: متوسطة السن، ناضجة الجسم، سمينة لينة، كالفراس الوثير
(٥٤) انظر روايتنا "سر القدر" من منشورات دار النشر للجامعات. تطلب من مكاتب الهيئة العامة للكتاب، ومكاتب أخبار اليوم، ومكتبة دار الوفاء بدرج الأتراك بالأزهر.

(٥٥) انظر كتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - الجزء الخامس: ص ٥٨٨ - ٥٨٩، وسيرة النبي لابن هشام - الجزء الرابع: ص ١٠٦، وكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير الجزء الرابع: ص ٣٦٠.

(٥٦) جمعنا في هذا السياق نص الحديث النبوى أو بالأحرى الخطبة الرسولية التي تناثرت أشلاؤها في عشرات الروايات التي أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٣٠٥٨، ٣٣٣٦، ٣٣٧٤، ٣٣٨٢، ٣٣٨٣، ٣٣٩٠، ٣٤٩٣، ٣٤٩٤، ٣٤٩٥، ٣٤٩٦، ٣٥٠٠، ٣٥٠١، ٣٥٨٨، ٤٦٨٨، ٤٦٨٩، ٦٠٥٦، ٧١٣٩، ٧١٤٠، ٧١٧٩، في كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

والروايات التي أوردها الأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيداته الفتح الكبير" في الأحاديث: ٩٦٢، ٢٧٥٨، ٢٧٨٨، ٢٩١٦، ٣٢٦٧، ٤٣٨٢، ٤٣٨٣، ٤٣٨٤، ٤٣٩٠، ٤٣٩١، ٤٤٩٦، ٦٧٩٦، ٦٧٩٧، ٧٦٧٢.

والروايات التي أوردها الإمام محمد بن يوسف الصالحى فى كتابه " سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" الجزء الأول: ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

قوله: "معادن العرب" يعنى: أصول القبائل العربية، أى الآباء الذين تنتمى إليهم الجماعات التى عاشت فى الجزيرة العربية. ومعادن الشئ: أصله وجوهره، أى الصفات الأساسية الدائمة التى تميزه عن نظائره أو أشباهه من الأشياء، والمقصود التى تمنحه هويته (ذاتيته أو شخصيته).

وقوله: "تجدون الناس معادن، كمعادن الذهب والفضة" معناه: إن الله ﷻ قد منح الناس - أفراداً وجماعات - من الخصائص والصفات ما يتميز به بعضهم عن بعض، كما تتميز عناصر الأرض عن بعضها فليس الذهب كالفضة، وليس الحديد كالنحاس.

وقد بين ﷻ أن الخير - الذى يعنى النفع - كامن فى جميع الناس أفراداً وجماعات (قبائل)، فقد وهب الله ﷻ جميع البشر من الخصائص ما يجعلهم خيرين (نافعين) لأنفسهم وغيرهم. والإيمان هو الذى يزكى (ينمى ويقوى) صفات الخير (النفع) بما يوجهه من الأعمال الصالحة. والكفر هو الذى يطمس صفات الخير؛ لأنه يبعث على معصية الله ويحث الإنسان على الفجور.

ذلك تفسير قوله ﷻ "فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا" يعنى إذا آمنوا وعلموا المقصود من شريعة الله التى تتوخى خير (نفع) الإنسان فى الدنيا والآخرة، فعملوا بأحكامها.

إذن، فالخير فى جميع البشر، وفى كل القبائل، وليس منحصرأ فى قبيلة دون غيرها. وقوله: "تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه" بيان أن الإنسان التقي يسعى جهده لتجنب تولي الحكم (السلطة)؛ لأنه أمانة ثقيلة، مخوفة

بمخاطر الانزلاق إلى معصية الله، وأن الحرص على السلطة يفضي إلى معصية الله؛ لأن السلطة تغري وتغوي بالفساد. وهو المعنى الذى أدركه الحكيم الأمريكى جون ستيوارت ميل حين قال "كل سلطة مفسدة وسلطة مطلقة فساد مطلق" ولذلك فإن الإنسان التقى حقاً لا يقبل تولى الحكم؛ إلا مضطراً ناظراً إليه باعتباره أمانة ثقيلة عسيرة الأداء، وليس مغنماً كبيراً، يُحصِّل به منافع الدنيا وملذاتها.

"قتات": من يستمع أحاديث الناس خلسة من حيث لا يعلمون، ثم ينقل ما سمع إلى من يهيم الأمر من الخصوم، ليتقرب إليهم وينال عطاءهم، ويؤدى ذلك - لا محالة - إلى إفساد العلاقة بين الطائفتين، وإشعال الخلاف والتنازع. إذن، خطيئة القت تتضمن التجسس بالإضافة إلى النم (نقل الحديث على سبيل الإفساد).

و"الأرواح" هم النفوس اللاتى اكتسبن نفحات من "روح الله" فانطلقن من قبضة الغيب - حيث كن محبوسات ككلمات مسطورة فى كتاب العلم الإلهى - وأصبحن مشهودات.

وقوله ﷺ: "الأرواح جنود مجنده" تشبيه للأرواح بالجنود التى يتم حشدھا وإرسالھا فى جيش لأداء مهمة خارج الوطن. كذلك فإن الأرواح هم النفوس اللاتى يخرجن من الغيب إلى الشهادة؛ لأداء مهمة هى تحقيق علم الله القديم، الذى سبق تسجيله فى "ذلك الكتاب" والذى كانت النفوس كلماته المسطورة.

والتعارف: التعرف المتبادل على أوجه التشابه (التمائل) بين الأشباه (النظائر). ولا تعرف أوجه التشابه (التمائل) إلا بمعرفة أوجه الاختلاف. فالتعارف عمل عقلى يؤدى إلى التعرف على أوجه التشابه بين الناس، وأوجه الاختلاف، ومن ثم يؤدى إلى تقسيم الأفراد والجماعات إلى مجموعات وطوائف حسب أوجه التشابه التى تجمعهم أو تضمهم فى نطاق واحد، وبالتالي تفصلهم وتفرقهم عن "الآخرين" الذين ليس فيهم هذه الأوجه.

وقوله ﷺ: "فما تعارف منها ائتلف" معناه: فمن أدرك منها أوجه التشابه التي تجمعها وتضمه مع غيره من أشباهه (نظائره) سعى إلى الائتلاف (الوئام والتوحد) مع أمثاله.

"وما تناكر منها اختلف": ومن عرف أوجه الاختلاف التي تبعده وتفصله عن غيره من الأشباه نفر منهم وسعى إلى الانعزال عنهم فيفضي ذلك إلى الخلاف والنزاع. "التناكر": الرفض المتبادل بين طرفين مختلفين.

والمقصود: دعوة الناس إلى البحث عن أوجه التشابه التي تجمعهم، ومن ثم يسعون إلى الائتلاف مع بعضهم. ونهيبهم عن البحث عن أوجه الاختلاف، التي تفرقهم، ومن ثم يفضي بهم ذلك إلى الخلاف والتنازع.

وقوله ﷺ: "قدموا قريشاً، ولا تقدموها" معناه: اجعلوا لقريش القيادة وأن يكون الإمام (ال خليفة الحاكم) منهم، ولا تحاولوا منازعتها الإمامة؛ فيؤدى ذلك إلى التنازع والتقاتل الذى يفضى إلى هلاك الأمة بتمزيق وحدتها.

"ولا تعاملوها": ولا تعتقدوا أنكم أعلم من قريش في ميدان الحكم (ممارسة السلطة). ذلك؛ لأن قريش بموجب وجود بيت الله في مكة، قد اكتسبت خبرة طويلة في توفير الماء والطعام والمأوى والأمن، لجموع كبيرة من البشر ياتون إلى الكعبة كل عام من كل فج عميق لأداء مناسك الحج.

ومن ثم اكتسب القريشيون - وهم أهل مكة - الخبرة اللازمة لإدارة جماعات كبيرة من البشر، وتوفير ضرورات الحياة لهم، وصارت لقريش - منذ أمد طويل - الإمامة على جميع القبائل العربية بفضل وجود الكعبة على أرضهم.

واكتسب زعماء مكة مكانة عليا في شتى أنحاء الجزيرة العربية قبل الإسلام. وكان عبدالمطلب جد النبي ﷺ هو سيد العرب بلا منازع. ويكفى للدلالة على تلك المكانة

التي كانت لزعماء مكة قبل الإسلام الإشارة إلى أن أسعد بن زرارة، وهو نقيب بنى النجار من قبيلة الخزرج أكبر قبائل يثرب (المدينة المنورة)، تشاجر وتنازع مع ذكوان بن عبد قيس، فذهبا يتنافران (يتحاكمان) إلى عتبة بن ربيعة بن أمية في مكة. حدث ذلك في السنة التاسعة بعد بدء نزول القرآن. ولكن أراد الله ﷻ لهما ولسكان يثرب كلها الخير؛ فالتقيا قدراً نبى الله، فقرأ عليهما القرآن وعرض عليهما الإسلام. فعادا إلى يثرب (المدينة) بالإسلام وكانا أول من أظهر الإسلام.

(انظر ترجمة أسعد بن زرارة في كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" الجزء الأول: ص ٨٨).

ولذلك قال رسول الله: "الناس تبع لهم (لقريش)، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم" وهو إعلان صريح بالغ الوضوح والدلالة على قيادة قريش لكل القبائل قبل الإسلام وبعده. ولذلك كان فتح مكة، ودخول قريش في الإسلام الباب الواسع الذى دخلت فيه كل قبائل العرب في الإسلام أفواجاً.

والقراءة المتدبرة لهذه الخطبة النبوية البليغة تقدم لنا الرؤية الإسلامية الصحيحة لشرعية السلطة السياسية وحقوق الحاكم وواجباته. ولكن أدى تدوين الحديث النبوى - كما حدث فى التاريخ على أبواب الفقه أو على طريقة المسانيد إلى تمزيق هذه الخطبة الحكيمة وتناثر أشلائها فى شتى الروايات المبتورة؛ فأفضى ذلك إلى ضياع معناها، وإثارة الخلافات الفكرية (الفقهية) التى لا تنتهى. وعجز الفقهاء عن رؤية المغزى التاريخى (المؤقت) لأمر الرسول ﷺ بحصر الإمامة فى قريش؛ فتوهموا أن ذلك أمر دائم للتشريع للأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان، غير متبهن إلى قول رسول الله ﷺ أن قبيلة قريش ستهلك ويباد أصلها وذكرها فى الناس، فلا يُعثر بعد قليل من الزمن على رجل يستطيع أن يزعم أنه قريشى "أسرع قبائل العرب فناءً قريش، يوشك أن تمر المرأة بالنعل، فتقول هذه نعل قريشي".

وعلى هذا الفهم السقيم للفقهاء، صرنا إزاء نظرة عنصرية تميز قريش عن بقية القبائل وسائر الناس. وبلغ من سفاهة بعضهم أن قال: إذا لم يوجد قرشى يُستخلف كنانى (من بنى كنانة)، فإن لم يوجد فمن بنى إسماعيل، فإن لم يوجد منهم أحد مستجمع الشرائط، فعجمي، وفي وجه آخر جرهمي وإلا فمن ولد إسحاق.

إذن، بناءً على هذا القول السخيف، نحن بإزاء أسطورة التفوق (التمييز) العنصرى، الذى يرفع سلالات بشرية فوق أخرى. وعندما نبحث عن إمام فإننا سندرس نسبه وأصله!!

ونسوا الواجبات التى ألقاها رسول الله ﷺ على كاهل الحاكم القرشى؛ لكى يستحق الإمامة. ولذلك وجدنا رجلاً مثل معاوية بن أبى سفيان عندما يذكر هذا الحديث لا ينطق إلا بالفقرة التى تقول: إن هذا الامر لا يزال فى قريش ما بقى من الناس إثنان، لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه فى النار ما أقاموا الدين" وينسى ولا يذكر الواجبات التى على الحكام من قريش أو من غيرهم أن يقوم بها: العدل فى الحكم، والإقسط فى قسمة الاموال، والوفاء بالعهود والرحمة!!

وعندما يهدد رسول الله ﷺ الأئمة والأمراء من قريش بالهلاك واللعنة: "فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل" وقوله: "فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحكم كما تُلحى هذه الجريدة" فإن ابن حجر فى شرحه يقول تعقياً على هذا التهديد العظيم "وليس فى هذا ما يقتضى خروج الأمر منهم"، وإذا كان رسول الله ﷺ قد نهى الرجل الذى لعن بغيره عن صحبته وقال له: "لا تصاحبنا بملعون"، فإن ابن حجر يريد أن يحكمنا ويقودنا ملعون!!

(٥٧) انظر كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" - الجزء الخامس: ص ٥٨٨-٥٨٩. وكتاب البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الرابع: ص ٣٦٠، وسيرة النبى لابن هشام - الجزء الرابع: ص ١٠٦ - ١٠٧. ولقد كوّن جيشاً ممن أسلم

من قومه وسائر قبائل هوازن والقبائل الاخرى حول الطائف، فكان يغير على قطعان ماشيتهم التى تخرج للرعى؛ حتى ضَيَّقَ عليهم ونَغَصَّ حياتهم، ورأوا أن لا مهرب منه إلا باللجوء إلى رسول الله ﷺ، فوفدوا إليه وأعلنوا إسلامهم فى رمضان من العام التالى (التاسع من الهجرة).

(٥٨) عدّ رواة الحديث النبوى لرسول الله ﷺ أربع عمرات:

الأولى: العمرة التى نوى أن يقوم بها فى ذى القعدة من السنة السادسة بعد الهجرة. ولكنه مُنِعَ من دخول مكة وعقد المشركون معه صلح الحديبية. وهى عمرة لم تتم.
الثانية: عمرة "القضاء" التى قام بها فى ذى القعدة من السنة السابعة بعد الهجرة، طبقاً لصلح الحديبية.

الثالثة: العمرة التى قام بها من الجعرانة فى ذى القعدة من السنة الثامنة بعد الهجرة والتى ذكرناها فى روايتنا هذه.

الرابعة: العمرة التى قام بها كجزء من حجة الوداع فى ذى الحجة من العام العاشر بعد الهجرة. ولم تكن عمرة منفصلة قائمة بذاتها.

هذا البيان هو مضمون سبعة أحاديث أخرجه البخارى فى صحيحه تحت الأرقام: ١٧٧٥، ١٧٧٦، ١٧٧٧، ١٧٧٨، ١٧٧٩، ١٧٨٠، ١٧٨١.

(٥٩) سورة الزخرف: الآيتين ١٣، ١٤

"مقرنين": مشركين. فنحن لا نقرن (لا نشرك) بربنا إلهاً آخر. ومن الشرك بالله ﷻ أن يظن العبد أنه قد سخر الأشياء بقدرته وعلمه. كما قال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

ومن هنا يأخذ لفظ "مقرنين" معنى: مستطيعين، أى قادرين عليه. والمقصود: إقرار العبد بأنه لم يكن فى وسعه أن يسخر هذه الأشياء إلا بقدرته الله ﷻ الذى سخرها

بمحض كرمه لعباده.

(٦٠) انظر الأحاديث: ١٧٩٧، ٢٩٩٣، ٢٩٩٤، ٢٩٩٥، ٦٣٨٥.

(٦١) ﴿وَلَا تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

العفو: التنازل طواعية عن إنزال العقاب على من أساء إليك، فهو يعنى ترك "حقك" فى الرد على من أذاك مع قدرتك على إنفاذه. فالعفو يعنى الارتفاع عن الرد على الإساءة بمثلها مع القدرة على ذلك وعلمك أن ذلك هو العدل.

الصفح: ترك لوم من أساء إليك؛ لأن اللوم يُعد بقية من العقاب الذى تنازلت عن حقك فيه بالعفو، فاللوم أثر باق فى النفس من العقاب الذى عفوت عنه.

المغفرة: محو أثر الإساءة من النفس، واعتبارها كأن لم تكن. فقد يعفو الإنسان عمن أساء إليه. ويصفح عنه (لا يلومه) ولكن يبقى فى نفسه "شئ" يبعثه على منع الخير عمن أساء إليه وحرمانه من الرحمة التى يمكن أن تصل إليه. فإذا أزال الإنسان من نفسه كل أثر للإساءة وسعى إلى بذل الخير (النفعة) إلى من أساء إليه، ناسياً لإساءته. ههنا، نحن فى مقام المغفرة.

ولله المثل الأعلى، فهو ﷻ يعفو عن عباده المذنبين (لا ينزل بهم العقاب المستحق) ويصفح عنهم، فلا يذكرهم بذنوبهم عند حسابهم. وهذا هو معنى تكفير السيئات. ثم يغفر لهم ماحياً من نفسه ﷻ كل أثر لذنوب عباده. وهذه هى المغفرة.

بل إنه ﷻ يعمل ما هو أعظم من كل ذلك، فيبدل سيئاتهم حسنات معتبراً ذنوبهم طاعات؛ لأن الخطأ والصواب حكم من الله ﷻ على أعمال العباد، فهو وحده - جل فى علاه - الذى يحكم على الأعمال دون الرجوع إلى قانون من غيره ﷻ؛ لأن إرادته هى القانون الأعلى الذى تصدر بموجبه أعمال العباد. وإرادته الظاهرة فى شريعته التى يحاسب عباده عليها لا تهيمن، ولا تعقب على إرادته الباطنة فى الحقيقة.

ولننظر إلى أعمال العبد الصالح الذى أرسل الله إليه كليمه موسى بن عمران ليتعلم منه، كما قصت علينا سورة الكهف.

تبدو تلك الأعمال فى الظاهر معاصي (خطايا) يعاقب مرتكبها بعذاب من الله. ولكنها فى الحقيقة طاعات أمر الله ﷻ بها عبده العارف بالله.

ولننظر الآن إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بموجب اسمه الغفور الذى يمحو آثار الذنوب من نفسه ولا يحرم عباده المؤمنين من رحمته؛ لأنه رحيم: دائم الرحمة.

وقد يقول قائل: إنك تفتح بذلك القول باب المعاصي على مصراعيه. والرد على هذا القول يأتى من الله نفسه ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم: ٧٨] فمن الذى يستطيع أن يدعى أن الله سيحول سيئاته إلى حسنات؟ من الذى يمكنه أن يجزم بذلك، إذا كان ذلك - كما قال القرآن - بإرادة الله وحده منفردًا دون شريك، ﷻ؟ والحساب على الشريعة وليس على الحقيقة التى لا يعلمها إلا الله وحده.

(٦٢) نظم بجير بن زهير قصيدة يفهم منها اشتراكه فى معركة هوازن (يوم حنين) وحصار ثقيف فى حصن الطائف. انظر نص القصيدة فى "سيرة النبى" لابن هشام - الجزء الرابع: ص ١٠٢-١٠٣، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الرابع: ص ٣٥٠-٣٥١. وكتاب سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى - الجزء الخامس: ص ٥٩٢.

(٦٣) يشير بجير بن زهير - هنا - إلى الرجال الذين أصدر رسول الله ﷺ أمره بقتلهم حتى إن تعلقوا بأستار الكعبة، مثل عبدالله بن هلال بن خطل، ومقيس بن صبابه. وقد أخطأ الناس قديماً - فى زمن الرسول ﷺ نفسه، وفى زمن تدوين الحديث

النبي وكتابة السيرة النبوية وإنشاء الفقه. وحديثاً إذ توهموا أن قتل مثل هذين الرجلين كان عقاباً لهما ولغيرهم على خطيئة (جريمة) الارتداد عن الإسلام. وهذا الظن إساءة فهم لنصوص القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ؛ لأن عبد الله بن هلال بن خطل قتل رجلاً من قبيلة خزاعة أرسله معه رسول الله ليخدمه في الطريق، عندما بعثه ليجمع الصدقة، فقتل عبد الله بن هلال الرجل الخزاعي؛ لأنه تأخر في إعداد الطعام له، ثم هرب من وجه العدالة؛ حتى لا يقتص منه. ففر إلى مكة وانضم إلى المشركين، بل وأخذ معه أموال الزكاة التي جمعها. بل وجعل من البيت الذي اتخذ في مكة وكراً للسكر والعريضة، واقتنى مغنيتين كانتا تتغنيان بهجاء رسول الله ﷺ والإساءة إلى الإسلام بقصائد يكتبها أمثال ابن الزبيري وهبيرة بن أبي وهب.

فكان أمر رسول الله ﷺ بقتله عقاباً على قتله خادمه الخزاعي، ونهبه المال العام (أموال الزكاة)، وليس على الارتداد أو هجاء رسول الله ﷺ. وإلا فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن رجالاً قد ارتدوا عن الإسلام ولم يأمر رسول الله بقتلهم. وما أكثر الهجاء أو السباب الذي نال رسول الله ﷺ من كفار مكة ولم يقتلهم رسول الله ﷺ بعد أن هزمهم وفتح مكة ووقعوا في قبضة يده مذلين مهانين.

وأما مقيس بن صبابه فقد أخذ الدية من الرجل الأنصاري الذي قتل أخاه هاشماً في معركة بني المصطلق (غزوة المريسيع) على سبيل الخطأ. ولكن مقيس بن صبابه لم يستطع أن يمسك رغبة الانتقام في نفسه، فعدا على الأنصاري فقتله، رغم أنه قد رضى بالدية وأخذها، ورغم أنه يعلم أن القتل وقع خطأً دون عمد. وفر إلى مكة وانضم إلى كفارها وكانوا حينذاك في حالة حرب مع المسلمين.

وهكذا نرى أن الذين أمر رسول الله بقتلهم ونفذ أمره فيهم ارتكبوا جرائم يستحقون - شرعاً أو قانوناً - عليها القتل، وليس بسبب ارتدادهم عن الإسلام أو هجائهم رسول الله ﷺ.

وأما عبدالله بن سعد بن أبي السرح، الذى ارتد عن الإسلام وهرب إلى قومه كفار قريش، وكانوا فى حالة حرب مع المسلمين، بل وادعى أنه هو الذى يكتب القرآن لمحمد، فقد أمر رسول الله بقتله يوم فتح مكة، ولكنه قبل شفاعته عثمان بن عفان رضي الله عنه فيه، وكان عثمان أخاً لعبدالله فى الرضاة. ولو كان أمر القتل حداً، ما قبلت فيه الشفاعه. ولكنه كان أمراً من حاكم بشرى يحافظ على هيبة سلطته ولذلك تراجع عنه.

انظر باب "الحرية الدينية - حرية الاعتقاد والعبادة" فى كتابنا الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة.

(٦٤) انظر تاريخ مملكة كنده فى كتاب "تاريخ العرب القديم" - الجزء الثانى: ص٣٥٩-٣٩٧، للأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران. "وتاريخ العرب فى عصر الجاهلية" للأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: ص٣١٣-٣٣٥.

(٦٥) انظر كتاب «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» - الجزء السادس ص: ٤٥٠.

(٦٦) انظر الروايات المختلفة لتلك الآيات فى كتاب «سيرة النبي» لابن هشام - الجزء الرابع: ١١٦-١١٧، وكتاب «البداية والنهاية» لابن كثير - الجزء الرابع: ٣٦٧-٣٦٨، وكتاب «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» لابن الأثير - الجزء الرابع: ص ٣٣٤.

وقد اخترنا الصياغة الأدق ورتبنا الآيات على النحو الذى يعطى المعنى الأصح. النهل: الشرب لأول مرة.

والعلل: الشرب لثانى مرة أى الشرب المتكرر.

(٦٧) نسجنا هذه القصة من مختلف الروايات التى أوردتها أو أشار إليها ابن حجر فى شرحه للأحاديث: ٥٢٥٤، ٥٢٥٥، ٥٢٥٧، ٥٢٥٦، ٥٦٣٧ فى كتابه "فتح البارى بشرح صحيح البخارى"، والروايات التى ذكرها محمد بن يوسف الصالحى فى

كتابه "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" - الجزء الثاني عشر، الباب الرابع عشر في ذكر من عقد عليها ولم يدخل بها ﷺ.

ولنا عدة ملاحظات هامة:

(١) الأولى: إن السابقين قد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعيين شخصية هذه العروس التي استعازت بالله من رسول الله، وأسرفوا في ذلك كثيراً، فقالوا إنها عمرة بنت يزيد بن الجون، أو هي أسماء بنت النعمان بن الجون، أو أسماء بنت كعب الجونية، أو أسماء بنت الصلت، أو سنا بنت أسماء بن الصلت، أو سبا بنت سفيان، أو سنا بنت سفيان، أو الشاة بنت رفاعه، أو الشنبا، أو الشيبا، أو العالية بنت ظبيان، أو هند بنت يزيد، أو عمرة بنت معاوية، أو فاطمة بنت الضحاك بن سفيان، أو آمنة بنت الضحاك بن سفيان، أو قتيلة بنت قيس بن معدى كرب الكندية،..... وذكروا أطرافاً من هذه القصة منسوبة إلى واحدة من هذه الأسماء، فعددوا الأسماء وكرروا القصة مع أن الشخصية واحدة والقصة واحدة.

ومن السخافة والسفاهة الاعتقاد بأن القصة تتكرر، وأن كل أولئك النسوة استعازت بالله من رسول الله ﷺ!! والسر وراء هذا التعدد الموهوم هو الاعتماد على روايات مبسرة منتزعة من سياقها، ومنتقلة عبر الاجيال بالسماع من الألسنة إلى الأذان مما يفرض - لا محالة - إلى وقوع الخطأ بالحذف والإضافة والتصحيح (تغيير النطق)؛ فيمكن أن تُسمع لفظة (الكندية) على إنها الكنانية على سبيل المثال. بالإضافة إلى اختلاف الرواة في سلسلة النسب (الأصل) الذي يعود إليه كل شخص.

وهو اختلاف قديم ومعروف؛ لأنه أيضاً تراث شفهي معرض للخطأ، فلم تكن أسماء الأشخاص، وسلسلة أنسابهم تدون (تكتب) في الدفاتر أو السجلات التي تخصي المواليذ والوفيات. هذا بالإضافة إلى رغبة كل قبيلة في الادعاء بأن رسول الله قد قبل الزواج من نسائهم.

(ب) لم ينتبه أحد من الرواة والحفاظ إلى أن النعمان بن أبي الجون الكِنْدِي هو والد العروس، وأنه هو الذى عرض على رسول الله ﷺ الزواج منها "ألا أزوجك أجمل أيم فى العرب"، كما جاء فى شرح ابن حجر نقلاً عن ابن سعد فى كتاب "الطبقات الكبرى". وبهذا العرض من والد المرأة وولى أمرها على الرجل الذى قبل الزواج، وهو رسول الله ﷺ، يقع العقد صحيحاً من الناحية الشرعية (الدينية) ولا نحتاج إلى كل تلك الخلافات التى سودت عشرات الصفحات، ولا نحتاج إلى قراءة وسماع لغواً كثيراً مثل ما ذكره ابن حجر "كان له ﷺ أن يزوج نفسه بغير إذن المرأة وبغير إذن وليها". إننا بهذا الكلام الفاحش نكون بصدد جريمة اختطاف أنثى واغتصابها، حاشا لله ﷻ وحاشا لرسول الله ﷺ أن يقع فى مثل هذه الخطايا الفاحشة.

(ج) لا يمكن فهم كلام العروس التى استعازت بالله من رسول الله كما ورد فى الحديث الصحيح رقم ٥٢٥٥ فى صحيح البخارى: "وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟" إلا بالنظر إلى حقيقة أن هذه المرأة المستعيذة سليلة حُجر بن عمرو الملقب بأكل المرار، وهو مؤسس دولة (مملكة) كندة التى قامت فى هضبة نجد فى قلب الجزيرة العربية فى الربع الأخير من القرن الخامس الميلادى (حوالى سنة ٤٨٠م) واستمرت حتى مقتل الملك أو المطالب باسترداد الملك الشاعر امرؤ القيس، صاحب أول المعلقات وأمير شعراء الجاهلية فى منتصف القرن السادس الميلادى.

إذن فهذه المرأة المستعيذة بالله من النبى ﷺ من ذرية ملوك كِنْدَة ويحق لها أن تقول عندما تتلبسها نفحة الكبر "وهل تهب الملكة نفسها للسوقة". انسياقاً وراء خديعة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا !!

ولا نحتاج إلى أن نقول: إنه ليس لامرأة أخرى غير التى ذكرناها فى روايتنا أن تقول هذا الكلام.

والمشكلة تكمن فى أن الرواة والحفاظ الذين نقلوا لنا الأحاديث النبوية اعتمدوا

على روايات مبتسرة ولم يكونوا على قدر كاف من العلم بتاريخ العرب قبل الإسلام، فغابت الحقيقة في ضباب الروايات المختلفة.

وقد قام أبو أسيد الساعدي رضي الله عنه كما أمره رسول الله ﷺ بإرجاع تلك المرأة إلى أهلها الذين فوجئوا وانزعجوا بشدة من عودتها السريعة في صحبة الرجل الذي كان قد جاء من أيام ليخطبها على رسول الله ﷺ. أخذوا يصيحون في وجهها ويسألونها في مرارة: "ماذا دهالك؟!!!" والله إنك لغير مباركة!! ألا تعلمين أنه رسول الله الذي أرسل هذا الرجل - يشيرون إلى أبي أسيد - منذ بضعة أيام ليخطبك.

"أتدريين من هذا الذي طلقك؟!"

"إنه رسول الله وسيد العرب"

فقالت والأسف يعتصر قلبها: قد كنت أشقى من ذلك: لقد خُذتُ.

فجاء قومها بعد أيام. واعتذروا لرسول الله: إنها صغيرة، وإنها لا رأى لها، وإنها قد خُذتُ فارتجعتها. وإن بعض نسائك قد خدعها وحملها على أن تقول ما قالت.

فقال رسول الله ﷺ: إنهن صواحب يوسف وإنه من كيدهن.

ولكنه أبى أن يرجعها. فعاد القوم خائبين.

وأصيبت المرأة المسكينة بموجة من الجنون من هول الصدمة التي تعرضت لها. فكانت تمشي في الطرقات على غير هدى وهي تردد: أنا الشقية، أنا الشقية، وتلقط البعر وتقذفه.

ثم رق قلب المهاجر بن أبي أمية المخزومي فتزوجها. فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمن خلافته أن يفرق بينهما وأن يعاقبهما وضرب زوجها.

فقالت له - وقد استردت عقلها -: اتق الله يا عمر! ما ضُرب على الحجاب ولا سُميت أم المؤمنين. فإن كُنْتُ من أمهات المؤمنين فاضرب عني الحجاب وافرض لي مثل



ما فرضت لهن. أعطنى مثل ما أعطيتهن.

فقال عمر: أما هنالك فلا.

فقالت المرأة: فدعنى إذن أنكح.

واضطر عمر في نهاية الأمر أن يذعن للحقيقة إذ ما استطاع أن يواجه حجب المرأة الساطعة القاطعة.

وما يعنينا هنا أن قول المرأة " ما ضُرب على الحجاب " يدل دلالة قاطعة لاشك فيها على أن الحجاب - الذى يعنى ستر الوجه، أى ما يقولون عنه النقاب - كان أمراً خاصاً بنساء النبى ﷺ فقط. فتدبروا يا أولى الألباب ولا تعطوا عقولكم لأحد من أهل السلفية عريضة القفا!!

وكالعادة اختلفت الروايات في تحديد مصير المرأة بعد طلاقها من رسول الله ﷺ. فقليل ماتت كمداً، أو تزوجت من ابن عم لها قبل أن يُحرم الله ﷺ نساء النبى ﷺ أو أن عكرمة بن أبى جهل (عمرو بن هشام المخزومى) تزوجها بعد وفاة رسول الله ﷺ بحضر موت، فلما بلغ ذلك أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أراد أن يقتلها (لقد هممت ان أحرق عليهما) فقال له عمر بن الخطاب: ما هى من أمهات المؤمنين، ولا دخل بها رسول الله، ولا ضَرَبَ عليها الحجاب. وإن نسبوا هذا إلى قتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس زعيم كندة، وأنها ارتدت مع أخيها بعد وفاة رسول الله ﷺ فبرئت من الله ورسوله بارتدادها مع أخيها.

والحقيقة أن الأشعث بن قيس، رئيس وفد كندة الذين جاءوا مسلمين في السنة العاشرة بعد الهجرة، هو الذى ارتد ثم أُسر في القتال. فزعم التوبة وتزوج من أخت أبى بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أم فروة وكانت عمياء. وكان سبباً في قتل الحسن بن على مسموماً بيد ابنتيه التى تزوجها!!

(د) لم تكن أسماء بنت النعمان التى ذكرنا قصتها هى المرأة الوحيدة التى عقد رسول الله ﷺ عليها النكاح ثم لم يدخل بها، بل فارقها قبل أن يتحقق النكاح بالجماع. بل وُجدت فى سيرته ثلاث نساء أخريات حدث معهن ذلك. واضطربت الروايات كالعادة واختلفت وتضاربت ولكن يمكننا تحديد ثلاث شخصيات وقع لهن ذلك وهن:

١- المرأة التى اكتشف رسول الله ﷺ أن بجذعها برص، فطلقها ولم يأخذ من مهرها شيئاً، وأعطاهام متعة الطلاق. واختلفوا كالمعتاد فى اسمها فقالوا: عمرة بنت يزيد أو هند بنت يزيد، أو العالية بنت ظبيان، أو آمنة بنت الضحاك،.... واختلفوا أيضاً فى نسبها فقالوا مرة الغفارية، وأخرى العامرية، وثالثة الكلابية، ورابعة الكنانية.

٢- خولة بنت الهذيل، ابنة أخت دحية بن خليفة الكلبي، الصحابي جميل الصورة الذى كان جبريل ﷺ يلبس صورته أحياناً حين يريد الظهور بهيئة البشر. وكانت تعيش فى إمارة غسان ببادية الشام. فأرسلت إليه، لما وافق على زواجها، ولكنها هلكت فى الطريق ولم يكن قد رآها. وقد خلطوا بينها وبين أمها أو خالتها؛ لأن لفظة "ابنة" سقطت من الرواية، فصارت أخت دحية الكلبي.

٣- ليلي بنت الخطيم (ويقال بنت حكيم) امرأة من الأنصار، من قبيلة الأوس. رأت النبي ﷺ، جالساً وقد أعطى ظهره للشمس، فأدهشها حسنه، فجاءته من خلفه، ورببت كتفه.

فقال: من هذا؟

قالت: أنا بنت مطعم الطير ومباري الريح. انا ليلي بنت الخطيم جئت لك لأعرض عليك نفسى فتزوجنى.

قال: قد فعلت.

فرجعت إلى قومها، فقالت: قد تزوجت رسول الله.

فقالوا لها: بئس ما صنعت بنفسك. أنتِ امرأة غَيْرِي، والنبى صاحب نساء،
تغارين عليه، فتضايقيه، فتنفريه منك، فيدعو عليك.

فانتبهت وتساءلت بلسان حالها: ما العمل؟

فقالوا لها: فاستقيليه نفسك، اخرجى من العقد.

فرجعت إلى رسول الله فقالت له: يا رسول الله، أقلنى

قال: قد أقلتك.

وتزوجت من مسعود بن أوس. وولدت له.

اخترنا ما سبق من الروايات المضطربة المتضاربة التى أورجها الإمام محمد بن
يوسف الصالحى فى كتابه " سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد " - الجزء الثانى
عشر: ص ١٤٠-١٥٥.

(٦٨) نسجنا هذه القصة من الروايات التى أوردها الإمام محمد بن يوسف
الصالحى فى كتابه " سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد " - الجزء السادس:
ص ٣٢٢-٣٢٣، وص ٥٣٢-٥٣٥، وترجمة زياد بن الحارث فى كتاب "أسد الغابة فى
معرفة الصحابة" - الجزء الثانى: ص ٢٣٨.

قوله ﷺ: "لولا أنى استحيى من ربى لسقينا واستقينا" يعنى: لولا الحياء من
ربى لأخذت قدراً كبيراً من الماء يكفى حاجتنا كلها من الشرب والنظافة وشرب
الدواب طوال سفرنا هذا، وأخذنا ما يكفيننا بعد ذلك. ولكن هذا العمل يحمل فى باطنه
رغبة مدفونة فى الاستغناء عن سؤال الله والتضرع إليه ﷻ، والشعور بالفقر إليه.
ولذلك امتنعت عن عمل ذلك؛ لأن الشعور بالافتقار إلى الله تعالى وسؤاله والتضرع
إليه أفضل للعبد من حصوله على ما يكفى من حاجته، ومن ثم قد يفضى به للاستغناء
عن الله ويحرمه من نعمة التوكل عليه ﷻ.

وقد كان زياد بن الحارث رضي الله عنه داعياً إلى الله في قومه صداء؛ فنشر فيهم الإسلام وكان وفدهم في حجة الوداع بعد عامين في ذي الحجة سنة ١٠ هـ مائة إنسان يقودهم زياد بن الحارث.

وقد ذكر أنهم عندما وصلوا إلى بلدهم، رموا الحصيات السبع في بئرهم؛ فزاد فيها الماء طوال العام، حتى أنهم لم يستطيعوا أن ينظروا إلى قعرها أبداً.

وربما كان وفد صداء هم القوم الذين ضلوا الطريق عندما سافروا إلى رسول الله، وفقدوا الماء فأوشكوا على الهلاك بعد ثلاثة أيام من العطش، وهنالك تذكر أحدهم بيتين لامرؤ القيس قال فيهما:

لما رأت أن الشريعة همها ** وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج ** يفئ عليها الظل عرمضها طامي

الشريعة: الموضع الذي تبدأ الإبل منه للشرب من عين الماء؛ فهو مبدأ سيرها إلى الماء.

عرمضها: الطحالب الخضراء فوق الماء.

فقال أحدهم: ضارج عندكم، وأشار إلى الموضع، فمشوا إليه على الركب، فإذا هم بعين ماء كما ذكر امرؤ القيس في شعره فشربوا وحملوا من الماء ما يكفيهم في سفرهم ولولا ذلك لهلكوا.

فلما بلغوا رسول الله، وقصوا عليه ما وقع لهم، قال لهم: "ذلك - يشير إلى امرؤ القيس - رجل مذكور في الدنيا، شريف فيها، منسى في الآخرة، حامل فيها. يجيء يوم القيامة معه لواء الشعر إلى النار.

(انظر كتاب "تاريخ العرب القديم" للأستاذ الدكتور/ محمد بيومي مهران-

الجزء الثاني: ص ٣٨٧.

وقد نقل القصة من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٦٩) جمعنا قصة كعب بن زهير من الروايات المختلفة التى أوردها ابن هشام فى كتاب "سيرة النبى" - الجزء الرابع: ص ١١٦ - ١٢٨، و"البداية والنهاية" لابن كثير - الجزء الرابع: ص: ٣٦٧-٣٧٣.

وانظر نص القصيدة كاملة فى كتاب "سيرة النبى" وهو النص الصحيح. وقد قدم الاستاذ / محمد محيي الدين عبد الحميد الذى راجع أصول الكتاب وضبط غريب ألفاظه وعلّق حواشيها- فى طبعة كتاب التحرير، دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ - شروحاّ للألفاظ الغريبة والعسيرة على الفهم فى قصيدة كعب بن زهير.

وتتكون القصيدة من ٥٩ بيتاً. وبدأ الشاعر بذكر فراق حبيبته سعاد وتعلق قلبه بها، ثم أفضى إلى ذكر مفاتن جسمها وعذابه بإخلاف وعدها بالوصال. ثم انساق فى وصف الإبل وناقته القوية الجميلة التى يحبها، وحزنها الشديد على موت أولادها. ثم عمد إلى ذكر الغاية التى جاءت به إلى مسجد رسول الله ﷺ وهى الاعتذار عما بدر منه من إساءة وطلب العفو والصفح، ومدح رسول الله ﷺ وقومه من قريش مع التعريض فى آخر القصيدة بدم الأنصار؛ انتقاماً منهم بسبب الرجل الأنصارى الذى أراد قتله عندما عرف شخصيته، قال مادحاً رجال قريش:

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم * * * ضرب إذا عرّد السود التنايل

يمدح رجال قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم يتحركون فى ثبات وقوة مثل الجمال البيض، يحميهم ضرب سيوفهم فى القتال إذا جبن وتخاذل الرجال السود القصار يشير إلى الأنصار.

ولذلك طلب منه رسول الله ﷺ أن يذكر الأنصار بخير " لولا ذكرت الأنصار بخير، فإنهم لذلك أهل"

فأنشد قصيدة بدأها بقوله:

من سره كرم الحياة فلا يزل ** في مقنّب من صالحى الأنصار

مقنّب: جماعة الفرسان.

وقد شاع أن النبى ﷺ قد منح كعب بن زهير بُردة فاخرة مكافأة له على قصيدته التى عُرفت بعد ذلك باسم " البُردة " .

وعلىنا أن ننتبه ونلاحظ أن كعب بن زهير أنشد قصيدته فى المسجد النبوى، وأن القصيدة تضمنت فى مطلعها وصف لجمال المرأة. ولا يوجد دليل أقوى من هذا على مشروعية ممارسة الفن، إبداعاً وتذوقاً، وأننا فى الفن نكون فى عالم آخر غير العالم الواقعى فى الحياة الجسدية اليومية، والذى يجب أن يخضع لسلطة الأحكام الشرعية والقوانين.

وقد جاء جماعة من الأحباش إلى مسجد رسول الله ﷺ وقدموا عرضاً فنياً بالرقص بالرماح داخل ساحة المسجد النبوى، وبموافقة صريحة واضحة من رسول الله الذى سمح للنساء ولزوجته عائشة رضي الله عنها بحضور ومشاهدة العرض الذى يرقص فيه الرجال.

ونحيل القارئ إلى الأحاديث: ٤٥٤، ٤٥٥، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥٢، ٩٨٧، ٩٨٨، ٢٩٠١، ٢٩٠٦، ٢٩٠٧، ٣٥٢٩، ٣٥٣٠، ٥٢٣٦، ٥١٩٠، ٣٩٣١ فى كتاب «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» .

ونحب أن نحيل القارئ الكريم إلى ثلاثة من كتبنا:

١- لمحات من حياة نبى الرحمة - سلسلة قضايا إسلامية، من منشورات المجلس

الأعلى للشئون الإسلامية - وزارة الاوقاف بالقاهرة.

٢- الجمال فى القرآن الكريم.

٣- نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن. ويطلب الكتابان من مكتبات الهيئة

العامة للكتاب، ومكتبات أخبار اليوم ومكتبة دار الوفاء - ١ درب الأتراك

بالأزهر.

(٧٠) انظر كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» الجزء الحادي عشر ص ٤٧٥-٤٧٦.

(٧١) نفس المصدر ص ٤٩٣.

(٧٢) انظر الحديث رقم ٣٧٠٣ في كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري».

(٧٣) ولذلك اختاره عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما صار أميراً للمؤمنين، مع أزهر بن عبد عوف، وسعيد بن يربوع، وحويطب بن عبد العزى ليقوموا بإعادة ترسيم حدود الحرم المكي بوضع الأنصاب (علامات الحدود الحجرية) عليها. انظر ترجمة مخرمة بن نوفل في كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» الجزء الخامس: ص ٦.

(٧٤) نسجنا هذا المشهد من تفاصيل الروايات المختلفة التي أوردها أو أشار إليها ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٢٥٩٩، ٢٦٥٧، ٣١٢٧، ٥٨٦٢، ٦٠٣٢، ٦٠٥٤، ٦١٣١، ٦١٣٢ في كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» والحديث رقم: ٦٦٢٦ في كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير» من إعداد محمد ناصر الدين الألباني.

لقد أخطأت عائشة رضي الله عنها إذ ظنت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع في خطيئة الغيبة إذ ذكر مخرمة بن نوفل بالسوء في غيبته. وفي المداهنة إذ أقبل عليه بوجه منبسط، ولأن له الكلام، ورحب به رغم قوله فيه ما يسئ إليه ويعبر عن نفوره صلى الله عليه وسلم منه.

فنهاها رسول الله عن هذا الظن الخاطئ (الوهم) بقوله: "مه" وهي كلمة زجر وتحذير. كأنه قال لها: كفي عن هذا الوهم وانتبهي إلى الخطأ الذي وقعت أنت فيه.

و"الفحش" يعني الكلام والفعل البذئ الذي يجب شرعاً تجنبه. ويعني هنا: مواجهة الناس بما فيهم من الصفات المذمومة؛ لأن هذه المواجهة لا بد أن تثير غضبهم،

وتدفعهم إلى العناد والإصرار على الخطأ؛ بوازع من الدفاع عن كرامتهم التي أهينت بالمواجهة الصريحة، خاصة إذا كانت على الملأ وفي حضور الآخرين.

و"التفحش": تعمد الفحش والمبالغة فيه، خاصة إذا اقترن بالسخرية على سبيل الاستهزاء.

و"أي عائشة! متى عهدتني فاحشاً" أواجه الناس في غلظة بما فيهم من عيوب؟! والفرق بين المداينة المحرمة شرعاً، والمدارة الواجبة شرعاً هو أن «المداينة» المحرمة تعني طلب رضا المخلوق بمعصية الخالق ﷻ، ففي المداينة المحرمة يسعى العبد إلى الحصول على منفعة دنيوية مثل رضى رئيسه عنه، بترك واجب من واجبات الدين، أي بمعصية الله ﷻ وإسقاطه. وفي كلمة واحدة: المداينة إرضاء الناس بإسقاط الله ﷻ. أما المداراة الواجبة شرعاً فهي إرضاء الناس طلباً لإصلاح ذات البين (العلاقات الاجتماعية بين الناس) وإشاعة الود، والقضاء على أسباب الخلاف والتنازع.

ولاشك في أن الترفق بالجاهل عند تعليمه؛ سوف يشجعه على طلب العلم. والترفق بالفاحش العاصي عند وعظه؛ قد يدفعه إلى مراجعة نفسه والرجوع عما فيه من معصية وغلظة ويحثه على نزع كوامن الشر في قلبه. ولذلك ألان رسول الله ﷺ الكلام لمخرمة وطيب خاطره؛ لعل ذلك يدفعه إلى ترك ما فيه من نفاق وبذاءة.

قال ﷺ شارحاً سبب عمله: "أداريه عن نفاقه" والمعنى أحياه من نفاقه، أي أدفع عنه شر نفاقه؛ لأن الإحسان إليه بلين الكلام، وتطبيب خاطر، وإجزال العطاء، قد يبعثه على ترك النفاق، والإيمان بأن هذا الخلق الحسن لا يصدر إلا عن إنسان صادق، محال في حقه أن يدعي النبوة كذباً.

ومن ناحية أخرى، فإن الإساءة إليه بمواجهته بعيوبه، وحرمانه من العطاء؛ قد يدفعه إلى سب النبي ﷺ وتشويهه أمام الناس. وهو الأمر الذي قد يدفع بعض ضعاف الإيمان إلى ترك الإيمان وإساءة الظن بالنبي ﷺ. ولذلك قال: وأخشى أن يفسد عليّ

غيره. يعني من ضعاف الإيمان الذين يصدقون ما يقوله عن النبي من أكاذيب وافتراءات تنفيسًا عن غضبه وسخطه.

وقوله ﷺ: "مدارة الناس صدقة" يعني: غض الطرف عن عيوب الناس وتطبيب خواطرهم وذكر محاسنهم يعد صدقة عليهم؛ لأن ذلك قد يبعثهم على التحلي بالصفات الحسنة المحموده، والتخلي عن الصفات السيئة المذمومة. وهذا هو معنى «التصدق» عليهم، ببعثهم على إحسان خلقهم.

وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق.

قال عبدالله بن عمرو: لم يكن رسول الله فاحشًا ولا متفحشًا وقال رسول الله: إن من أخيركم أحسنكم خلقًا. (الأحاديث ٣٥٥٩، ٣٧٥٩، ٦٠٢٩، ٦٠٣٥ في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»).

وقال أنس بن مالك: لم يكن النبي سببًا (كثير السب) ولا فحاشًا ولا لعانًا، وكان يقول لأحدنا عند المعتبة: "ماله ترب جبينه" (الحديثان ٦٠٣١، ٦٠٤٦ في نفس المصدر).

قوله: "ماله ترب جبينه" يعني ما الذي أوقعه في هذا الخطأ، فسقط على الأرض، فلوث التراب جبينه. وهذا عتاب رقيق لمن أخطأ، ليس فيه ذم، بل هو أقرب إلى المدح؛ إذ يشعر المخطئ المعاتب بأنه كان جديرًا بتجنب الوقوع في الخطأ. كأنه يقول للمخطئ: ما الذي دفعك إلى الخط من قدرك، وتلويث جبينك بتراب الخطأ، وأنت الجدير بطهارة الجبين وتألقه.

(٧٥) الآية (١٢) من سورة المجادلة.

﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُلَ﴾: عندما تريدون «الإسراء» إلى رسول الله ﷺ بكلام لا تريدون أن يطلع عليه غيركم. فالمناجاة هي الإفضاء سرًا بكلام - يحمل شكوى أو سؤال أو خبر - لا تريد أن يعلمه غير من تُفضي إليه بذلك «السر».

﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ مَخْونَكُمُ صَدَقَةً﴾: فيجب عليكم أن تعطوا من أموالكم شيئاً، تؤدونه إلى رسول الله ﷺ ليضعه في بيت مال المسلمين (الخزانة العامة أو خزانة الدولة) ليُستعان به في الإنفاق على المصالح الشرعية.

فهذه «الصدقة» -المأمور بها في الآية- بمثابة رسم أو تمغة دخول إلى حضرة رسول الله ﷺ. فهي -إذن- ضريبة مفروضة على كل من يرغب في الاستئذان للدخول على رسول الله ﷺ لمناجاته في أمر «شخصي» وسري.

وغني عن البيان أن نقول أن رسول الله ﷺ لن يأخذ هذه الصدقة لنفسه، بل يتسلمها الخادم أو البواب الذي يقوم على باب رسول الله ﷺ، لتوضع في نهاية الأمر في بيت مال المسلمين لتنفق في المصالح العامة للأمة؛ فقد نزه الله ﷻ رسوله ﷺ عن أن يأكل من صدقات (أوساخ) الناس.

وقد سَمَّى الله ﷻ هذا المال المأمور بدفعه "صدقة"؛ لأنه يُبرهن على صدق من يريد الاستئذان والدخول على رسول الله، وجديته في طلب "المناجاة" لأمر هام، يستحق أن يشغل بعضاً من الوقت الثمين لرسول الله ﷺ النبي الذي يتلقى الوحي، والحاكم الذي ينشئ دولة وليدة ويدير شئونها.

ولاشك في أن تقديم هذه الصدقة يعود بالنفع (الخير) على الفرد المواطن الذي قدمها؛ لأنه يأخذ ثواب طاعة أمر الله في الدنيا والآخرة، ويعود -كذلك- بالنفع (الخير) على الأمة التي سيزداد رصيدها (خزانتها العامة) بتحصيل هذه الصدقة.

كما أن تقديم هذه الصدقة قبل الدخول على رسول الله ﷺ والمثول بين يديه سيظهر طالب الاستئذان من الدخول على رسول الله ﷺ لمجرد اللغو والفضول وتحسس الأخبار التي لا يجب عليه العلم بها. من كل تلك الخطايا التي تضيع وقت الرسول ﷺ ووقت العبد فيما لا يفيد. ولذلك قال: ذلك خير لكم وأطهر.

ذلك المال الذي تقدمونه في صدقة الدخول على رسول الله ﷺ أنفع لكم في الدنيا والآخرة ويطهركم من خطيئة إشغال رسول الله فيما لا يفيد. وغني عن البيان أن هذا الأمر بالصدقة مخاطب به القادر على تقديم الصدقة، أما غير المستطيع فلا إثم عليه إن طلب الاستئذان والدخول على رسول الله دون تقديم الصدقة.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تقدمونه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لكم تقصيركم في أداء أمره ﴿رَحِيمٌ﴾ دائم الرحمة بكم إن كنتم مؤمنين.

(٧٦) قوله ﷺ: "وَأَنْ أَتَخَوْفُ أَنْ يَفْتَنُوهَا فِي دِينِهَا" معناه أن يكون زواج علي بن أبي طالب من ابنة أبي جهل -الذي قُتل على الإشراف بالله في غزوة بدر ووصف بأنه عدو الله- مدعاة لأن تقول لفاطمة على سبيل المكايدة: أنا وأنتِ على قدم المساواة؛ فكل منا زوج لرجل واحد، فأبوك (رسول الله) مثل أبي الذي تقولون عنه أنه عدو الله ومصيره النار. فيكون مثل هذا الادعاء سبباً في إدخال فاطمة رضي الله عنها في ابتلاء شديد (فتنة) تشككها في حقيقة الإيمان.

(٧٧) الآية ١٣ من سورة المجادلة.

الإشفاق تخوف من خطر أو مكروه قادم، لا يمكن تحمله أو التعرض له، لم يتحقق بعد ولكن يتوقع حدوثه. فالإشفاق يتعلق بخطر أو مكروه كامن في المستقبل. ومن ثم يبعث على الحذر من أجل تجنب الوقوع أو التعرض لذلك الخطر. فهو خوف من شيء متوقع مقرون بطلب الرحمة. وفي كلمة واحدة هو خوف العاقبة مع تمني النجاة. والإنسان يشفق (يحذر) من شيء يخاف مجيئه على شيء يخشى فقدانه.

وصف الله ﷻ المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]. المؤمنون الصادقون مشفقون (خائفون) على أنفسهم من عذاب الله الآتي يوم القيامة، وهم لذلك يحذرون من الوقوع فيه أو التعرض له بتجنب معصية الله والإكثار من طاعته.

وقال واصفًا المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

[الأنبياء: ٤٩].

المؤمنون يخافون من الوقوف بين يدي الله للحساب يوم القيامة. وهم يؤمنون ويعلمون أن ذلك آت لا محالة، ولذلك يخافون من اللحظة التي يُبعثون فيها من القبور بعد موتهم، وهذه هي «الساعة» التي ستفضي بهم إلى المثل بين يدي الله ليحاسبهم على أعمالهم. إنهم يحذرون تلك اللحظة؛ حتى لا تُفضي بهم إلى العذاب.

«الخشية»: خوف المقام بين يدي الله للحساب.

«الإشفاق»: خوف العاقبة التي ستؤول إليها الساعة؛ لأنها قد تؤدي بهم إلى العذاب. ولذلك فهم يحذرون الوقوع في ذلك المصير البئيس بالإيمان والطاعة. وحتى الملائكة يشعرون بالإشفاق على أنفسهم من الحساب بين يدي الله يوم القيامة؛ لأنهم أيضًا مكلفون ومحاسبون.

قال الله في وصفهم: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: من حسابه يوم القيامة يملأهم الإشفاق على أنفسهم حذرًا من التعرض لعذابه.

وعندما عرض الله ﷻ التكليف بالخلافة (الأمانة) على السماوات والأرض والجبال قبل أن يكلف الإنسان بها، فإنهن «أشفقن من حملها».

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: وخفن من عاقبة حملها؛ لأنها قد تؤدي بهن إلى عذاب الله إن عجزن عن أداء الأمانة (القيام بأعباء الخلافة) على الوجه الذي يُرضي الله ﷻ. أما

الإنسان بباعث من تكبره فإنه بالغ في إحسان الظن بنفسه، وهذا هو معنى وصفه بكثرة الظلم ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وبسبب جهله بالعواقب الوخيمة التي يتعرض لها ويقع فيها؛ إن عجز عن أداء الأمانة، وصفه بكثرة الجهل "جهولا". ولذلك بادر بحمل الامانة دون تحسب للأخطار الكامنة، دون إشفاق على نفسه.

وعندما أمر الله ﷺ المؤمنين الأغنياء بتقديم صدقة لبيت مال المسلمين بين يدي دخولهم على رسول الله ﷺ لمناجاة، فإنهم «خافوا» أن تكون قيمة الصدقة المطلوبة كبيرة، و«خافوا» أن يثقل عليهم أداؤها أو أن تُنقص أموالهم، و«خافوا» أن يجرمهم امتناعهم عن تقديم الصدقة من مناجاة رسول الله ﷺ، فهم يريدون التمتع بمناجاة رسول الله ﷺ وفي نفس الوقت لا يريدون دفع ثمن ذلك، فأشفقوا من الصدقة المطلوبة على تمتعهم بمناجاة رسول الله؛ فعبر الله ﷺ عن حالهم بقوله: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُحُودَكُمْ صَدَقْتُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] وهو سؤال للتقرير لا للاستفهام والمعنى: لقد أشفقتم، أي خفتكم واستثقلتم هذا الأمر.

فخفف الله ﷺ عنهم بإلغاء (نسخ) هذا الحكم على القادرين ماليًا منهم، وأباح لهم التمتع بمناجاة رسول الله ﷺ دون أن يجبروا على تقديم صدقة.

﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ فإذا لم تقدموا صدقة، وتاب الله عليكم رغم تقصيركم في طاعته، ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فحفظكم لفروض الله عليكم هي الصدقة التي تتصدقون بها على أنفسكم؛ لتنجوا من عذاب الله، وتنعموا برحمته وصحبة نبيه في الدنيا والآخرة، ويُسمح لكم - معشر أصحاب رسول الله - بمناجاته.

وتوبة الله على عباده هي عودته ﷻ إليهم باسمه الرحيم (دائم الرحمة)، وهو ما يعني إعادتهم إلى رحمته التي خرجوا منها أو فقدوها حين ارتكبوا معصيته.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يسبق علمه بأعمالكم علمكم بها؛ لأنه سجلها في كتاب علمه قبل أن يخلقكم في هذه الحياة الدنيا؛ لتقوموا بها فتحققون علمه؛ إذ تخرجونه من الغيب إلى الشهادة.

*** **

لقد نزلت هذه الآية في حجرة عائشة، عندما كان رسول الله ﷺ يتناقش مع علي بن أبي طالب في مقدار الصدقة المطلوبة للاستئذان بالدخول على رسول الله. ولذلك ظل علي بن أبي طالب يفخر بأنه كان السبب في التخفيف على الأمة، وأن هذه الآية نزلت بسبب مناقشته رسول الله في مقدار الصدقة، وأنه هو العبد الوحيد الذي نفذ أمر الله ﷻ بتقديم صدقة بين يدي الدخول على رسول الله، وأن الحكم قد نُسخ بعده فلم ينفذه أحد غيره.

قال علي بن أبي طالب: "في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي وهي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَةً﴾ فنسخت بالآية الاخرى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ ءَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقَتٍ﴾.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "لقد كانت لعلي ثلاث، لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى." (انظر تفسير القرطبي: ص ٦٤٧٣).

(٧٨) جمعنا نص هذا الحديث النبوي من مختلف الروايات التي أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه الأحاديث: ٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠، في كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري». وانظر شرح الحديث ووصف معركة «يوم النهروان» في الهامش رقم (٣٨) من هذا الكتاب والفصل الثالث من كتابنا «فتنة الخوارج - ما أشبه الليلة بالبارحة».

(٧٩) سياق يجمع نص الحديث النبوي من الروايات المختلفة التي أوردتها أو أشار إليها ابن حجر في شرحه للحديثين: ٢، ٣٢١٥، ويبين الحديث النبوي أن الوحي (كلام الله) ينزل على قلب النبي ﷺ في صور متنوعة ولذلك قال في آخر الحديث كل ذلك يأتيني الملك، وأنه في أغلب الأحوال يأخذ هيئتين:

الأولى: سماع صوت حاد شديد يشبه صلصلة الجرس. ويكون هذا الصوت بمثابة التمهيد أو الإنذار الذي يطرق قلب النبي وينبهه إلى مجيئ الملك المقرب «جبريل» حاملاً الوحي إليه.

ثم يضمه الملك الرسول ضمًا شديدًا، فيلقي إليه، أي ينث في قلبه أو يقرأ عليه كلام (رسالة) الله إليه، ثم يحمره من قبضته، عندما ينتهي من نقل الرسالة (الوحي الإلهي) ويغادره، وقد وعى النبي ما قيل له.

وقوله "في مثل صلصلة الجرس" يعني: يأتيني الملك وسط أصوات شديدة تسبق ظهوره لي وتشبه صوت صلصلة الجرس في علوها وحدتها.

وقد بين رسول الله حقيقة هذه الصلصلة في حديث آخر، حين جلس مع بعض أصحابه، فرأوا شهابًا يهوي من السماء فيحترق وينير ما حوله.

فقال رسول الله ﷺ لمن معه من أصحابه: ما كنتم تقولون في الجاهلية لهذا - وأشار إلى النجم (الشهاب) الساقط - إذا رُمي به؟

قالوا: كنا نقول مات عظيم، أو يولد عظيم.

فقال ﷺ: "إنها (الشهاب أو الأجسام السماوية المحرقة) لا يُرمى بها لموت أحد، ولا لحياته.

ولكن إذا قضى ربنا الأمر في السماء أو تكلم بالوحي، أخذت السماوات رجفة شديدة من خوف الله" يعني خشية أن تكون أمر الله ﷻ الذي شعرت السماوات

بصدوره، دون أن تعلم مضمونه، يحمل الامر الإلهي القاضي بإنهاء هذا الكون وتحطيم بنائه، وإعادةه إلى نقطة الصفر أو لحظة البداية، أعني إلى المفردة الأولى (بتعبير علماء الفلك والفيزياء) أو «أول خلق» (بتعبير القرآن الكريم).

وأول من يشعر بالرجفة التي تشمل السماوات، ويدرك أن أمراً إلهياً قد نزل من العرش - خارجاً من الغيب - هم حملة العرش؛ ولذلك فهم يسارعون بالسجود إظهاراً للخضوع والطاعة وبالتسبيح تعبيراً عن التعظيم. ولذلك قال رسول الله ﷺ: إذا قضى ربنا الأمر في السماء أو تكلم بالوحي، سبح حملة العرش. أولئك المقربون هم أول من يشعر بصدور (نزول) أمر (كلام) إلهي فيسبحون تعبيراً عن التعظيم للأمر الإلهي، ويسجدون إظهاراً لاستعدادهم بالطاعة.

ثم تنتقل وتنتشر أصوات التسبيح إلى السماوات التالية الأبعد عن العرش، فيعرف أهلها (سكانها) من الملائكة أن أمراً إلهياً قد نزل، فيسارعون بالسجود والتسبيح، ويملأهم الفزع خوفاً أن تكون النهاية، وبداية السير المحتوم إلى الله للمثول بين يديه للحساب ونيل الجزاء. ولذلك قال ﷺ: ثم يسبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا.

وعندما يسجد الملائكة وهم يسبحون، فإنهم يضربون بأجنحتهم وهم يضعونها تعبيراً عن الخضوع والتذلل، وبياناً للاستعداد للطاعة، فتكون حركة الأجنحة الملكية سبباً في حدوث صوت هائل رهيب، يشبه جر سلسلة من الحديد على حجر أملس على جبل. وذلك الصوت هو الصلصلة التي تشبه صلصلة (ضرب) الجرس (الناقوس) المعدني.

قال رسول الله ﷺ: وتضرب الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله ﷻ، فتحدث صوتاً كأنه الصلصلة كجر سلسلة من الحديد على صفوان (حجر أملس).

وعلينا أن نتذكر أن حركة أجنحة الآلاف من الطيور الضخمة تحدث عاصفة، فما بالك بالملايين؟ وما ظنك بالملائكة.

وهكذا تنتقل الصلصلة من كل سماء إلى السماء التي تليها أي التي تحتها، فلا ينزل ذلك الصوت الرهيب الشديد على أهل كل سماء إلا فرعوا وخروا سجداً إذ يظنون أنه من أمر الساعة.

قال رسول الله: ويسمع أهل السماء الدنيا (الأولى) صلصلة كصلصلة السلسلة من الحديد على الصفوان، فلا ينزل على أهل السماء إلا فرعوا، وخروا سجداً يرون أنه من أمر الساعة.

ثم يمحو الله ﷻ الفرع من قلوبهم، فيرفعون رؤوسهم ويسألون حملة العرش عما حملة الأمر الإلهي.

قال: "ثم إذا فُزِعَ (أزيل الفرع) عن قلوبهم قالوا لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيجيبونهم عن سؤالهم بذكر الأمر الذي نزل من الله ﷻ أي الكلمة التي قالها.

قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيخبرونهم ماذا قال.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

«الحق»: العلم الإلهي. والمقصود: إنه أظهر شيئاً من علمه.

«العلي»: الذي لا تتغير إرادته، فهو ﷻ لا يتراجع أو يتقاعس عن شيء أرادته.

«الكبير»: الذي تصير إليه جميع الأشياء، فإنها تتحرك من أجل أن تعود وتتوّل إليه كما كانت قبل خلقها.

وهكذا ينتقل الخبر الإلهي عبر السماوات.

وأول من يُزال الفرع عنه (يُفزع) ويرفع رأسه هو جبريل، فيكلمه الله بما أراد ويأمره بإبلاغه. ويبقى جميع الملائكة على سجودهم وفي فزعهم حتى يرون جبريل آتياً إليهم. وحينئذ يزول عنهم فزعهم ويرفعون رؤوسهم ويسألون ماذا قال الله؟

قال رسول الله: "فلا يزالون كذلك حتى ياتيهم جبريل فإذا جاءهم، فُزّع عن قلوبهم. فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟
فيقول: الحق وهو العلي الكبير.

فكلما مر بساء. سأله أهلها: ماذا قال ربك؟ ماذا قال ربنا؟
فيقول: الحق وهو العلي الكبير. حتى ينتهي به حيث أمر. أي يصل إلى المخلوق المكلف بتنفيذه.

قال رسول الله: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فيخطفها (الكلمة) الجنّي مسترق السمع. ومسترقوا السمع هكذا - وأشار بأصابعه - واحد فوق آخر. وكان لكل قبيل (جماعة) من الجن مقعد من السماء يسمعون منه الوحي.

فيسمع الجنّي مسترق السمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته. فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لا يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، فيقذفون بها إلى أوليائهم، فتلقى على فم الكهنة، فتُخبر الكهنة الناس.

فما جاؤا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه، فيزيدون، فيكذب الكاهن معها (كلمة الحق) مائة كذبة. فيقول الناس ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقًا فتصدق تلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

قدمنا في هذا السياق رواية «تفسيرية» تجمع مختلف الروايات التي أوردتها أو أشار إليها ابن حجر في شرحه للحديثين ٤٧٠١، ٤٨٠٠ في كتابه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» والحديث رقم ٢٤٣٩ في كتاب «صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير» من إعداد محمد ناصر الدين الألباني.

ونعود إلى حديث رسول الله ﷺ إلى الحارث بن هشام، فنقول: إن الصلصلة التي تشبه صوت دق الجرس (الناقوس) التي كان يسمعها نبي الله ﷺ عند نزول الوحي إليه.... هذه الصلصلة هي ما تنهى إلى سمع النبي من صوت ضرب الملائكة في السماوات بأجنحتها، عند شعورهم بأن أمراً (وحيًا) من الله قد نزل خارجاً من قبضة الغيب. وهي الدوي الذي يشبه دوي النحل الذي كان يسمعه القريبون من النبي عند الوحي إليه.

وعندما يسمع النبي ﷺ هذا الصوت الشديد يعلم يقيناً أن وحيًا (رسالة) من الله قد اقترب ونزل إليه. وحينئذ يقبض الملك الرسول جبريل عليه السلام على قلب النبي، ويضمه إليه فيما يشبه الاحتضان (العناق) الحميم.

ثم يلقي في قلب النبي بالأمر (الوحي) الإلهي، أي يقرأ عليه ما أنزل إليه من كتاب ربه، ثم يرسله (يحرره) من القبضة ويغادره.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: "فيفصم عني" أي يفصل عني ويتركني "وقد وعيت ما قال" من كلام الله ﷻ.

ولا شك في أن هذه الهيئة من الوحي تعني في الحقيقة تحول قلب النبي ﷺ إلى ملك سماوي، وهو ما يعني انطلاق الروح المحبوس من قبضة الجسد الأرضي الطيني، وصعوده ليكون ملكًا سماويًا يستطيع أن يتلقى الخطاب من الملائكة، ويفهم عنهم ويكلمهم.

وهي حال تشبه الموت كما وصفها رسول الله ﷺ في حديثه عن أول مرة جاءه الوحي عندما نزل قول الله ﷻ: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] في غار حراء.

والموت يعني خروج الروح من قبضة الجسد، ولكن لا يتحقق الموت ويتم إلا بفراق النفس للروح، وحبسها في كتاب العلم الإلهي، حيث لا تخرج (تنطلق) منه إلا

عند البعث من القبور. أما في حال الوحي فإن النفس تبقى معلقة بالروح، الذي انطلق من قبضة الجسد، وبقي عالقاً في صحبة الملائكة خارج قبضة (سيطرة) الجسد.

ولاشك في أنها حال عسيرة جداً على النبي، البشر المخلوق جسده من طين الأرض. ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبيته ليتفصد (ينزف ويسيل) عرقاً.

ولقد أخذ الحارث بن هشام - الذي سأل عن كيفية نزول الوحي - يلاحظ رسول الله حين الوحي إليه فوصف ما شاهده بقوله: وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه.

ولذلك وصف النبي ﷺ هذه الصورة من الوحي بقوله: "وهو أشده عليّ".

(ب) الصورة الثانية هي أن يتحول الملك الرسول إلى هيئة البشر، فيكلم النبي كما يتكلم الناس مع بعضهم البعض. ولاشك في أن هذه الهيئة من الوحي يكون من السهل تحملها. ولذلك قال عنها رسول الله ﷺ: "وهو أهونه عليّ".

(٨٠) نسجنا هذه القصة من التفاصيل التي حملتها الروايات المختلفة التي أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٩٢٦، ٣١١٠، ٣٧١٤، ٣٧٢٩، ٣٧٦٧، ٥٢٣٠، ٥٢٧٨، في كتابه «فتح الباري بشرح صحيح البخاري». ولقد أشار رسول الله ﷺ في نهاية خطبته إلى أن أبا العاص زوج ابنته الكبرى زينب. وكان أبو العاص قد تزوج من زينب قبيل أول فوج من القرآن، وظل على كفره رغم إيمان زوجته زينب بنت رسول الله ﷺ، بل جاء محارباً المسلمين يوم معركة بدر الكبرى في رمضان من العام الثاني بعد الهجرة ووقع أسيراً. ولما رأى رسول الله ﷺ أن يحرق الأسرى مقابل فداء يدفعونه للمسلمين، فإن زينب أرسلت قلادة أمها خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ من مكة؛ لتفتدي زوجها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة خديجة

الذهبية، بكى وطلب من المسلمين أن يردوا على ابنته قلادة أمها، وأن يمنوا على زوجها بالفك من الأسر بلا فداء. فوافقوا على ذلك.

وطلب رسول الله ﷺ من زوج ابنته أن يرسلها إليه من مكة، إذ رأى أنه لا ينبغي لابنة رسول الله أن تبقى تحت رجل كافر. فوعده أبو العاص وفعل ذلك.

ذلك بيان قوله ﷺ عن أبي العاص: "حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي". (انظر ترجمة أبي العاص في كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» الجزء الخامس: ص ٤١٦ - ٤١٧).

(٨١) المصدقون هم جامعوا أموال الزكاة (الصدقة المفروضة بحكم القرآن الكريم) وهم العاملون على الصدقة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤْهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠].

وهم يناظرون موظفي الضرائب في الدولة العصرية الحديثة، الذين يجمعون الأموال الخاضعة لحكم قانون الضرائب، ويؤدونها إلى الخزانة العامة للدولة؛ لتوضع تحت تصرف الحاكم (السلطة السياسية) للإنفاق منها على المصالح العامة.

وكذلك كان يفعل المصدقون الذين يعينهم رسول الله ﷺ - باعتباره حاكماً على الناس - ويرسلهم إلى مختلف القبائل لجمع أموال الزكاة، لتودع في بيت مال المسلمين وهو الخزانة العامة للدولة، لتنفق في المصارف الشرعية التي ذكرتها الآية وهي:

١ - الفقراء: وهم من لا يملكون المال الذي يقوم بحاجاتهم الإنسانية الضرورية وهي الطعام والكساء والبيت ووسائل حفظ الحياة والصحة، إنهم من لا يملكون الوسائل التي تدر عليهم المال الكافي لتوفير الحد الأدنى من ضروريات الحياة الإنسانية التي تليق بكرامة أبناء آدم ﷺ خليفة الله ﷻ في أرضه.

٢- المساكين: هم من يملكون وسائل تدر عليهم قدرًا من المال يكفي لتوفير «بعض» احتياجاتهم الإنسانية الضرورية، ولكنهم يحتاجون إلى المساعدة لاستكمال إشباع تلك الحاجات، ولمواجهة المصائب الطارئة التي يعجزون عن القيام أمامها دون مساعدة من الآخرين مثل مرض مفاجئ أو مزمن لا يقدرّون على القيام بأعباء علاجه، أو حريق، أو موت العائل، أو....

قال العبد الصالح مفسرًا لكليم الله «سر» إفساده للسفينة التي خرقها: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فهم "مساكين" يملكون سفينة، يعملون عليها في البحر لتوفير احتياجات معيشتهم الأساسية، ولكنهم لا يقدرّون على مواجهة المصيبة التي تحل بهم، عندما يأخذ الملك الظالم سفينتهم غصبًا؛ فيفقدون وسيلة رزقهم، وليس لديهم فائض يواجهون به هذه الكارثة.

٣- العاملون عليها: ونفهم من هذا أن العاملين على الزكاة يأخذون أجورهم (رواتبهم) من أموال الزكاة. والمعنى المقصود: وجوب استقلال ميزانية الزكاة عن بقية ميزانية (موازنة) الدولة. ولذلك يجب أن تكون للمؤسسة التي تقوم بجمع الزكاة موازنة خاصة مستقلة عن بقية موازنة الدولة. فهي مؤسسة مستقلة «ماليًا» تقوم بخدمة الأهداف الشرعية المتمثلة في مصارف الزكاة ولا تمثل عبئًا على الدولة، بل على العكس من ذلك، فإن مؤسسة الزكاة تخفف الأعباء عن الدولة (السلطة السياسية التنفيذية أي الحكومة) إذ تقوم برعاية المحتاجين لأموال زكاة. بل إنها تقدم بعض الفائض من أموالها إلى الحكومة؛ لتساعدها في القيام بالإنفاق على المصالح العامة، التي تعود بالنفع على مجموع الناس، فمؤسسة الزكاة لها ميزانيتها الخاصة لكنها تخضع لسلطة الدولة.

٤- المؤلفة قلوبهم: وهم الكافرون غير المؤمنين بالإسلام، الذين ينضمون للدولة المسلمة، ويخضعون لأحكامها كمواطنين، أو يدخلون في جماعة المسلمين ليس عن إيمان بل لتحقيق بعض الأغراض الدنيوية.

هؤلاء يُخشى من ضررهم على الدولة المسلمة وعلى جماعة المسلمين، ويجب التودد إليهم لضمان ولائهم بدفع بعض أموال الزكاة إليهم.

وضبط الإنفاق في هذا المصرف يخضع لتقدير الحاكم أو السلطة التنفيذية التي تدير شئون الدولة. ومعنى هذا -بكل تأكيد- إن أموال الزكاة تحت تصرف الحكومة في نهاية الأمر.

٥- وفي الرقاب: ومن أجل تحرير الرقاب، أي العبيد الواقعين في أسر الرق (العبودية) ولم يعد لهذا المصرف مجال في العصر الحاضر بعد تحريم استعباد البشر، ولا تجرؤ دولة في العصر الحاضر على إعلان أنها تقر الرق، وإن كانت تمارسه أو تسمع به في الخفاء. ولكن هذا النص يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام قد حارب الرق وعمل على إزالته ومحو عاره من المجتمعات البشرية؛ إذ جعل تحرير الرقاب من العبودية فرضاً (واجباً) على الحاكم المسلم، بجعله مصرفاً من مصارف الصدقة المفروضة.

٦- الغارمون: وهم المدينون (المقترضون) الذين عجزوا عن السداد.

٧- وفي سبيل الله: ومن أجل نشر الإسلام؛ فإن الإسلام هو سبيل الله بنص القرآن الكريم ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومعنى هذا المصرف هو إنفاق بعض أموال الزكاة على الدعوة إلى الإسلام. والمقصود الإنفاق في تعليم الناس عقيدة الإسلام وشريعته ونشر الإسلام. والتطبيق

العملي لذلك هو إعداد الدعاة، وتوفير وسائل الدعوة لإقناع الناس بالدخول في الإسلام (سبيل الله). ولما كان أعداء الإسلام لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام دخول الناس في دين الله أفواجاً؛ لأن مصالحهم الدنيوية تقتضي محاربة الدعوة إلى دين (سبيل) الله. ولذلك لا بد أن يتم إعداد القوة الكافية لردع ومحاربة الذين "يريدون إطفاء نور الله ومنع انتشاره".

وبذلك يجب إنفاق بعض أموال الزكاة في إعداد وتقوية جيوش المسلمين من أجل الدفاع عن «المستضعفين» من المسلمين، وهم الأقليات المسلمة في المجتمعات الغير إسلامية التي تقوم أنظمتها السياسية باضطهاد المسلمين وانتهاك حقوقهم. وهذا هو الأساس الذي بُنيت عليه فريضة الجهاد (القتال في سبيل الله).

٨- أبناء السبيل: وهم المشردون الذين فقدوا بيوتهم ووسائل معيشتهم بسبب الكوارث الطبيعية (الزلازل والبراكين والأعاصير، والحرائق،....) والكوارث البشرية (الحروب) وفي كلمة واحدة «ضحايا الكوارث».

﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾

ويتضح مما تقدم أن القيام بواجب (فرض) الزكاة (الصدقة المفروضة) هو عمل السلطة السياسية (الحكومة) في الدولة الإسلامية. بل هو الواجب الأول عليها كما يتبين لكل من قرأ القرآن الكريم وسنة النبي المختار.

ولذلك كان رسول الله يسلم رؤساء الوفود الذين يقدمون عليه للمبايعة للدخول تحت سلطة الدولة (السلطة السياسية) «كتاباً» فيه أحكام الزكاة،

ولننظر إلى قول ﷺ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والتمكن في الأرض يعني إقامة السلطة السياسية (الحكم).

ولننظر إلى قوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْهَكْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿[فصلت: ٦-٧] الذي يعتبر الامتناع عن أداء الزكاة والقيام بها ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خروجاً من الإسلام، يصم أصحابه بأنهم قد صاروا من «المشركين» رغم أنهم في الظاهر يعلنون الإسلام وينسبون أنفسهم إليه.

وكذلك أخبر أنهم سيكتشفون في الحياة الآخرة -بعد البعث من القبور- أنهم من الكافرين وليسوا من المؤمنين؛ إذ قال: وهم بالآخرة هم كافرون. يعني: إنهم عند الحساب بين يدي الله ﷻ في عداد الكافرين وليسوا في جماعة المؤمنين.

وبناءً على هذه الحقيقة، نستطيع أن نقول -بكل بساطة ووضوح- إن السمة الأساسية التي تمنح السلطة السياسية شرعيتها الإسلامية هي القيام بواجب الزكاة جمعاً (تحصيلاً) وإنفاقاً. فهذا ما يمنح الحكومة «هويتها» الإسلامية. وبذلك يتضح لنا سفاهة أصحاب الشعارات الجوفاء من فرق تيار الإسلام السياسي الذين يطلبون السلطة باسم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية متوهمين أن ذلك يعني تطبيق الحدود (العقوبات) على الجرائم مثل قطع يد السارق، وجلد الزاني،.... كأنهم يعرفون المجتمع الإسلامي أو الدولة الإسلامية بأنها الدولة التي تقطع يد السارقين فيها أو تجلد الزناة أو ترجمهم...

وهو تعريف يحط -بلا شك- من شأن الإسلام، ويخيف الناس من الاهتداء بنوره (القرآن) ويمنعهم من الدخول فيه؛ إذ يعبر عن رؤية بالغة الضيق والقسوة لرسالة الإسلام الإلهية.

ولكن إذا عرفنا الدولة الإسلامية بأنها الدولة التي يقوم حاكمها بجباية الزكاة من الأغنياء لينفقها في مصارفها الشرعية التي بينها آفءا، والتي على رأسها مساعدة الفقراء والمساكين من أجل توفير احتياجاتهم الإنسانية الضرورية، أو بكلمات أخرى:

إنها الدولة التي توفر الطعام للجوع والكساء للعراة والمأوى للمشردين والدواء للمرضى والعمل للمتبطلين، فإننا نكون قد تطابق تعريفنا مع نص القرآن الحكيم وأصبنا كبداً للحقيقة، كما يقال.

وعلى أساس هذا الفهم الصحيح عمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول خليفة (حاكم) للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه «الصديق» الذي يعرف حقيقة رسالة الإسلام؛ السبيل الموصل إلى الله. ولذلك قاتل دفاعاً عن الدولة الإسلامية - التي تستحق شرف هذه التسمية - الممتنعين عن دفع الزكاة. تلك الحرب التي أخذت في التاريخ اسم "حروب الردة". فكان الامتناع عن دفع الزكاة ارتداداً عن الإسلام. فتأمل!!

وعلياً أن نلاحظ أن جميع فروع الإسلام، أو أركانها التي يقوم عليها ذات طبيعة فردية يؤديها الإنسان الفرد إلا الزكاة؛ فإنها فريضة جماعية، أو بالأحرى اجتماعية يقوم بها الحاكم وهو ما يمنح الدولة (السلطة السياسية) هويتها الإسلامية.

ومن ثم، فإن الخطوة الأولى والأساسية لإنشاء الدولة التي تستحق الوصف بالإسلامية هي إقامة فريضة الزكاة، وليس تنفيذ العقوبات على بعض الجرائم (الحدود). ولننظر إلى جميع حكومات دول العالم الإسلامي في ضوء هذا الفهم لنعلم كم ابتعد المسلمون عن حقيقة الإسلام سواء كانوا من الحكام أو المعارضين رافعي الشعارات الإسلامية!!

(٨٢) انظر «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» الجزء السادس: ص ٣٢٤.
"العفو" هنا يعني ما زاد على الوفاء بالحاجات، وسهل على النفس البشرية تركه أو التنازل عنه.

(٨٣) انظر نص كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان يسلمها لجامعي الزكاة في كتابنا «الزكاة طريق العودة إلى حقيقة الإسلام».

(٨٤) سورة سبأ: الآيتين ١٥، ١٦.

(٨٥) انظر كتاب «تاريخ العرب القديم» للاستاذ الدكتور / محمد بيومي مهران -
الجزء الثاني: ص ١٠٤ - ١١٣.

(٨٦) انظر كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» - الجزء السادس
ص: ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٨٧) نسجنا هذا المشهد من روايتنا من مختلف الأخبار التى أوردها الإمام
النووى فى شرحه لحديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه فى كتاب " صحيح مسلم بشرح
النووى - الجزء الخامس - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحريم الكلام فى
الصلاة ونسخ ما كان قبل ذلك " ص ٢٠ - ٢٥ والروايات التى أوردها أو أشار إليها
ابن حجر فى شرحه للأحاديث رقم ٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٥٣، ٥٧٥٤، ٥٧٥٥،
٥٧٥٦، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١، والحدثين ٣٩٦٠، ٦٢٦٤ فى كتاب " صحيح
الجامع الصغير وزيادته - فى كتاب " فتح البارى بشرح صحيح البخارى.الفتح
الكبير " من إعداد الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى، والروايات التى أوردها
الإمام القرطبى فى كتابه " الجامع لأحكام القرآن " الواردة ص ٦١٤٤ - ٦١٦١
والروايات التى أوردها الإمام ابن كبير فى تفسيره للآية ١٢ من سورة الحجرات.

ولبيان هذا الحديث النبوى نقول: إن كل ما يقع على الأرض من أحداث،
ويشاهده الناس فى حياتهم الدنيا، مسجل (مدون) فى كتاب العلم الألهى، فقد سبقت
كتابته فى اللوح المحفوظ قبل بدء خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وعندما يريد الله تعالى أن ينفذ شيئاً من ﴿ ذَلِكَ أَنْزَلْنَا ﴾ فإن نوراً ينزل من روح الله
على ذلك الشيء المودع فى اللوح المحفوظ (كتاب العلم الإلهى) فيخرج هذا الشيء من
الغيب إلى الشهادة، أى يصبح مشهوداً أو يدخل فى أفق (مجال) الشهادة بعد أن كان
غائباً مستوراً.

ويتبين الملائكة المقربون هذا الشيء، ويعلمون أن الله ﷻ يريد إظهاره (خلقه) فيكتبونه بالأقلام النورانية التي في أيديهم، على الصحف التي معهم، ويسلمون الأمر إلى الملائكة الذين يلونهم، والمكلفون بإنفاذه في الأرض. وقد بينا في الهامش رقم (٨٠) كيف كان الوحي ينزل إلى الأرض.

وعندما ينزل الملائكة المكلفون بإنفاذ الأمر الذي (قضى في السماء) إلى السحاب (العنان) ويتحدثون مع بعضهم في الأمر المراد أن (يكون في الأرض) أى المطلوب إنفاذه تحقيقاً لعلم الله ﷻ، فإن بعض مرده الشياطين (الكائنات المخلوقة أجسادها من الدخان، الذين لهم القدرة على الصعود من الأرض والارتفاع نحو السماء) يستطيعون استراق (اختلاس) السمع إلى حديث الملائكة، ومن ثم يلتقطون بعض الأخبار التي ستكون على الأرض. وهو ما يعنى أنهم يكون في وسعهم العلم ببعض ما سوف يتحقق على الأرض.

فيخطفون تلك الكلمة من الحق (العلم الإلهي) ويسارعون بإلقائها في أسمع أوليائهم من الكهان قبل أن تصل إليهم الشهب لتحرقهم.

وهم يعملون ذلك من أجل مساعدة الكهان على التكبر على سائر الناس؛ بزعم علمهم الغيب. ويفرضون سلطانهم عليهم بتلك الدعوى، أى بالقدرة على التنبؤ بما يخبئه المستقبل؛ لأن الإنسان مدفوعاً بما غرز فيه من علم الله إلى التطلع إلى معرفة ما يخفيه الزمن في قابل الأيام. كما قال الله ﷻ في وصف الإنسان: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥] والمعنى: يريد أن يثقب ويحطم جدار الزمن الذي أمامه؛ ليعلم المخبوء في المستقبل.

ولما كانت غاية الشياطين هي اخفاء الحقيقة وإضلال الناس، وليس كشف الحقيقة وهداية الناس، فإنهم يخلطون مع الكلمة الواحدة التي تمكنوا من خطفها من كتاب العلم الإلهي، عن طريق اختلاس السمع إلى حديث الملائكة، يخلطون مع تلك الكلمة من الحق مائة كذبة؛ من أجل أن يتأخروا أمام أوليائهم من الكهان بكثرة العلم.

وكذلك يفعل الكهان، فإن هدفهم هو فرض سلطانهم على الناس، ونهب أموالهم، فيلقون إلى الناس ما ألقاه الشياطين عليهم.

لذلك فلقد تصدق بعض "نبؤات" الكهان في أحيان قليلة، لكن أغلب حديثهم أكاذيب يراد بها إضلال الناس، وإفساد حياتهم. ولذلك فيجب عدم الثقة في أقوال الكهان ولا الذهاب إليهم أصلاً.

قوله ﷺ: " فيقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة " تشبيه لصوت الشيطان في سمع وليه من الكهان، وأن كلامه يكون غامضاً غير مبين. ومن ثم فإن الكاهن (مدعى العلم بالغيب) يكون مضطراً إلى إضافة الكثير من تأويلاته وأوهامه حتى يقدم صيغة مفهومة للنبؤة المدعاة، وبالطبع فإن تلك النبؤة المدعاة تكون مليئة بالأخطاء والأكاذيب.

وقوله: " لا طيره " يعنى لا حقيقة ولا مشروعية للتطير. وأصل التطير أن العرب قديماً في الجاهلية، كانوا إذا قصدوا إلى عمل شيء مثل الخروج في قافلة أو إتمام زيجة، فإنهم كانوا يذهبون إلى الكاهن سادن (خادم) أحد الأصنام، ويطلبون منه التنبؤ بما في عملهم المقصود من خير أو شر: هل ستربح القافلة التجارية، أم ستخسر؟ هل هي زيجة موفقة، أم ستفشل؟

وكان الكاهن يأتى بجماعة من الطير. ثم يطلقها. فإن طارت ناحية اليمين، تفاءلوا واستبشروا وأقدموا على ما قصدوا نشطين فرحين. وإن اتجهت الطيور ناحية الشمال، تشاءموا وتوقوا الفشل والخسران، فأحجموا عن عمل ما كانوا يقصدون.

ثم غلب معنى التشاؤم والاحجام على هذا الطقس الجاهلى الخرافى، فصار لفظ الطيرة أو التطير يعنى التشاؤم والاحجام عن العمل الذى كان الإنسان مقدماً عليه؛ بسبب رؤيته شيئاً يكرهه أو سماعه صوتاً منفراً يزعجه، كأن يرى في الصباح قطرة سوداء أو يسمع صوت بومة..

وقوله ﷺ: " لا طيرة " معناه: إن إستلهم إتجاه حركة الطير، أو رؤية أى شىء من أجل معرفة المخبؤ فى المستقبل (الغيب) ليس إلا ضلالة قائمة على الوهم؛ فلا يقبلها الدين كما يرفضها العقل.

وقد فسر هذا المعنى بقوله " ذاك شىء يجدونه فى صدورهم " والمقصود إن توقع حصول الضرر والشر، عند رؤية حركة الطير إلى ناحية الشمال، أو رؤية أو سماع أى شىء آخر ليس إلا خوفاً مرضياً؛ ينشأ من وهم يقوم على عقيدة خاطئة أو إساءة ظن. ومن ثم فهو خوف لا أساس له ولذلك لا يجب على الإنسان أن يحجم عن عمل أى شىء لمجرد أنه تطير منه. فقال " فلا يصدنهم " أى عما نوا عمله.

ثم بين فساد العقيدة الكامنة وراء الطيرة وهى إدعاء الإنسان القدرة على العلم بالمخبوء وراء حجاب المستقبل، بوسائل خرافية يخترعها. والمخبوء فى المستقبل من الغيب الذى انفرد الله ﷻ بعلمه، ولا يتمكن من الإطلاع عليه إلا من اختاره الله ﷻ من عباده. وليس المقصود هنا " التنبوء العلمى " القائم على أدلة وحسابات دقيقة، تعتمد على دراسة الأجسام بطرق علمية مثل: حساب أزمئة كسوف الشمس وخسوف القمر وأماكن وجود النفط أو المياه الجوفية، وكل ذلك يقع تحت سلطان العلم البشرى.

وإنما المقصود مستقبل أفراد البشر ويصيرهم النهائى. وهو المعنى الوارد فى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ [لقمان: ٣٤].

لقد ابتلى (امتحن) الله ﷻ الإنسان بالجهل بمصيره، ليستخرج بذلك الجهل المودع فى قلبه من الإيمان أو الكفر، إذ أن الجهل بالمصير المحتوم، يتيح للإنسان اختيار ما يريد، أى يعطيه الفرصة للتعبير عما فى نفسه من بواعث لتحقيق ذاته. فلو علم السارق بأن الشرطة ستلقى القبض عليه، وأن القاضى سيحكم بسجنه، ما أقدم على السرقة. وكف

نفسه عن ارتكابها. ولكنه يجهل ما سوف يحدث، ويمنى نفسه بالنجاة والظفر بما سرق. ولذلك تسول له نفسه السرقة، فيسرق. ولو علم بمصيره لأمسك عن السرقة وإن بقيت في نفسه الرغبة فيها.

هكذا يتبين لنا أن حرية الإنسان مرهونة بجهله بمصيره. وهذا هو جوهر ابتلاء الله ﷻ له وعندما يدعى الإنسان القدرة على العلم بالغيب بأى وسيلة خرافية يصطنعها، فهو - في الحقيقة - يدعى مشاركة الله ﷻ فيما الفرد به بموجب الألوهية. ولذلك قال رسول الله ﷺ: "الطيرة شرك"؛ لأنها دعوى مشاركة الله في علم الغيب وهو من صفات الألوهية.

ولما كانت الطيرة صورة من صور الضلال، فلا بد أن تعود على الإنسان بالضرر، وتفسد حياته؛ إذ قد تدعوه إلى الاحجام عما يكون فيه نفعه، أو تسوقه إلى مافيه ضرره، ومن صح إسلامه لله ﷻ لا يمتنع عن فعل شيء قصده؛ بسبب تشاؤمه من رؤية شيء يكرهه. ولذلك قال ﷺ "ولا ترد مسلماً" ولفظ مسلماً هنا يعنى مؤمناً صحيح العقيدة.

وقوله ﷺ "وخيرها الفأل" ويعنى وأفضل مافى تلك الأمور التى تعبر عن ميل الإنسان الفطرى إلى معرفة المخبوء فى المستقبل، وتطلعه إلى استكشاف ما ورى عنه، مما سيحدث له من نفع أو ضرر هو "الفال" الذى يعنى التفاؤل. وهو الاستبشار وتوقع حدوث الخير (النفع) وفسره رسول الله ﷺ بأنه "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم" والمعنى: عندما يقصد (ينوى) الإنسان عمل شيء، فإن سمع كلمة طيبة تبشره بنجاح مسعاه، وحصوله على مبتغاه، فاستبشر وتوقع الخير، فإن ذلك يعد أفضل محاولات الانسان لاستكشاف الغيب؛ لأنه قائم على حسن ظن بالله ﷻ والإيمان برحمته ورعايته لعباده.

ولاشك فى أن التفاؤل يبعث الإنسان على النشاط والاجتهاد فيما شرع فيه؛ حتى يظفر حقاً بما يريد.

قوله ﷺ: " ثلاث لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد " بيان أن هذه ثلاثة أمراض نفسية يصاب بها كل البشر، بدرجات متفاوتة. فأما " الطيرة " فهي - كما بينا - تعنى التشاؤم، الذى قد يبعث على الاحجام عما أقدم عليه الإنسان. وأما " الظن " فيعنى إساءة الظن بالآخرين واتهامهم بالعيوب والآثام دون دليل. ويصير الظن محرماً إذا تعلق بما يجب شرعاً إحسان الظن به؛ مثل رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والعلماء والأتقياء. وأما الحسد فهو بغض (كره) من فضل على الإنسان فى نعم الدنيا، وتمنى زوالها منه.

ثم بين رسول الله ﷺ علاج هذه الأمراض النفسية التى تعترى كل البشر فقال:

فإذا تطيرت فلا ترجع. فعندما تتشاءم لرؤية أو سماع شىء؛ فلا تحجم عما عزمت عمله، بل امض وأقدم على ما نويت مادام العمل مشروعاً تبيحه شريعة الله وموافقاً للعقل. لا تجعل تشاؤمك سبباً فى النكوص عن العمل الذى نويته.

" وإذا ظننت فلا تحقق " وإذا أسأت الظن بإنسان، فلا تمض إلى التحقق من ظنك؛ بالتجسس عليه وتحسس عوارته؛ لكى تؤكد لنفسك صحة ظنك، أو لا تجعل من ظنك الذى ليس عليه دليل حقيقة تتصرف بموجبها؛ لأن ذلك يسوقك إلى انتهاك حرماته، والاعتداء عليه دون وجه حق.

كما قال القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

والمعنى: ولا تتبع ما لا تملك عليه دليل؛ لأن العلم هو ما قام على الدليل الصحيح الذى يقبله العقل (الفؤاد)، فلا تمش وراء الظنون ولا تجرى خلف الأهواء، بل ابحث عن الدليل قبل أن تتحرك. ولماذا يجب على الإنسان أن يضبط سلوكه بالعلم (بالدليل)؟.

والجواب: لأن الله قد وهب الإنسان السمع والبصر والعقل (الفؤاد) - وهذه هي وسائل العلم -؛ من أجل أن يحاسبه يوم القيامة على أعماله؛ فالإنسان مسئول عن كل عمله، الذى ينبغى أن يخضع لحكم العلم، الذى يحصله الفؤاد، وهو العقل، والعقل هو مناط التكليف.

لقد وهب الله ﷻ الإنسان وسائل تحصيل العلم الا وهى السمع والبصر والفؤاد (العقل) والإنسان مسئول لا محالة أمام الله يوم القيامة عن النعم التى وهبها الله له كيف استعملها. قال رسول الله ﷺ: لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟ والمعنى: لا يغادر العبد مقام الحساب بين يدي الله إلا بعد أن يسأل عن هذه الأربع.

فقوله: وعن علمه ما فعل فيه؟ معناه أن أعمال الإنسان يجب أن تعبر عن علمه، الذى اكتسبه بوسائل التعلم التى وهبها الله له وهى: السمع والبصر والفؤاد. فأعمال الإنسان مرآة لعلمه. فإذا أهمل الإنسان العلم، وسار وراء الأوهام محتقراً بذلك وسائل التعلم التى وهبها الله ﷻ له حاسبه الله حساباً شديداً، لأنه ازدرى جحد النعمة الكبرى التى فضله الله ﷻ بها على سائر مخلوقاته.

"وإذا حسدت فلا تبغ:"

وإذا كرهت النعم التى فضل بها غيرك عليك، وتمنيت زوالها منه، فينبغى ألا تدفعك هذا الشعور إلى البغى عليه؛ رغبة منك فى إزالة النعم أو انتزاعها منه.

"وإستغفر الله" من كل الذنوب التى تقع فيها بسبب تطيرك وظنك وحسدك.

وقول معاوية فى الحكم ﷺ: "ومنا رجال يخطون" معناه: إنه كان من العرب قديماً رجال يرسمون خطوطاً على الرمال، أو على الأرض الرطبة الرخوة، ثم يقومون

بتلاوة بعض التعاويذ - وهى ألفاظ محفوظة كانوا يعتقدون بقوتها السحرية أو قدرتها الغيبية على كشف المجهول - ثم يقومون بمحو تلك الخطوط على نحو مخصوص، مدعين بأنهم بهذه الطريقة يستطلعون المخبئ وراء جدار المستقبل، ويتنبئون بما سيحدث فيخبرون من يطلب منهم عمل ذلك رغبة منه فى الكشف عن حظه أو قدره.

وكان هذا ضرباً من الكهاتة يشبه ما يزال موجوداً فى عصرنا منها مثل: قراءة الكف وقراءة الفنجان وضرب الودع،

الذى يعنى وضع بعض المحارات أو الأحجار فى ترتيب معين وقراءة بعض التعويذات بدعوى إنهم بهذه الأساليب الخرافية يستطيعون الكشف عن المستور فى مصائر البشر وراء حجاب الغيب. وقوله ﷺ: " كان نبى من الأنبياء يخط " معناه أن الله ﷻ قد منح أحد أنبيائه السابقين علماً لدنيا - عبر الوحي - كان يمكنه من قراءة مدلولات ترتيب الخطوط على وجه الأرض، وما تشير إليه من أحداث المستقبل. كان ذلك علماً خاصاً بذلك النبى، حصل عليه على سبيل الهبة من الله الوهاب المنان ﷻ. ومن ثم فليس لأحد غير ذلك النبى أن يدعى العلم بمعانى تلك الخطوط. وقوله: "فمن وافق علمه فذاك".

معناه: فمن حصل من العباد على العلم الألهى الذى حصل عليه ذلك النبى، فذاك العبد هو الذى له أن يمارس ذلك العمل (الخط). وهى صياغه على سبيل التحدى والتعجيز مثل قوله ﷻ للنبي ﷺ: وإن كبر عليك إعراضهم فإن إستطعت أن تبغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴿وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْنِىَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥] والمعنى: إن كنت يا محمد لا تستطيع أن تصبر على كفر الناس بك، ونفورهم من دعوتك ورفضهم طاعتك، ولا تقبل ذلك، فإن كان فى وسعك أن تحفر نفقاً فى الأرض، لتدخل فى باطنها

وتأتى لمن أعرض عنك بآيه أو كان فى وسعك أن تصعد إلى السماء بسلم، لتأتى بآية تجعلهم يؤمنون بك ويطيعونك فافعل.

والمقصود إنك لن تستطيع أن تفعل ذلك، ولن تتمكن أبداً من اقناعهم بالإيمان بك وطاعتك، بأى آية؛ لأن الله قد اختار (شاء) أن يجعل الناس مختلفين، ومنقسمين إلى مؤمنين وكافرين فلا تكونن من الجاهلين الذين يتوهمون أن فى استطاعتهم جمع الناس كلهم على الهدى (الإيمان) مخالفين بذلك الوهم الحقيقة الإلهية التى قضت باختلاف الناس.

فقوله ﷺ: "فإن استطعت".

جاء على سبيل التعجيز. وكذلك قوله ﷺ: "فمن وافق علمه" علم ذلك النبى "فذاك" الذى من حقه أن يمارس طقوس الخط.

وقد اضطربت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث النبوى فى الروايات المختلفة، فجاءت رواية الإمام مسلم فى صحيحه بلفظ: "فمن وافق خطه فذاك" وجاءت روايات أخرى بلفظ: "الخط علمه نبى من الأنبياء فمن صادق مثل علمه علم".

وبسبب هذه الروايات المضطربة التى شابتها ركافة الرواة انزلت بعض كبار العلماء والمفسرين إلى اعتبار أن الخط - بالمعنى الذى ذكرناه - علم قد أهمله الناس. وذكروا فى ذلك رواية منسوبة لابن عباس رضي الله عنهما.

ويقول ابن الأثير: الخط المشار إليه علم معروف، وللناس فيه تصانيف كثيرة، وهو معمول به إلى الآن (عصر ابن الأثير) ولهم فيه أوضاع واصطلاح وأسماء وعمل كثير، يستخرجون به الضمير (المخبؤ فى الغيب) وغيره، وكثيراً ما يصيبون.

(انظر كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" - الجزء السادس:

ص ٤٠٥-٤٠٦)

وهو كلام يضيفى شرعية على ذلك الضرب من الكهانه والدجل، ويتناقض مع الحديث النبوى الصحيح!!

(٨٨) كان رسول الله ﷺ يفرض على القبائل أن ترسل أموال الصدقة المفروضة (الزكاة) إلى عاصمة الحكم فى المدينة المنورة؛ حتى يؤكد للناس أن الزكاة ضريبة يفرضها حاكم الدولة (السلطة السياسية) وحتى يبين للناس أنهم ينتقلون اجتماعياً وسياسياً من طور القبيلة إلى طور الدولة، وأن السلطة تتحول من زعيم القبيلة إلى رئيس الدولة الذى يدير شئون الأمة، من مركز الحكم أى العاصمة، وأن الخضوع لم يعد لأمر شيخ القبيلة، بل للقانون الذى يفرض سيادته على جميع أفراد الأمة أو المواطنين، وليس على أفراد القبيلة أو أبنائها.

أما الوضع الدائم الذى ينبغى أن تكون عليه الزكاة فهو جمعها وتوزيعها فى نفس المكان الذى حصلت منه، كما جاء فى آخر أمر للنبي ﷺ عندما بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه، حاكماً على بعض أجزاء اليمن، فى السنة العاشرة بعد الهجرة، أى فى خاتمة أيام التشريع. فأمره أن يأخذ الزكاة من الأغنياء ليردها على الفقراء: فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. ومعنى هذا أن أخذ الصدقة المفروضة أصبح فى يد

(تحت سلطان) الحاكم المحلى، الذى يُعد نائباً لرئيس الدولة فى حكم الولاية، أو المنطقة التى وُضعت تحت سلطته، وأن قسمة أموال الزكاة تكون على الفقراء والمحتاجين فى نفس الموضع.

(٨٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١].

تحرم الآيات على المؤمنين بعض الأخلاق السيئة، التى ينبغى أن ينزهوا أنفسهم عن السقوط فيها وهى:

(أ) السخرية: وهى الاستهزاء بالآخرين بوصفهم واطهارهم فى صورة تقلل من شأنهم وتخط من كرامتهم بين أقرانهم، وتجعلهم موضع الاحتقار من غيرهم.

﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾.

والسخرية خطيئة تقوم على الاعتقاد الجازم بأن الساخر أفضل شأنًا وأعلى مكانة ممن سخر منه. ومن ثم، فإن السخرية هى إحدى ثمار التكبر الذى هو أصل كل الخطايا. ولذلك قال الله ﷻ مبيناً وهم الساخرين باعتقادهم أنهم أفضل ممن سخروا منهم: عسى أن يكونوا خيراً منهم. والمعنى: ربما كان المستهزأ بهم أعلى درجة عند الله ممن سخر منهم. والمقصود بيان أنه لا يحق لأى إنسان أن يظن أنه أفضل من غيره؛ ومن ثم لا يحق له أن يسخر من غيره؛ لأنه لا أحد من الخلق فى مقدوره أن يعلم بيقين جازم مكانة العباد عند ربهم؛ فدرجات الناس عند خالقهم فى الآخرة - وهى الحياة الباقية الأبدية التى لا تزول - من الغيب الذى استأثر الله ﷻ بعلمه، ولم يطلع عليه أحد من خلقه، إلا ماشاء (اختار): ولذلك فعندما يسخر عبد مبتلى (ممتحن) من غيره، دون دليل من الله، فقد ادعى فى الحقيقة - لنفسه مشاركة الله ﷻ فى علم الغيب وهو ادعاء للألوهية.

ولفظ " قوم " يعنى أصلاً الجماعة من الرجال. ثم صار يقصد به الجماعة من الناس؛ لأن الرجال هم الذين يقومون بأمر الجماعة. وفى هذه الآية رجع القرآن الكريم فى استعمال الكلمة إلى أصل معناها (جماعة من الرجال)؛ لبيان أن السخرية فى الآخرين مرض خلقى يكثر فى النساء. فقال: ﴿وَلَا فِسَاءَ مِّنْ فِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ للإشارة إلى انتشار داء السخرية فى النساء أكثر من الرجال، حتى النساء الفضليات. وذلك بدافع من الغيرة الشديدة - خاصة بين الضرائر - التى تخرجهن عن مقتضى العقل والشرعية. لبست زوج النبى أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ذات يوم ثوباً أيضاً - كان يسمى سبيبة أو سب - وربطت به خصرها، وعقدته على ظهرها وسدلت طرفيه، فكانت تجره

وراءها وهى تمشى، فرأتها عائشة رضي الله عنها فقالت لحفصة رضي الله عنها ساخرة من ضررتها أم سلمة: انظري ما تجره وراءها كأنه لسان كلب. وجاءت زوج النبی صفيّة بنت حيبي رضي الله عنها تشكو إلى زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم مما تلقاه من نساء الأخريات؛ إذ يعيرنها بقولهن لها: يا يهودية بنت يهوديين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلا قلت لهن إن أبى هارون - إذ كانت في سلالته - وعمى موسى وزوجى محمد

ولاشك في أن تخصيص هذا الخطاب للنساء فيه تلويح إلى ما كان يحدث بين نساء النبی من مثل هذه الأقوال التى تحمل خطيئة السخرية؛ بسبب الغيرة بين الضرائر. محادداً ببعض المفسرين إلى اعتبار أن ذلك كان سبباً في نزول هذه الآية، كما جاء في تفسير القرطبي ص ٦١٤٦.

(ب) اللمز: هو الإيذاء باللسان، في مقابل الهمز الذى يعنى الإيذاء البدنى. فاللمز هو الاعتداء باللسان والهمز هو الاعتداء باليد. واللمز (الاعتداء باللسان) يكون بتشويه سمعة الإنسان بنسبة عيب خلقى إليه مثل: البخل أو الجبن وهذا هو معنى السب (السباب)، أو يكون باتهامه بارتكاب جريمة (معصية) يعاقب عليها القانون (أحكام الشريعة) مثل السرقة أو الزنا أو ادمان المخدرات وشرب الخمر،.... وهذا هو معنى القذف (الرمى بارتكاب الجريمة).

واللمز إذن يتضمن السب والقذف:

والفرق بين اللمز والسخرية هو أن السخرية تنزل على صفات الإنسان الظاهرة أو الجسمية مثل القبح أو الصمم أو العمى أو العور أو القصر أو رثالة الثياب أو.... والسخرية لا تحمل في الغالب محمل الجد؛ بمعنى أن الساخر لا يعد في نظر الآخرين صادقاً في كلامه، واصفاً بالحق من يسخر منه أو يستهزئ به، بل هو فقط يعبر عن احتقاره ونفوره ممن يستهزئ به.

أما اللمز فإنه ينزل على صفات الإنسان الخلقية أو السلوكية مثل الغدر، وخيانة الأمانة، والطمع،..... ويحمل في الغالب على سبيل الجد. ولذلك ميز القرآن الكريم بين الخطيئتين (السخرية واللمز) فقال: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا ضَآءٌ مِّنْ ضَآءٍ عَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

لم يقل: ولا يلمز قوم قوماً بل قال: لا تلمزوا أنفسكم ليدكر المؤمنين بأنهم جميعاً يرجعون إلى أصل واحد، سواء إذا نظروا إلى الجسد، فإنهم أبناء آدم خليفة الله ﷺ الذي خلقه من تراب، أو إذا نظروا إلى الروح (سر الحياة) فهم جميعاً أبناء روح الله (الذي نفخ في أنفسهم سر الحياة) فخرجوا من الغيب (الغياب) إلى الشهادة (الحضور). والمقصود أن الإساءة راجع لا الواقعة باللمز لا بد أن تنال اللامز المسيء نفسه لأن اللامز والملموز - في الحقيقة - مجرد صورتان لكائن واحد، ولأن إثم وعذاب الإساءة راجع - لا مجالة إلى من ارتكب اللمز.

(ج) التنازع بالألقاب:

الألقاب: هي الألفاظ التي تعبر عن صفة ملازمة لصيقة من صفات الإنسان التي أشتهر بها وسط الناس، حتى صارت علماً عليه، كأنها صارت بديلاً عن اسمه الذي يشير إلى شخصيته (نفسه) بل تصبح أشد دلالة عليه من اسمه؛ لأن الأسماء تتشابه، أما الصفات المشهورة (الألقاب) فلا تتشابه. ومن ثم تصبح أكبر دلالة على شخصية الإنسان. فاللقب صفة تجرى مجرى الاسم في التعريف بصاحبه. أبو جهل لقب الإنسان الذي اسمه عمر وبن هشام بن المغيرة بن مخزوم. واسمه (عمرو) يتسمى به كثير من الناس. وكذلك اسم هشام عمرو. ومن ثم أصبح لقب (أبو جهل) أكثر دلالة على شخصية هذا الكافر المجرم الذي حارب الإسلام وهلك في غزوة بدر.

وكذلك "أبو لهب". فهذا لقب عرف به عم النبي ﷺ المسمى عبد العزى بن عبد المطلب.

والمقصود بالألقاب في الآية: الألفاظ التي تطلق على الأشخاص للتعبير عن صفات سيئة فيهم بقصد إهانتهم والخط من شأنهم بين الناس.

كما قال المسلمون لعكرمة بن أبى جهل (عمرو بن هشام) ابن فرعون. فهذا اللقب أطلق عليه على سبيل احتقاره والتنكيل به.

والتنازع: هو تبادل الطعن؛ لأن أصل لفظ النبز هو الطعن بالرمح أو السيف، فشبه تبادل التنادى بالألقاب المسيئة المكروهة، على سبيل الإهانة بتبادل الطعن بالسيوف أو الرماح على سبيل القتل.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ يعنى: ولا ينادى بعضكم بعضاً بالألفاظ التي تعبر عن صفات مشينة يكره الناس أن تنسب إليهم، أو أن ينسبوا إليها؛ لأن ذلك يجرى مجرى الإساءة والاستهزاء اللذان يولدان البغضاء، ويبعثان على الشحناء والعدوان.

كما قيل لعكرمة بن أبى جهل: يا ابن فرعون، وقيل لبنى أسد بن خزيمه: يا بنى الزنية وكما كانت بعض نساء النبى يقلن لصفية بنت حبي: يا يهودية بنت يهوديين.

ولا شك في أن التنازع بالألقاب يعد نوعاً أو صورة من السخرية، ولكنه سخرية متبادلة يمارسها طرفان (شخصان أو جماعتان) ضد بعضهما البعض.

والسخرية واللمز والتنازع بالألقاب كلها خطايا كلامية (لفظية) يؤذى بها الناس أنفسهم بالستهم: فهي إيذاءات لسانية تعبر عن الكبر، الذى هو أصل الكفر وأساس كل الخطايا.

قال رسول الله ﷺ: لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل أو ذرة من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل أو ذرة من كبر.

وفرع من استمع إليه من أصحابه، فقال واحد منهم: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً (جميلاً) ونعله حسنة (جميلة).

يسأل هل حب التزين (التجمل) من الكبر، الذى يحرم الإنسان من الجنة ويدخله النار؟

فقال رسول الله ﷺ كاشفا الغموض مزيلاً الشبهات: إن الله جميل يحب الجمال، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتبؤس. جواد يحب الجود ويجب معالى الأخلاق ويكره سفاسقها الكبر بطل الحق، وغمط الناس.

سياق يجمع نص الحديث النبوى الذى تناثرت أطرافه فى عشرات الراويات، وأورده الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى فى كتاب " صحيح الجامع الصغير وأبوابه - الفتح الكبير) فى الأحاديث رقم ١٧٤١، ١٧٤٢، ١٧٤٣، ١٧٤٤، ١٨٨٧، ٤٦٠٨، ٧٦٧٤، ٧٦٧٩.

ونلاحظ أنه ﷺ قد جعل فى بداية الحديث الإيذان تفيض الكبر (الكبرياء) فأوضح أن الكبير هو أصل الكفر وعرف الكبر فى خاتمة الحديث بأنه: بطل الحق وغمط الناس.

بطل الحق: الإستهانة بالحق، فترى أنك أكبر من أن تخضع له وتذعن لمقتضاه. والحق هو العدل (حكم الله) والعلم (الحقيقة) التى قامت الأدلة على صحتها؛ ولذلك كان اسماً من أسماء الله الحسنى ﷻ.

وغمط الناس: احتقار الناس؛ فترى أنك أكبر منهم مكانة، أو أعلى شأناً منهم، ويسول لك هذا الشعور أن تسخر منهم (تستهزئ بهم) وأن تلمزهم (تسبهم) ونقدفهم بالتهمة الباطلة) وأن تنازهم بالألقاب السيئة، التى يكرهون أن تنسب إليهم أو أن ينسبوا إليها.

إذن فمن يقتحم لجة هذه الخطايا (السخرية واللمز والتناز بالألقاب) فقد دخل قلبه الكبر الذى هو الكفر، ومن ثم فقد صار كافراً مع أنه يتوهم أنه لم يزل مؤمناً.

وما أسوأ المآل الذى صار إليه دون أن يدري. ولذلك وصف الله ﷻ مصيره السيئ الذى هوى إليه بقوله: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَنِ﴾ والمعنى: ما أسوأ وما أقبح أن يسمى الإنسان فاسقاً عند الله، بعد أن كان مؤمناً. فقد وقع فى الفسوق، وخرج من الإيْمان من دخل قلبه الكبر، فارتكب هذه الخطايا: السخرية واللمز والتنايز بالألقاب.

والفسوق هو الخروج من الإيْمان أى الإرتداد إلى الكفر. وقد جعل القرآن الكريم الفسوق نقضياً للإيْمان فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].
ويكفى الدلالة عن هذا المعنى وصف الله ﷻ لعمل إبليس، إذ قال: ﴿إِنِّي لَأَبْلِسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولكن المتكبر مرتكب هذه الخطايا يكون فى الظاهر مؤمناً، ويدخل فى عداد المسلمين إذن، هو فى الحقيقة قد صار منافقاً، يظهر ويعلم الإيْمان، ويبطن (يخفى) فى قلبه الكفر.

وقد أوضح الله ﷻ هذه الحقيقة بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] وهو تحديد صحيح دقيق لا يحتاج إلى شرح وتفسير. قال رسول الله ﷺ مستلهماً هذه الآية: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (الحديث رقم ٦٠٤٤) فى صحيح البخارى فإن إيذاء المسلم باللسان ينبىء عن النفاق؛ إذ يدل على دخول الكفر (الكبر) فى القلب. أما قتاله فهو إعلان صريح عن الكفر.

فهل أغلق باب الإيْمان وراء الذين خرجوا منه بارتكاب السخرية واللمز والتنايز بالألقاب؟

والجواب: لا، بل يمكنهم الرجوع إلى الإيْمان بالتوبة من تلك الخطايا، بالندم، وعزم على الإقلاع عنها والاعتذار عن إرتكابها. والندم يعنى لوم النفس على ارتكاب

المعصية، ويتضمن الإقرار بالخطأ، والحزن على الوقوع فيه، وتمنى محوه أو إزالته من صحيفة (سجل) الأعمال. والعزم يعنى كف منع النفس عن الرغبة فى العودة إلى ارتكاب الذنب، لبقاء حب المعصية فى القلب.

والاعتذار عن ارتكاب الذنب يعنى التنصل من إرادة المعصية، أعنى التبرؤ من تعمد ارتكاب الذنب، وإرجاع الوقوع فيه إلى ضعف النفس. وينطوى الاعتذار على الكذب؛ لأن الإنسان لم يرتكب الذنب إلا عن إختيار وإرادة، ولكنه كذب يحبه الله ﷻ ويطلبه من العبد، لكى يظهر نفسه من الجرأة على التمرد على الله ﷻ. فإن لم يتب مرتكبو الخطايا؛ فإنهم - فى الحقيقة - يصرون على البقاء فى الكفر خارج الإيمان، قد عزفت قلوبهم عن الرجوع إلى الإيمان ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين رضوا بالبقاء على الكفر.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(د) الظن: والمقصود إساءة الظن بالناس دون دليل، فهو اتهام للآخرين بنسبة ما يسىء إليهم أو نسبتهم إلى ما يعيب، دون شواهد تبرر ذلك الظن (الاتهام).
﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ابتعدوا عن اتهام الناس فى أنفسكم بما يسىء إليهم.

هنا الاتهام كامن فى النفس، محبوس فى الصدر، لم ينطق به اللسان. وإذا نطق اللسان صرنا إزاء جريمة اللمز؛ فالظن هو اللمز الصامت الخفى. وقوله (كثيراً) يدل على أن هذا الذنب (إساءة الظن بالناس) يقع كثيراً، ويغلب على الناس فى حياتهم. فكل الناس يسيئون الظن بغيرهم حتى يمكننا أن نقول: إن الناس غارقون فى بحر عفن من الظنون السيئة. فما من أحد من الناس إلا ويسىء الظن بالآخرين فيتهمهم فى سره بما لا يليق، ويفسر اعمالهم أقبح تفسير، أعنى على أسوأ الوجوه، بناء على اتصافهم

بالعيوب وارتكابهم للذنوب ولذلك قال رسول الله ﷺ: " ثلاث لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد " إن الظنون السيئة تتسرب إلى نفوس الناس، وتملأ صدورهم مثل الهواء الذى يتنفسونه ولذلك طلب الله ﷻ منهم أن يجتهدوا فى تجنب الوقوع فى أسر كل هذه الظنون السيئة حتى لا تفسد حياتهم، وتقطع أواصر المحبة بين الناس، وتقتل أخوة الإيمان، التى ينبغى أن تضىء طريقهم إلى الله.

ولماذا يجب تجنب الكثير من الظنون السيئة وتحرير النفس منها؟

والإجابة: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

والمقصود: لأن قسماً من الظنون السيئة يعد الوقوع فيه ذنباً، يحاسب ويعاقب عليه الإنسان عند الله؛ فيجب عليه أن يجتهد فى تجنب الكثير من الظن؛ حتى لا يقع فى البعض المحرم، الذى يوجب العقوبة عليه. فمجرد الظن فى بعض الحالات يعد جناية يعاقب عليها الإنسان عند الله. فما هو هذا البغض؟ إنه إساءة الظن بمن يجب شرعاً (دنيا) إحسان الظن بهم، وهم الله ﷻ ورسول الله ﷺ، والأنبياء والرسل وسائر المؤمنين الصالحين الذين يتجنبون مواطن الشبهات.

وصف الله ﷻ ضعاف الإيمان والمنافقين بأنهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

[آل عمران: ١٥٤].

وأنبأنا عن عقاب المشركين والمنافقين قائلاً: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وأساء الملاء من عاد الظن برسولهم هود عليه الصلاة والسلام كما اخبر القرآن الكريم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

والظن فكرة تغلب على العقل الوجدان دون دليل. فإن وجد الدليل الذى يقبله العقل والذى يؤيد الفكرة أصبح الظن علماً، وإن وجد الدليل الذى يثبت خطأ الفكرة صار الظن وهماً.

وكذلك آساء أغلب أهل مدين الظن بنبى الله شعيب عليه الصلاة والسلام فقالوا له: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وأساء المشركون (الوثنيون) الظن بالملائكة: رسل الله السماويين، فقالوا عنهم إنهم بنات الله ﷺ وأساءوا الظن بنبى الله محمد ﷺ فقالوا: إنه شاعر مجنون وأساء ضعاف الإيما والمناقون الظن بعائشة رضى الله عنها زوج النبى محمد ﷺ فاتهموها بالزنا، رغم تقواها وسيرتها الحسنة. فيما عرف فى السيرة النبوية " بحادثة الإفك".

وقد عاتب الله ﷺ المؤمنين على وقوعهم فى هذا الذنب العظيم فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] يأمرنا بإحسان الظن بمن يجب شرعاً بموجب الإيما إحسان الظن بهم. وواجب الإنسان المؤمن أن يظن خيراً بأخيه المؤمن وأخته المؤمنة، وأن يفسر الأحداث التى يراها أو يسمع بها، وتحوم حولها الشبهات، على نحو لا يسارع فيه بإساءة الظن بالمؤمنين والمؤمنات، بل يجتهد فى تغليب التفسيرات التى تضمن حسن الظن بالمؤمنين والمؤمنات.

عندما طاف رسول الله ﷺ بالكعبة، وشم رائحتها العطرة، واستحضر فى قلبه عظمتها وحرمتها، قال لها: ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك. ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً. إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه (سمعته) وأن يظن به ظن السوء.

(هـ) التجسس:

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والتجسس: هو طلب الإطلاع على الأشياء المخفية، التى يجب شرعاً سترها وحفظها طى الكتمان وحظر نشرها. والأشياء التى يجب

حفظها في الخفاء، ومنع الغرباء من الإطلاع عليها هي أسرار الحياة الشخصية للأفراد والعائلات، التي لا يجب الناس أن يطلع عليها ويعلمها، إلا من يرضون. وأسرار الأمن القومي التي يكون في افشائها خطراً على سلامة الوطن وأمن الأمة لأن أطلاع الأعداد على تلك الأسرار يمكنهم من إلحاق الضرر بالأمة؛ وقد رتب الله ﷻ النهي عن التجسس على النهي عن الظن، فقال (إجتنبوا كثيراً من الظن ولا تجسسوا). والمقصود: ولا تحاولوا التجسس (الاطلاع على ما خفى أو غمض عليكم) من أجل التحقق من ظنكم، كما قال ﷻ لمعاوية بن الحكم ﷺ (فإذا ظنت فلا تحقق) يعني فلا تتجسس من أجل التحقق من صحة ظنك. ومن أجل الحفاظ على حرمة الحياة الشخصية للأفراد والعائلات، ومنع الغرباء من الإطلاع على أسرارها؛ أمر الله ﷻ المؤمنين بالاستئناس قبل دخول بيوت غيرهم ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

والاستئناس لا يعني مجرد الاستئذان (طلب الإذن في الدخول، بل يعني فوق هذا أن يرى المؤمن الذي يطلب الإذن أن الظرف يسمح بدخوله دون أن يسبب حرجاً (ضيقة) لأهل البيت، وأن يشعر أنه سيكون مرحباً به عند دخوله، أى سيكون مستأنساً به من أهل البيت؛ لأنهم قد يضطرون لإعطاء الإذن بالدخول على مضض واستحياء من الزائر، وهم في ضيق غير راغبين في أن يراهم أحد الآن، وهم على هذه الحال طلب. فالاستئناس معنى يشمل الإذن، والرؤية والأنس.

قال موسى عليه الصلاة والسلام لأهله عندما رأى على البعد ناراً: ﴿إِنِّي ءَاسْتُ نَارًا﴾ يعني: لقد رأيت ناراً وشعرت بالراحة وراودني الأمل في أن أحصل منها على ما أريد ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] سأحصل منها على

الضوء الذى يبين لى الطريق الذى ينبغى أن أسير فيه حتى أصل إلى ما أريد. إذن ستعطينى أو ستقول لى هذه النار الخبر الذى يدلنى على الطريق الصحيح. أو أحصل منها على فرع متقد من الشجرة المتوهجة لعلكم تستدفئون بحرارته.

إذن فالاستئناس يعنى فوق الاستئذان الرؤية والأنس. والأنس هو الشعور براحة القرب من المحبوب والأمل فى نيل المطلوب منه.

كما فرض الله ﷻ على أهل البيت أنفسهم أن يستأذنوا قبل الدخول إلى غرفات النوم وأماكن الراحة؛ حتى لا تنكشف العورات والأسرار التى يجب أصحابها أن تظل مستورة حفاظاً على الكرامة الأدمية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْغُوا الْخُلُومَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوُّفَاتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور: ٥٨-٥٩].

قبل صلاة الفجر فى آخر الليل، وعند الظهيرة حين تشتد الحرارة، أو يبحث الناس عن الراحة بعد تعب العمل فى الصباح، وبعد صلاة العشاء حين يأوى الناس إلى فراشهم؛ طلباً للنوم، أو للجماع حين يلتقى الرجال بالنساء عرايا؛ راغبين فى لذة الوصال. ثلاثة أوقات يتخفف فيها الناس من ملابسهم، التى يواجهون فيها الغرباء. ولذلك سماها الله ﷻ: ﴿ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ﴾، لأن عوارت الناس التى يجب سترها مثل أسرار الحياة الزوجية تنكشف فيها. ولذلك وجب الاستئذان قبل الدخول إلى غرفات النوم، وأماكن الاسترخاء فى هذه الأوقات حفاظاً على كرامة أبناء آدم عليه الصلاة والسلام الذى فقد قديماً لباس التقوى، وأصبح عارياً مكشوف السوءآت عندما عصى ربه، وأكل من الشجرة التى حرم الله ﷻ عليه الأكل منها، وشاركته امرأته فى الخطيئة (المعصية) فكان واجباً عليهما أن يسترا سوءآتهما أنها وهما يخوضان حياة الابتلاء على

هذه الأرض بعد إخراجها من الجنة؛ ليحفظا كرامتهما، ويتذكرا بملابس هذه الأرض لِيَأْسُ التَّقْوَى الذي كانا فيه قبل المعصية في الجنة.

وكان لزاماً علينا - نحن أبناء آدم عليه الصلاة والسلام - أن نفتدى بأبينا، لأننا نخوض نفس الابتلاء، ولو كنا مكانه لعصينا ربنا مثله؛ لأن إرادة المعصية كامنة في نفوسنا. وأوجب الله ﷻ على المؤمنين أن يكتموا الأسرار التي تخص أمن أمتهم (الأمن القومي) وألا يذيعوها؛ حتى لا يستفيد بها الأعداء المتربصون. وعاب على المؤمنين أن يذيعوا ما أتيح لهم الاطلاع عليه من أنباء تخص أمن أمتهم، أو أن يذيعوا كل ما يسمعه من أنباء تتعلق بأمن البلاد أو الحرب.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. أمر: خبر أو حدث.

﴿مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾: مما يبعث على الشعور بالأمن الذي هو زوال الخطر، أو الشعور بالخوف وهو توقع حدوث أو مجيء الخطر. والمقصود الأنباء التي تتعلق بالسلام. يقول الله ﷻ: إن الناس إذا سمعوا بحدث يدل على زوال الخطر، الذي كان يهددهم، فشعروا بالأمن، أو جاءهم نبأ يدل على مجيء الخطر فشعروا بالخوف، فإنهم يسارعون بإذاعة (بنشر) كل هذه الأخبار، دون تحقق من صحتها؛ لأن كل واحد يريد أن يبدو عليماً ببواطن الأمور، مطلعاً على الأسرار العليا الهامة.

ويؤدي نشر مثل هذه الأخبار السارة المطمئنة، أو المخيفة المهددة؛ إلى زعزعة استقرار البلاد؛ إذ قد يثير الخوف في نفوس العباد دون سبب حقيقي، أو يشيع الأمن (زوال الخطر) فيدفعهم إلى الراحة والتراخي في الاستعداد لمواجهة الخطر القادم، الذي قد يكون محققاً ودهماً يوشك أن يحطم الأبواب. إن مثل هذه الأخبار قد يكون كاذباً، ولا أساس له في الحقيقة، ومن صناعة أو تزوير (إعداد) الأعداء، الذين يتربصون

بالبلاد ويريدون بها شراً. ولذلك يجب على المؤمنين إذا اتصل بسمعهم أو علمهم شيء من تلك الأخبار الدالة على الأمن أو الخوف أن يرفعوها إلى رسول الله باعتباره الحاكم الذى يدير شئون الأمة، وإلى الذين يتولون الأمر (الحكم) من بعده؛ لأن من بين أولئك الحكام من يستطيع بما لديه من وسائل العلم أن يستنبط حقيقة هذا الأمر (الخبر).

ومن ثم يستطيع اتخاذ الإجراءات الصحيحة بناءً على المعلومات الحقيقية، لا على الإشاعات الباطلة، بما يحقق مصالح الأمة الإستنباط: القدرة على الوصول إلى ما وراء الكلام أو الأعمال الظاهرة من حقائق باطنة، ومن ثم الوصول إلى الحكم الصحيح فى المسألة، والتصرف السليم إزاءها. وهو عمل يشبه حفر الأرض من أجل الوصول إلى ما فى باطنها من ماء. ولذلك استعمل نفس اللفظ فى العمليين.

(و) الغيبة:

هى أن تذكر أخاك فى غيابه (من وراء ظهره) بما يكره، فتنسب إليه ما تعلم يقيناً أنه يقلل من شأنه بين الناس، وذلك على سبيل السخرية والانتقام، تنفيساً عن غيظك منه. إن أشد ما يخشاه المغتاب (مرتكب خطيئة الغيبة) هو أن يواجهه من اغتابه، أو أن يعلم من انتهك عرضه (سمعته) بما قيل فى حقه؛ لأن ذلك سيثير غضبه، ويولد فى قلبه الرغبة فى الانتقام. وحينذاك لن يكون المغتاب فى مأمن على نفسه ولا على عرضه إذن، فالمغتاب يتمنى غياب من اغتابه، كأنها هو يتمنى موته، حيث يكون بلا قوة؛ ولذلك أخذ آمناً ينهش بلسانه سمعة صاحبه.

وسمعة الإنسان هى صورته فى عقول الآخرين، أى هى بمثابة جسمه المعنوى (صورته الذهنية) المائل فى خيال المغتاب. ومن ثم فإن تشويه سمعة الإنسان يعد قبتاً معنوياً له. كما نقول نحن الآن - فى عصرنا - عندما تهاجم وسائل الإعلام أحد الساسين، بغية تحطيم شعبيته بتشويه سمعته، فنصف هذا العمل بأنه "إغتيال سياسى".

ولذلك شبه القرآن الكريم المغتاب بالإنسان الذى قتل أخاه، ثم جلس ينهش جثتهم أكلاً لحمه. ولا يمكن تصوير خطيئة الغيبة بصورة أبلغ من هذه. ولا يمكن لأحد من البشر أن يحب ذلك القاتل الذى يأكل لحم أخيه. قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ والمقصود فاكروها الغيبة وتجنبوها قدر كراهيتكم وتجنبكم لهذه الجريمة البشعة، وهذا الوحش البشرى أكل لحم أخيه.

لقد أعترف ما عز الأسلمى بالزنا وأقر بارتكاب هذه الخطيئة، وطلب من رسول الله ﷺ أن يطهره بإقامة الحد (بإنزال العقوبة) عليه. فأمر الرسول برجمه. كان ذلك قبل نزول سورة الحجرات فى بداية العام التاسع بعد الهجرة) وبالطبع قبل نزول صدر سورة النور فى رمضان من العام التاسع بعد الهجرة بعد العودة من معركة تبوك؛ لأننا نرى أن حد الرجم قد نسخ بنزول صدر سورة النور، وأصبح حد (عقوبة) الزنا الجلد فقط، سواء كان الزانى أو الزانية بكراً أو محصناً ولكن تلك قضية أخرى لا مجال للخوض فيها الآن.

وفى طريق العودة من القبور بعد دفن ما عز الأسلمى ﷺ - سمع رسول الله ﷺ رجلين، يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه. فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب. فغضب رسول الله ﷺ وكان مع المشيعين العائدين من القبور - ولكنه سكت عنهما. وساروا ساعة فمروا بجيفة حمار ملفاة على الطريق.

فقال رسول الله ﷺ: أين فلان وفلان فأجاب الرجلان: نحن ذا يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ لهما: إنزلاً فكلأ من حيفة هذا الحمار.

فقالا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا؟ كم يرضى بالأكل من جيفة حمار؟!

فقال رسول الله ﷺ لهما: فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه، والذى نفسى بيده،

إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها. (انظر تفسير القطبي - ص ٦١٥٥).

ولكن يباح ذكر الناس بما يكرهون في غيابهم (من وراء ظهورهم) إذا كان من أجل تحقيق غاية شرعية مثل:

(١) تحذير الناس من أذى وخطورة بعض الأشخاص.

(٢) تقديم الشهادة المفروضة أمام القاضي عند التحقيق في اتهام بعض الأشخاص بارتكاب إحدى الجرائم، فالواجب الشرعى هنا ذكر ما يعلم عن الأشخاص من مفسد وعيوب.

(٣) ذكر الظالمين على سبيل الأمر بالمعروف (العدل) والنهي عن المنكر (الظلم)، إذ لا يمكن القيام بهذه الفريضة إلا بذكر الظالمين بما يكرهون وتشويه سمعتهم.

(٤) تشويه سمعة الماطلين في رد الديون التي عليهم، مع قدرتهم على الوفاء. قال الله ﷻ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨] والمعنى: يكره الله ﷻ إعلان الأقوال التي تسيء للناس، وينهاكم عنها بإستثناء المظلوم؛ فإنه يباح له إساءة القول لمن ظلمه؛ والله يسمع كلامكم، لأنه ﷻ سميع، ويعلم، لأنه ﷻ سميع، ويعلم الحقيقة؛ لأنه عليم فاحذروا أن تكذبوا وتفتروا على الناس بالباطل.

وقال رسول الله ﷺ: «لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته، فإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبعه».

هذا نص الحديث الذى تعددت رواياته وتناثرت أطرافه، فى مختلف الروايات، وأورده الأستاذ محمد ناصر الدين الألبانى فى الأحاديث: ٥٤٨٧، ٥٨٧٥، ٥٨٧٦ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير.

لى الواجد: تقاعس من يجد من المال ما يسد به دينه عن الوفاء ورد ما عليه،

ولذلك جاءت بعض الروايات بلفظ: مطل الغنى: أى مما طلته فى دفع ما عليه.

يحل عرضه: يبيح اغتيابه

وعقوبته: ويبيح للحاكم أن يعاقبه على مماطلته فى رد ما عليه.

" فإذا أتبع أحدكم على ملء فليته: فإذا كلف أحدكم بمطاردة غنى يماطل فى رد ما عليه من ديون، فلا يتقاعس عن أداء هذه المهمة، بل عليه أن يجتهد فى متابعتها حتى يرد ما عليه.

(٥) ذكر العيوب " المعلومة " فى الخاطب الذى يريد نكاح امرأة؛ حتى لا تخدع المرأة أو يخدع وليها. وعلى نفس المقياس يجب ذكر العيوب المعلومة فى المرأة المطلوب نكاحها.

(٦) ذكر عيوب الرواة والعلماء أو الفقهاء عند تحقيق أى مسألة (قضية) علمية؛ لأن الغاية الشرعية هى إظهار الحقيقة. ولقد قام علم الحديث النبوى على اغتيال الرواة!!! إن شرط تحريم الغيبة وضبط تعريفها أن تكون بداف الإستهزاء والإنقام والتنفيس عن غيظ المغتاب دون وجه حق. أما إذا كانت الغاية إظهار الحقيقة أو تحقيق العدل والنهى عن المنكر (الظلم) أو حماية الناس من الخداع، فإن ذكر ما يكرهه الناس فى غيابهم (من وراء ظهورهم)، أمر مباح (مشروع) بل هو واجب شرعى.

﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾: اجمعوا أنفسكم من عذاب الله بالتوبة عن تلك الخطايا.

إن الله تواب رحيم: إن الله سريع المبادرة إلى قبول توبة عباده، وهو ﷻ كثير التوبة عليهم؛ لأنهم يكثرون من الذنوب، فهو ﷻ يكثّر من التوبة عليهم كلما ندموا على ذنوبهم وعزموا الانقطاع عنها واعتذروا.

وتوبة الله ﷻ على عباده المؤمنين هى إعادتهم إلى رحمته، وهى - فى الحقيقة - عودته ﷻ إليهم بإسمه الرحيم، فهو رحيم: دائم الرحمة بهم لا يريد أن يجرمهم من رحمته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ فأنتم جميعاً أبناء رجل واحد هو آدم عليه الصلاة والسلام وأم واحدة هي زوجته حواء؛ فأنتم - معشر البشر - متحدون في الأصل.

وكل واحد منكم قد خرج إلى الدنيا من تزواج ذكر واحد هو أبوه الذى ولد منه، وأنثى واحدة هي أمه التى ولدتها. فكلكم جئتم بنفس الطريقة أو على نفس الطريق - فأنتم متحدون متشابهون فى طريق المجيء إلى هذه الحياة الدنيا.

ثم إنكم تخوضون على هذه الأرض تجربة واحدة، أو تدخلون نفس الامتحان (الابتلاء) وهو إظهار علم الله القديم الكامن فى نفوسكم.

(خلقناكم): أخرجناكم من الغيب، أى أظهرناكم بعد أن كنتم فى خفاء أو أحضرناكم من الغياب.

لنبتليكم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنستخرج من نفوسكم علم الله القديم الكامن فيكم. وعلى سبيل الإبتلاء قسمناكم إلى شعوب وقبائل.

ولفظ " شعب " يدور معناه حول التفرق والتفرع؛ فالتشعب يعنى الانقسام والتفرع فنقول - مثلاً - شعب الدراسة ونعنى بها الفروع التى تنقسم إليها أو تتوزع عليها المادة العلمية أو المنهج، الذى نقوم بدراسته وتدرسه. وشعب الجماعة هي الفرق التى إنقسمت إليها المجموعة الواحدة، فصارت بمثابة فروع لشجرة واحدة.

ولفظ " شعب " يعنى الطريق المعروف بين الجبال، أو الناحية المحدودة ذات العلامات " المميزة ".

ومن ثم نقول: إن لفظ شعوب يعنى الجماعات البشرية التى تفرعت من الجماعة الأولى أو الجماعة الأم التى عاشت فى " أم القرى ".

وبيان هذا أن آدم عليه الصلاة والسلام هبط من الجنة إلى الأرض فى مكة. وقد هبطنا معه محمولين فى صلبه. ونشأت الجماعة البشرية الأولى أى الجماعة الأم فى مكة،

بتزواج آدم وحواء ثم تكاثر أولادهما الذين هم "أباؤنا الأولون" ثم تشعبت (تفرقت) تلك الجماعة الأولى (الأم) في البلاد بحثاً عن الرزق، أو فراراً من القتال، أو هرباً من الكوارث الطبيعية.

وهكذا انقسمت (تشعبت) الجماعة البشرية الأولى (الأم) إلى شعوب انتسبت إلى الشعاب (المواقع المخصصة المميزه من الأرض) التي استقرت فيها كل جماعة، حيناً من الدهر، كان كافياً لخلق رابطة مادية ومعنوية عميقة بين الجماعة البشرية والموضع (الشعب) الذي عاشت فيه، فأصبح الشعب وطناً، وصارت الجماعة شعباً.

ومن ثم يمكننا أن نقول إن انقسام الجماعة البشرية الأولى (الأم) إلى شعوب، يعنى نسبة الجماعات التي تفرعت وتفرقت إلى الاماكن التي استقرت فيها، أعنى إلى الأقاليم الجغرافية، أو إلى الأوطان إذا استعملنا ألفاظ سياسية معاصرة أما انقسام الجماعة البشرية الأولى (الأم) إلى قبائل، فيعنى نسبة الجماعات المتشعبة إلى الآباء الذين ولدت من أصلهم هذه الجماعات؛ لأن لفظ القبيلة ملتصق بمعنى الولادة؛ فالقابلة هي المرأة التي تساعد في عملية الولادة، وتقابل أو تستقبل المولود الخارج من الرحم على يديها.

والقبل هو الفرج أى مخرج الأعضاء التناسلية، والقبيلة هي الجماعة من الناس التي تنتمى إلى والد واحد؛ فقريش، وهوازن، وثقيف وتميم وغيرهم هم أسماء الرجال الآباء الذين ولدت منهم هذه القبائل وتنسب إليهم.

ولا نحتاج إلى تذكير القارئ بأن القرآن الكريم قد صرح بأن مكة هي "أم القرى". وهذا الإسم يعنى أنها القرية الأم التي ولدت كل القرى (المجتمعات البشرية) الأخرى.

قال ﷺ مخاطباً رسوله النبي الأمي محمد ﷺ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

إذن فالجماعة البشرية الأولى (الأم) التي تشعبت منها كل الشعوب والقبائل كانت في مكة: أم القرى، موطن آدم. والجيل الأول من ذريته، هم الآباء الأولون لمجموع البشر.

ولقد تحبط المفسرون قديماً وحديثاً في ادراك معنى الشعوب والقبائل، واختلفوا كما اعتادوا - إلى حد التضارب، فمنهم من زعم أن الشعب أكبر من القبيلة، ومنهم من ادعى العكس فجعل القبيلة أكبر من الشعب.

وذكروا في ذلك تصنيفات وتقسيمات جزافية، لا أصل لها من العلم، ولا معاني الألفاظ العربية، ولا سند لها الا الراويات الواهية المنسوبة إلى بعض السلف، ولا يمكن أن تصمد أمام أى نقد علمى.

ولم يقترب من المعنى الصحيح الذى بيناه، إلا المارودى الذى قال في تردد (كما ذكر القرطبى في تفسيره ص ٦١٦٤): ويحتمل أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب، والقبائل هم المشتركون فى الأنساب. ولماذا اقتضت حكمة الله ﷻ أنقسام وتفرق البشر إلى شعوب وقبائل؟

والإجابة: (لِتَعَارَفُوا) والمعنى: من أجل أن تتعارفوا، أى بهدف أن يعرف بعضكم بعضاً. والفعل يعرف معناه: يميز الشئ، تقول عرفت الشئ، إذا قصدت أنك قد ميزته عن غيره من الأشياء التى قد تتماثل معه وتختلط به. فالمعرفة علم بذات الشئ، أى بحقيقته التى تميزه عن غيره من الأشياء تشبهه وتتشابه معه. وحقيقة الشئ تعنى مجموع صفاته. إذن قوله ﷻ (لِتَعَارَفُوا) معناه: لتمييزوا عن بعضكم، أى لتظهر الاختلافات بينكم. فإنكم تحتاجون إلى بعضكم البعض من أجل توفير وسائل المعيشة،

ودفع أسباب الهلاك، كما أنكم - في نفس الوقت - تتنافسون مع بعضكم على مصادر الثروة، ومناطق السيادة والنفوذ. وهكذا تضطرون إلى التعاون كما تتقاتلون، وتنشأ بينكم بسبب كل ذلك روابط عديدة، وتعاملات متباينة تفضي - لا محالة إلى إظهار الكامن في بواطن نفوسكم من صفات وأخلاق، تبرز اختلافكم (تنوعكم) وتفاوت مراتبكم (درجاتكم) من منظور عدة معايير (مقاييس) مختلفة، فإذا كنتم تعتمدون معيار القوة الجسدية أو الثراء أو جمال الصورة (الشكل) أو السلطة على الآخرين، أو الشهرة، أو القدرة على التأثير أو الذكاء عند تحديد مراتب (درجات) الناس، فإن المعيار المعتمد في ترتيب الناس عند الله هو التقوى. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾: إن أكثركم فضلاً وأعلاكم درجة عند الله أكثركم تقوى لله، فإن منازلكم عند الله، تتفاوت في العلو أو الهبوط بقدر تقوى الله. والعلو يعنى القرب من عرش الله ﷻ لأن عرش الله أعلى المخلوقات وأوسقف الكون - إن صح التعبير - ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يتبين في وضوح تام ظواهر الأشياء وبواطنها، لا يخفى عليه شئ من أعمالكم الظاهرة والباطنة قبل أن تقوموا بها في حياتكم الدنيا هذه؛ لأنه قد سجلها في كتاب علمه (اللوح المحفوظ) ﴿خَيْرٌ﴾: يعلم أعمالكم قبل أن يخلقكم (يخرجكم) في هذه الحياة الدنيا.

الخبرة: سبق العلم، أى العلم السابق بالشئ قبل مباشرة التعامل معه، فإنه ﷻ بعلم أعمالنا قبل أن نباشرها ونتلبس بها في هذه الحياة الدنيا.

(٩٠) الحديث النبوى الذى تناثرت أطرافه فى مختلف الروايات التى أوردها الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى فى كتاب " صحيح الجامع الصغير زيادته - الفتح الكبير " تحت الأرقام: ٤١٨٦، ٤١٨٧، ٨٦.

من ورائه، أى غيابة أو من وراء ظهره. ومن هنا جاء إسم الغيبة (من الغياب).
بهته: رميته بالبهتان، وهو الإفتراء عليه. والمعنى نسبت إليه - دون وجه حق - ما لا يليق. وهو ذنب عظيم

(٩١) إقرار النبي ﷺ بأن الله ﷻ في السماء، لا يعنى أن السماء تحتويه كما توهم أغلب المفسرين وأهل علم الكلام لأن هذا المعنى الخاطيء بتناقض مع حقيقة تنزيه الله ﷻ، وأداروا في ذلك مناقشات حادة عقيمة؛ ونشبت بينهم خلافات كان بعضها دموياً. وسر الخلاف يكمن في عجزهم عن إدراك معنى الحرف (في). والمعنى الصحيح أن الله ﷻ قد احتجب عن خلقه بالسماء؛ التي صارت بمثابة غطاء أو ستار يحجب الله ﷻ عن خلقه؛ فمعنى الحرف (في) هو ورآه.

فهو ﷻ ورآه السماء؛ ولذلك فإنه جل جلاله عندما يتجلى (يتم ظهوره) يوم القيامة فإن السماء لابد أن تزول وتختفى وهذا المعنى قد جاء واضحاً صريحاً في قوله ﷻ عند وصفه لأحداث وأحوال يوم القيامة فقال: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] واصفاً السماء بأنها بمثابة طلاء يغطي ويستر ما وراءه، أى ما فوقه، ويفصله ويحجبه عما تحته أو أمامه. كان العرب يقولون (كشط جلد الذبيحة) إذا سلخ الجلد عن الذبيحة، أو سلخها من جلدها الذي كان يغطيها. فالسماء بمثابة جلد يحجب الله عن مخلوقاته. فإذا أراد جل جلاله أن يتجلى لهم كشط أى سلخ ذلك الجلد (السماء) المتلصق بالعرش الإلهي، وحينئذ يتجلى الله جل في علاه. ولكن كشط السماء التي تفصل العرش الإلهي عن الأرض وأهلها، ذلك الكشط يعنى - في الحقيقة - تهاوى هذا الكون الحاضر المائل أمامنا؛ ليحل بدلاً منه كون جديد. وقد عبر ﷻ عن هذه الحقيقة بقوله عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] في ذلك اليوم ستحل أرض جديدة مكان هذه الأرض المشهودة لنا، وستأتى سماوات أخرى جديدة مكان هذه السماوات. وفي لحظة التبديل والإحلال يتجلى الله ﷻ. وهذه هى دلالة قوله في آخر الآية: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ والمعنى وخرجوا من الحجاب إلى لقاء الله الواحد القهار. وهو ما يعنى أنه ﷻ قد برز (خرج) لنا من حجاب، فبروزنا (خروجنا) إليه يعنى - في نفس الوقت - بروزه (خروجه) إلينا.

لقد كنا عند الله ﷻ قديماً قبل أن نهبط إلى هذه الأرض لنخوض الحياة الإبتلاء. فلما نزلنا في هذه الأجساد، التي تولد من أرحام الأمهات، صارت لنا السماء غطاء يحجب الله ﷻ عنا. فإنها بمثابة الطلاء أو الجلد الذى يفصلنا ويبعدنا عن معيتنا (صحبتنا) القديمة. ولذلك نرى الإنسان، عندما يقع في حال الإضطراب، ويشعر بعجزه ويطلب معونة الله ﷻ، فإنه يتوجه إلى ربه بالدعاء، رافعاً يديه إلى أعلى، ناظراً إلى السماء في حركة تلقائية تطلب بلغة الإشارة محو الحجاب أو كشط الحاجز الحائل دون المعية.

إن الدعاء - في حقيقته - استدعاء لله ﷻ أى طلب حضوره بقدرته؛ ليتشغل العبد مما يعانى، ويعيده إلى حال المعية (الصحبة) القديمة، التي تمنح الإنسان القدرة على كل شىء؛ فيتمكن من التغلب على الصعاب التي تواجهه وتحيط به.

ولا نحتاج بعد هذا البيان إلى أن نقول: إن قوله ﷻ: ﴿أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [المك: ١٦] يعنى: إن الله ﷻ يخاطبنا محذراً ومهدداً: ألا تخافون من قدرة من احتجب عنكم بالسماء على أن يزلزل الأرض تحت أقدامكم فتتشقق وتسارع بالإهتزاز العنيف فتبتلعكم في جوفها المظلم.

(٩٢) انظر حديث معاوية بن الحكم في كتاب "صحيح مسلم بشرح النووي" الجزء الخامس ص ٢٠ - ٢٥.

وقد عبر معاوية بن الحكم رضى الله عنه عن امتنانه وإعجابه برسول الله ﷺ لرأفته به ورفقه عند تعليمه، فقال: بأبى هو وأمى، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرنى (نهرنى وقهرنى) ولا ضربنى، ولا شتمنى.

(٩٣) انظر الحديث رقم ٥١٤٠ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) من إعداد الأستاذ محمد ناصر الدين الألبانى. وانظر تفسير القرطبى (الجامع

لأحكام القرآن) للآية رقم (١٢) من سورة الحجرات - ص ٦١٥٧، وتفسير ابن كثير لنفس الآية. ولنلاحظ أن عائشة رضي الله عنها لم تنطق بكلمة (قصيرة) ولكنها أشارت فقط بيديها لتؤدى المعنى. ومع ذلك اعتبرها رسول الله ﷺ كلمة شديدة الأذى، عظيمة الإثم حتى أنها تصبغ البحر (الماء الكثير) كله بشرها.

(٩٤) نسجنا هذا المشهد من روايتنا بمختلف التفاصيل التى أوردها ابن حجر فى شرحه للأحاديث: ٢٥٤٣، ٤٦٤٢، ٦٠٣٢، ٧٢٢٦ فى كتابه " فتح البارى بشرح صحيح البخارى"، والروايات التى أوردها ابن كثير فى تفسيره للآيات ٦ - ٨ من سورة الحجرات، والروايات التى أوردها القرطبى فى تفسيره للآية ١٩٩ من سورة الأعراف، والروايات التى أوردها محمد بن يوسف الصالحى فى كتابه " سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد " فى الجزء الرابع: ص ٤٨٦ - ٤٩١، وفى الجزء السادس: ص ٣٢٤، ٣٢٥، والروايات التى أوردها ابن الأثير فى ترجمة السيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث فى كتابه (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) الجزء السادس ص ١٨٥ - ١٨٦ وترجمة عيينة بن حصن فى الجزء الرابع: ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

وكان عينه من الذين أسلموا، أو بالأحرى أعلنوا الإسلام قبيل الفتح بقليل، لما رأى ميزان القوة يميل لصالح محمد، وشهد الفتح ثم يوم حنين طعماً فى الغنائم. وكان المؤلفة قلوبهم فأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل لكنه بالطبع سرعان ما ارتد عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ واتبع طليحة الأسدى عندما ادعى النبوة وقاتل المسلمين معه.

فلما وقع أسيراً أخذ، وقدم إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه عندما صار خليفة للمسلمين.

ورآه صبيان المدينة فصاحوا به غاضبين ومستهزئين: يا عدو الله أكفت بعد إيمانك.

فقال: ما آمنت بالله طرفة عين!!

واستتابه (طلب منه التوبة والعودة إلى الإسلام) أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأعلن عينية التوبة وطلب من أبي بكر أن يمنحه قطعة أرض. وأوشك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يوافق تأليفاً لقلبه، لكن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشار بمنعه، فلم يعطه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأرض التي طلبها، فارتد عينية مرة أخرى إلى الكفر. ثم عاد فأعلن عودته إلى الإسلام؛ ليشارك في فتوح الشام طمعاً في الغنائم. وقال عن نفسه متفاخراً: أنا ابن الأشياخ الشم. فرد عليه عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كذبت ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طمع عينية أن يمنحه قطعة الأرض التي يشتهيها. فذهب إلى ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان شاباً فقيهاً قارئاً للقرآن الكريم، مشهود له بالتقوى والعلم فقربه عمر بن الخطاب من مجلسه. فقال له عمه عينية: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. ألا تدخلني على هذا الرجل؟

فقال الحر: إني أخشى أن تتكلم بكلام لا يليق ولا ينبغي قوله.

فقال عينية: لا أفعل.

فاستأذن الحر لعمه، فدخلا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فإذا بعينية يقول مهدداً: هي..... يا ابن الخطاب! والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل.

فغضب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غضباً شديداً، وأوشك أن يقع به؛ إذ كان يعلم مراد عينية من هذا الفحش. إنه مجرد ابتزاز لا أكثر ولا أقل؛ من أجل أن يضغط على أمير المؤمنين حتى يعطيه قطعة الأرض التي يطلبها.

فقال الحر: يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا (وأشار إلى عمه عينية، من الجاهلين فأعرض عنه. فكظم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غيظه وصرفه إلى حال سبيله.

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان من سوء حظه أو سوء اختياره أن تزوج ابنة عيينة، ربما ليا من شره وسوء أدبه وفحص لسانه، لأن كان معروفاً في الجاهلية بأنه من الجرارين؛ الذين يستطيعون تجنيد وقيادة الحشود في الحرب والقتال من أجل الغنائم. فهو كما قال النبي ﷺ: أحمق مطاع. لكن عيينة ظل على فحشه وسوء أدبه، فكان يغلظ القول لعثمان رضي الله عنه.

دخل عليه ذات يوم فأغلظ له القول.

فقال عثمان: لو كان عمر ما أقدمت عليه بهذا.

فقال عيينة في تحد ووقاحة: إن عمر أعطانا فأغنانا، وأخشاننا (خافنا) فاتقانا.

فتأمل كيف يذكر كتاب التراث اسم عيينة بن حصن ويقولون رضي الله عنه!!!

(٩٥) من مظاهر اساءة الاختيار التي شابت تصرف عثمان بن عفان رضي الله عنه - عندما صار خليفة للمسلمين - أنه عزل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من ولاية الكوفة وعين بدلاً منه الوليد بن عقبة الذي حكم القرآن عليه بأنه فاسق (منافق) وذلك بسبب كثرة شكاي بني أسد من سعد رضي الله عنه. وبنو أسد هم الأعراب الذين نفى القرآن عنهم الإيمان، كما سترى عند نزول قوله ﷻ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: ١٤].

وعندما قدم الوليد بن عقبة على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يحمل له كتاب عزله وتوليته مكانه، بدا الاشفاق على وجه سعد رضي الله عنه، فظن الوليد أن هذا بسبب جزعه من فقد الإمارة فقال له: لا تجزعن أبا إسحاق، فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون!!

فقال سعد: أراكم ستجعلونها ملكاً. يعنى رضي الله عنه أن صناديق قريش سيحولون الخلافة إلى ملك عاض وعضوض. وقد تحقق هذا وإكتمل على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان الوليد شريب خمر عربيداً، كما كان شاعراً مطبوعاً.

صلى بأهل الكوفة إماماً صلاة الفجر أربع ركعات.

فلما عوتب بعد الصلاة على هذا، قال في وقاحة والخمر تلعب برأسه: أزيدكم. يعنى أنه قد فعل هذا على سبيل الزيادة.

فقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ساخراً ومتحسراً على أيام الصلاح التي ولت: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم (انظر ترجمة الوليد بن عقبة في كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" - الجزء الخامس: ص ٢٣٦ - ٢٣٧. وانظر الهامش رقم (١٧) في كتابنا "أول الطريق": ص ١٢١ - ١٢٧).

(٩٦) نص الحديث رقم ٣٠١١ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير" من إعداد الأستاذ / محمد ناصر الدين الألباني. وقد نسجنا هذا المشهد من مختلف الروايات التي وردت في تفسير الآيات (٦ - ١٠) من سورة الحجرات.

(٩٧) الآيات ٦ - ١٠ من سورة الحجرات.

فَاسِقٌ: منافق، ومن ثم فهو كاذب؛ لأن الكذب هو أصل النفاق والام التي تلد كل خصاله المذمومة.

*** **

النفاق هو إبطان الكفر (التكذيب برسالة الله) في القلب، مع إظهار الإيمان بها، بإجراء أعمال شريعة الإسلام على الجوارح. فالمنافق مسلم في الظاهر للناس (الأفعال والأقوال التي يراها الآخرون) كافر في الباطن (القلب). ولما كان ليس في وسع البشر أن يعلموا ما في قلوب غيرهم؛ لذلك وجب شرعاً معاملة الناس حسب ما يظهرون من أفعال وأقوال. ومن ثم، فإن المنافق يجب أن يعامل في الدنيا معاملة للمسلمين، لأن حقيقة كفره الباطن في قلبه لن تتجلى إلا يوم القيامة حيث يكشف الله ﷻ عما في القلوب (البواطن) ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

ولكن المنافق - لا محالة - يعانى صراعاً داخلياً (باطنياً) فى نفسه، بين ما يظهر وما يبطن؛ لأنه مضطر من أجل الحصول على منافعه الدنيوية إلى إعلان ما يخالف ويناقض ما فى باطنه.

ولذلك، فلا بد حتماً أن تتضارب أفعاله وأقواله مع القيم الخلقية التى توجبها العقيدة التى يدعى الإيمان بها. وفى كلمات أخرى: لابد أن يتضارب سلوك (عمل) المنافق مع مقتضيات الإيمان. ومن ثم لابد أن تظهر عليه خصال (صفات دائمة ملازمة له) تطبع سلوكه، وتنبئ المتأمل فيه عن الكفر برسالة الله الذى يحاول مجتهداً فى اخفائه. وهذه الخصال بينها رسول الله ﷺ فى حديث جامع، قاله بعد نزول سورة الحجرات. قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد عذر، وإذا خاصم فجر النفاق أربع خصال:

(١) الكذب (إذا حدث الكذب).

فهو يكثر من الإخبار عن أشياء على خلاف الحقيقة (الصواب) التى يعلمها، وذلك على سبيل اخفاء الحقيقة لإضلال الناس، وتضليل العدالة (منع تحقيق العدل). وهذا هو التعريف الدقيق للكذب؛ لأن غاية هذه الخطيئة هى ابطال شريعة الله، وإشاعة الظلم ولذلك أباح رسول الله ﷺ للمؤمن أن يكذب ظاهراً، بمعنى أن يخبر بما يخالف الحقيقة، إذا كانت غايته الإصلاح بين الناس المتخاصمين، أو خداع الأعداء المحاربين للأمة. فسيقول فى هذا الحديث: ليس الكذاب بالذى يصلح بين الناس، فيسمى خيراً، ويقول خيراً.

وقد قال من قبل: الحرب خدعة.

*** **

والكذب هو أصل كل الخصال المذمومة التي يوصم بها المنافقون؛ لأن الإنسان إذا إعتاد الكذب يسهل عليه أن يخون الأمانة؛ لأن الكذب خيانة الإمانة من يصدقك. فالمستمع الذي منحك ثقته، وتهياً لأن تجربته بالحقيقة (الصواب) يكون في هذا المقام قد عقد معك عهداً سرياً واتفاقاً باطنياً، غير مكتوب، ولا مشهوداً عليه من الآخرين - اتفق فيه معك على أن تجربته بالحقيقة؛ أى بالشئ الذي تعتقد أنت - أيها المتكلم - بصوابه، وتكون أنت قد تعهدت له بذلك. فإذا كذبت عليه، وأخبرته بخلاف ما تعتقد بصحته على سبيل اضلاله فأنت بالكذب عليه قد خنت الأمانة. فالكذب أصل النفاق، والصفة الأم التي تلد كل الخصال السيئة، التي تطبع سلوك المنافق وتشى بكفره الباطن.

(٢) خيانة الأمانة (وإذا اتئمتن خان).

والأمانة شئ يكلف الإنسان بحفظه (رعايته وحمايته من الضياع، إلى حين يطلب صاحبه (مالكه) استرداده. فها هنا وقع اتفاق (عهد) بين صاحب الشئ وبين من اتئمتن عليه (حمل أمانة حفظه). وليس على ذلك العهد شهود غير الطرفين: صاحب الأمانة ومن تحملها. فحمل الأمانة (عهد) لم يشهده أو يشهد عليه غير مالك الشئ ومن حمل أمانته.

والأمانة ثلاثة أنواع أو ثلاث درجات:

(أ) الأمانة التي بين الإنسان وخالقه.

وهى الخلافة التي حملها الإنسان، والتي أعطى بموجبها السيادة على كل ما فى الأرض من مخلوقات، يتصرف فيها بمشيئته (اختياره) وإرادته، متعهداً بينه وبين الله خالقه أن يكون وكيلاً أو نائباً عن الله ﷻ فى تسيير شئون كوكب الأرض، التي تقع تحت سلطانه بموجب عقد الخلافة.

وبمقتضى ذلك العقد السرى (الباطنى) يكون على الإنسان أن يصلح الأرض ويحفظها من الفساد وذلك بطاعة شريعة الله ﷻ. فالقيام بشريعة الله هو مضمون هذه الأمانة.



(ب) الأمانة التي بين الفرد المواطن والأمة التي تمنحه هويته وتنمو فيها شخصيته. وتتجلى هذه الأمانة في " الوظيفة العامة " التي إئتمنته الأمة على القيام بها، على أفضل وجه يحقق مصالح الأمة.

فإذا استغل الإنسان سلطة وظيفته العامة لكي يحقق أغراضاً شخصية، ويحصل مغنم دنيوية خارج حدود القانون، فيأخذ - مثلاً - الرشوة من أجل أداء حقوق الناس، أو يتعسف في استخدام سلطته من أجل التنكيل بخصومه،..... إذا عمل شيئاً من ذلك؛ فقد خان الأمانة.

(ج) الأمانة التي بين الأفراد بعضهم البعض. وهى الأشياء الثمينة ذات القيمة عند أصحابها التي يحفظونها عند غيرهم من الناس. فإذا أنكر المؤمنون ما أخذوه على سبيل الحفظ، ورفضوا أن يؤدوه عند طلب إسترجاعه فقد خانوا الأمانة.

فإذا إستمرأ الإنسان خيانة الأمانة وتكرر منه هذا، كما يشير قوله: " إذا إئتمن خان " أى كلما ائتمن لم يؤد ما تعهد بحملة لحين طلبه، هان عليه أن يتردى إلى الخصلة الثالثة.

(٣) الغدر بالعهد (إذا عاهد غدر).

العهد: اتفاق مبرم بين طرفين أو أكثر، يتحمل به كل طرف أداء حقوق عليه للطرف الآخر أو الآخرين، وهو إتفاق عليه شهود، يستعان بهم لإثبات الحقوق عند المطالبة بها، أو التقاعس أو المماطلة في أدائها. والعلانية التي تعنى شهادة الأغيار هى الفرق بين العهد والأمانة. فالأمانة عهد " سرى " والعهد أمانة علنية.

فإذا استمرأ المنافق الغدر بالعهد كما يشعرونا قوله ﷺ: (إذا عاهد غدر) أى كلما عاهد أنكر الحقوق التي عليه للآخرين ورفض أداؤها، فإنه ينحدر إلى الخصلة الرابعة:

(٤) الفجور فى الخصومة (إذا خاصم فجر).

ومادة اللفظ " فجر " تدور معانيها حول شق الشىء وتمزيقه إلى أشلاء متناثرة وإزالته. فنحن نتحدث عن وقت الفجر وهو التور الذى يشق ظلام الليل ويمزق أستار الظلام.

ونتحدث عن تفجير المبانى بالقنابل. ويتحدث القرآن الكريم عن تفجير البحار ضمن أهوال يوم القيامة ﴿وَإِذَا الْبُحَارُ فَجِرتْ﴾ [الانفطار: ٣]. والمعنى: وإذا شقت وتمزقت أحواض (قصور) البحار، فتسرب ما فيها من ماء، وصارت البحار فارغة (خالية) كأن لم تكن.

والفجور - عقيدة أو إيماناً - يعنى تمزيق رابطة (حبل) الطاعة، التى ينبغى أن تصل العبد بربه، وتضمن للعبد البقاء فى (داخل) رحمة الله ﷻ فالفجور يعنى ارتكاب المعاصى، التى تسخط الله وتغضبه، فيطرد العبد من رحمته.

والفجور إذن - من منظور الإيمان اسم جامع لكل ما يخرج العبد من ثوب الرحمة الإلهية؛ لأن المعاصى تمزق "لباس التقوى" الذى يبقى العبد فى جنة الله ﷻ، فيصير عارياً يعانى ويلات العذاب فى النار.

والفجور - شريعة وخلقاً - يعنى شق وتمزيق حبال المودة التى ينبغى أن تربط بين المؤمنين باعتبارهم أخوة فى أمة واحدة. فالفجور من منظور الشريعة والخلق تمزيق لثوب المحبة الذى يجمع بين المسلم وأخيه المسلم فيتحول إلى عدو له، يسعى إلى إيذائه بل اهلاكه، عند نشوب الخصومة بينهما؛ بسبب الغدر بالعهد، برفض المنافق الوفاء بأداء الحقوق التى عليه.

وهكذا نرى أن الكذب يؤدي إلى خيانة الأمانة، التي تفضي إلى الغدر بالعهد، الذي يبعث على الفجور في الخصومة. واجتماع هذا الخصال الأربع: الكذب في الحديث، وخيانة الأمانة، والغدر بالعهد، والفجور في الخصومة يشير إلى اكتمال معنى النفاق في قلب الإنسان فيصير " منافقاً خالصاً "؛ إذ يتمكن الكفر (التكذيب برسالة الله) من قلبه، حتى لا يدع موضعاً للإيمان فيه، مع استمرار ظهوره في صورة المسلم في أعين الناس. وظهور خصلة من هذه الخصال الأربع على سلوك الإنسان يدل على تسرب الكفر إلى قلب الإنسان، وحينئذ يصبح منافقاً خالصاً.

ومعنى هذا أن ظهور إحدى هذه الخصال الأربع المذمومة على سلوك العبد، يشير إلى أنه قد بدأ يتحول إلى منافق، يسير على الطريق إلى الكفر؛ ليمسى منافقاً خالصاً عند اجتماع تلك الخصال الأربع، وإن ظل بالطبع مسلماً في الظاهر على سبيل الخداع. وإذا جاهد الإنسان نفسه، وتخلّى عن واحدة من تلك الخصال المذمومة، تخلّى الكفر عن بعض مكانه وسلطانه للإيمان. وعاد الإنسان ليسير على الطريق إلى الإيمان. فإن واصل السير حتى يترك كل تلك الخصال الأربع المذمومة، تطهر قلبه من الكفر، وأصبح صحيح الإيمان، أو سليم القلب. ولكن المؤمنين لا يتاح لهم في خضم هذه الحياة الدنيا وضع سلوك المنافق تحت الملاحظة والمراقبة، حتى يشهدوا اجتماع الخصال الأربع المذمومة في سلوكه. ومن ثم فإنهم في أشد حاجة إلى رؤية علامة (آية) واحدة واضحة، تدلهم بسهولة على نفاق المتصف بها، من أجل يحدوره، ويعموا أنفسهم من أذاه. إنهم يحتاجون إلى رؤية شيء واحد فقط ينبئهم بأن الكفر قد تسرب إلى قلب هذا الذي يتظاهر بالإسلام، وأنه قد تحول إلى منافق؛ حتى لا يقعوا ضحية خداعه. سأل رجل قائلاً: يا رسول الله، ما آية المنافق؟

ومن أجل تلبية نداء هذه الحاجة، واصل رسول الله ﷺ حديثه قائلاً:

**** آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا إئتمن خان، وإذا وعد أخلف.**

قوله: آية المنافق ثلاث معناه: علامة حدوث النفاق ظهور إحدى هذه الخصال الثلاث على سلوك المسلم. وفي كلمات أخرى: ظهور إحدى هذه الخصال الثلاث الآتى ذكرها، تدل على دخول النفاق (الكفر) فى قلب العبد، وسيره على الطريق لكى يصير فى النهاية منافقاً خالصاً. ولذلك يجب توخى الحذر عند التعامل مع من تظهر على سلوكه إحدى الخصال الثلاث: الكذب فى الحديث، وخيانة الأمانة، واخلاف الوعد. ولنلاحظ أن إخلاف الوعد إنما هو صورة من الغدر بالعهد؛ لأن الوعد عهد بين الواعد والموعد ينتظر فيه عطاء الواعد. وبذلك ندرك أن رسول الله ﷺ قد استثنى وأخرج خصلة " الفجور فى الخصومة " من آيات (علامات) المنافق؛ لأنها خصلة لا تحدث إلا عند وقوع الخصومة، بالتنازع على الحقوق التى ترتبت على العهد، وهو أمر لا يحدث كثيراً فى خضم الحياة اليومية التى يعيشها أغلب الناس. والغاية من إيراد هذه الفقرة من الحديث النبوى هى بيان الخصال الشائعة، التى يمكن أن تدل على تسرب الكفر إلى قلب من يتظاهر بالإسلام.

فسئل رسول الله ﷺ: أياكون المؤمن بخيلاً؟

فقال ﷺ: نعم

فقيل: أياكون المؤمن جباناً؟

فقال ﷺ: نعم

فقيل: أياكون المؤمن كذاباً؟

فقال ﷺ: لا. ثم تلا قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥] ثم واصل حديثه قائلاً: يطبع المؤمن على كل خلق إلا الخيانة والكذب. الكذب يجانب (يخالف ويطرده) الإيمان. ثم توجه إلى المسلمين بخطابه واعظاً:

عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار. ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

وليس الكذاب بالذى يصلح بين الناس، فينمى خيراً، ويقول خيراً. وسلوا الله اليقين والمعافة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافة. يتحرى: يتوخى ويجرّص على الشيء.

يكتب عند الله: تكون درجته عند الله يوم القيامة.

وليس الكذاب بالذى يصلح بين الناس: لا يعد من يتكلم بما يخالف الحقيقة كذاباً إذا كانت غايته الإصلاح بين المتخاممين من الناس، فيدعى مثلاً أن أحد الخصوم قد أثنى ثناءً حسناً على خصمه. ولم يحدث هذا، وإنما أراد إزالة الجفوة والتقريب بينهما. فالعبرة بالغاية من العمل، أى بالنية؛ لأن الأعمال بالنيات.

والمعافة: النجاة من الابتلاءات الشديدة. جمعنا نص هذا الحديث النبوى (الخطبة النبوية) من مختلف الروايات التى أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث رقم ٣٣، ٣٤، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٤، ٦٠٩٥.

والأحاديث التى أوردها الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير" تحت الأرقام: ١٦، ٨٨٩، ٨٩٠، ١٦٦٥، ٤٠٧١، ٤٠٧٢، ٥٣٧٩.

فَتَبَيَّنُوا: فتثبتوا من صحة (صواب) النبأ بطلب الدليل. والمقصود: لا تسارعوا بتصديق كل ما يقال لكم من أنباء، خاصة إذا كان القائل فاسقاً مشهوراً بكثرة الكذب. بل اطلبوا دائماً من القائلين الأدلة التي يقبلها العقل على صحة ما يقولون. لا نحتاج إلى بيان ما في هذا الأمر الإلهي من إحترام للعقل البشري، الذي هو مناط التكليف بالشرعية. ولا نحتاج إلى بيان أن هذا الأمر الإلهي دعوة للناس إلى أن لا يهملوا عقولهم في كل شئون حياتهم، وأن ينزهوا أنفسهم عن الغفلة وعن الأسياق وراء الأوهام والخرافات، وعن الاستسلام لتراث الأسلاف، الذي حمله قول القائلين ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤] وعن التقليد الأعمى والرضوخ لما شاع بين الناس من عقائد وأفكار وعادات دون تفكير وتدبر. ولا نحتاج أيضاً إلى بيان أن الصفات الخلقية لقائل النبأ أو المتكلم هي المدخل الذي يحدد استجابتنا الأولى لما يأتيها به من أنباء وأقوال؛ فمن اشتهر عنه الكذب يجب الحرص الشديد قبل قبول (تصديق) ما يقول. ولكن ما يجب بيانه - حقاً - أن القرآن لم يأمرنا بتكذيب (عدم تصديق) النبأ الذي يأتي به (فاسق) مشهور بالكذب، لأن الكذاب قد يصدق أحياناً، فينطق بالحقيقة مخلصاً في لحظات نادرة. والصادق قد يكذب، ولو على سبيل الوقوع في الخطأ (الوهم) دون تعمد اخفاء الحقيقة وإضلال الناس؛ إذ قد يغفل أو فالعبرة يسيء الفهم الفهم دائماً بمناقشة القول، وامتحانه حسب قواعد العلم، وليس الاعتماد على صفات القائل، وتقويمنا لشخصيته؛ لأن تقويمنا قد يخضع غالباً أو يتأثر بعوامل وأسباب ذاتية غير موضوعية. إن القرآن يأمرنا ببحث صحة الخبر بالاعتماد على الحقائق، وليس التفتيش في سمعة "القائل". وأعتقد أن هذا كان أحد مواضع الزلل الخطيرة، التي وقع فيها علماء الحديث النبوي؛ إذ أنهم قد بالغوا كثيراً وأسرفوا في الاعتماد على ما اشتهر من صفات رواة الأحاديث الخلقية، وسمعتهم عند الآخرين، عند قبولهم أو رفضهم للأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، دون أن يفحصوا ويدققوا بالقدر اللازم في نص

(مضمون) الروايات وفي مدى توافقها مع نصوص القرآن الكريم، وأحكام العقل (الحقائق العلمية) والقواعد العامة للدين أى الشريعة، ودون أن يعرفوا الظرف أو الحدث الذى قيل فيه الحديث. فقبلوا وصححوا أحاديث؛ لأن سمعة الرواة كانت - عندهم - فوق مستوى الشبهات. وضعفوا أحاديث ورفضوها؛ لأن بعض الرواة كانت تحوم حولهم الشبهات.

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً واحداً؛ حتى لا نطيل، نقول: إن الإمام الترمذى قال عن الحديث الذى ذكر أن رسول الله صلى الله وسلم قد أمر إثنين من نسائه بالاحتجاب، عند دخول عبدالله بن أم مكتوم الأعمى..... قال الترمذى عن هذا الحديث أنه " حسن صحيح " بينما رأى الأستاذ الألبانى أنه " موضوع لا أصل له " ولم ينشأ هذا التضارب الذى لا سبيل إلى تجاوزه، إلا لأن البحث كله دار حول شخصية " نبهان مولى أم سلمة " فمن وثقه قبل الحديث، ومن لم يثق فيه رفض الحديث النبوى. فتأمل!!

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾: حتى لا تؤذوا جماعة من الناس، أى من أجل ألا تعندوا على فريق من البشر.

بجهالة: بتصرف قائم على جهل. والجهل جزم برأى خاطئ والجهالة تعنى العمل بناء على وانبعثاً من عقيدة خاطئة قامت على نبأ كاذب. والمقصود: بغضب قائم على وهم. والآية تأمر المؤمنين بالتثبت من صحة الأخبار التى تأتى إليهم، بطلب الدليل على صحة الأقوال من الذين أتوا بالأخبار؛ حتى يتجنبوا الاعتداء على الناس بدون وجه حق (عدل)؛ بناءً على نبأ كاذب، فيصبحوا بعد العدوان نادمين على ما فعلوا؛ إذ ظلموا الناس، وانتهكوا حرمتهم. والندم: لوم النفس على لم وقعت فيه من أعمال كان يجب عليها ويجدر بها أن تتجنبها وهو شعور يلازمه الحزن (توجع القلب) واليأس من تغيير أو محو ما حدث.

ومجموع الحزن واليأس هو الأسف فالندم إذن. هو لوم النفس والأسف على ما صدر منها.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾: وعليكم أن تتبينوا أن رسول الله حاضر معكم، فيجب عليكم أن تنتظروا حكمه (أمره) في القضية التي أثارت النقاش والخلاف بينكم، لا أن تسارعوا بإصدار الحكم فيها، من عند أنفسكم منبعثين من آرائكم، دون الرجوع إليه ﷺ؛ لأنه هو الحاكم الذى يتولى إدارة شئون الأمة.

والمقصود - أولاً - بيان أن الحاكم الذى يقوم بإدارة شئون الأمة، بإعتباره وكيلاً عنها، هو الذى يتولى إصدار القرار، فى القضايا العامة التى تخص مجموع الأمة مثل: إعلان الحرب (القتال) أو إقرار السلام أو إقامة هدنة أو إبرام صلح مع الأعداء.... وفى هذا عتاب ولوم للمسلمين؛ لأنهم سارعوا بإعلان إرادتهم قتال بنى المصطلق، بناءً على النبأ الكاذب الذى أتى به الفاسق الوليد بن عقبة، ولم ينتظروا رأى رسول الله ﷺ، وهو الحاكم الذى يتولى إدارة شئون الأمة من أجل تحقيق مصالحها العامة. والمقصود - ثانياً - بيان أن هذه المهمة التى كانت لرسول الله ﷺ - فى الجيل الذى شهد تنزيل الرسالة - قد أُلقيت على كاهل الحكام الذين يخلفونه فى " إمامة " (قيادة) الأمة فى شئونها الدنيوية. فالحكام هم خلفاء رسول الله فى تسيير شئون الأمة العامة بما يحقق مصالح العباد والبلاد فى هذه الحياة الدنيا. فلا بد لكل أمة (جماعة من الناس) من حاكم يتولى أمورها العامة.

وفى نفس الوقت فإن رسول الله لم يزل حاضراً قائماً فى المؤمنين، عبر كل العصور برسالاته التى يحملها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتى يجب أن يرجع إليها عند الخلاف فى القضايا. والمقصود - ثالثاً - الإشارة اللطيفة إلى أن رسول الله ﷺ - فى حقيقته - هو روح الله الذى حصلت منه كل نفس على النفخة التى اكتسبت بها الحياة، فخرجت من الغيب إلى الشهادة. فهذه الآية تخاطب المؤمنين فى كل العصور؛ لأن

رسالة القرآن قائمة حتى تأتى الساعة ويزول بناء هذا الكون. ورسول الله قائم حاضر فى كل نفس بنفخة الروح (سر الحياة) التى أخرجتها من الغياب إلى الحضور. ومن هذه النفخة من روح الله إكتسبت كل نفس " الفطرة ". وهى المعرفة الأولية غير المكتسبة بالتعلم التى تعرف بها خالقها ﷻ، وتبعثها على البحث عنه والاتصال به فى هذه الحياة الدنيا. ومن هذه النفخة " الروحية " نبت فى باطن (قلب) كل نفس " واعظ الله " الذى يحضها على عمل الخير. ويحذرها من الوقوع فى عمل الشر. وذلك الواعظ الالهى القائم فى قلب كل نفس هو ما نسميه فى لغتنا الدارجة بالضمير الخلقى أو يسميه الفلاسفة والمفكرين الحاسة الخلقية (الحس الخلقى). والخير فى جوهره - هو طاعة الله، والشر هو معصية الله. ومع نزول النفس - بقوة نفخة الروح - إلى هذه الحياة الدنيا، احتفظت فى باطنها (قلبها) بذكرى حياتها القديمة، فى جنات عدن التى كانت فيها قبل هبوطها مع آدم إلى ميدان الإبتلاء. وتلك الذكرى هى التى تكون ما نسميه حاسة الجمال أو الحس الجمالى الذى تقسم به النفس الأشياء إلى جميلة أو قبيحة، أعنى ما تميز به الجمال فى الأشياء، التى تثير أو توقظ بصورها الذكرى الكامنة فى القلب للحياة القديمة فى جنات عدن.

فإذا كان واعظ الله (الحس الخلقى) فى قلب كل إنسان هو ما يميز بين الخير والشر، فإن الحس الجمالى هو ما يلتقط الجمال فى الأشياء، عندما تنبه صورها ذكرى الجنة الكامنة (المدفونة) فى أعماق النفس، فتوقظها أو تحيىها فيما يسمى بالتجربة الجمالية. وكل تلك الثمار: الفطرة (المعرفة الأولية) والحس الخلقى والحس الجمالى هى نتائج تلقى النفس نفخة من روح الله. ولما كان رسول الله محمد ﷺ فى حقيقته، أى جوهره القائم عند الله هو روح الله؛ فهذه الثمار فى باطن (قلب) كل نفس يكون رسول الله ﷺ حاضراً قائماً فيها. وذلك هو " سر ".

قوله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

﴿لَوْ يَطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾:

العنت: الشدة والضيق.

والمعنى: لو أن رسول الله ﷺ هو الذى أطاعكم، وإنساق وراء أهوائكم فمن المؤكد أنكم ستعانون كثيراً من عسر المعيشة وضيق الأرزاق؛ لأن الأهواء ضنك المخالفة للحق والمعارضة للحكمة هى الباعث لكم على أكثر ما تطلبون من أمر ديناكم. ومن ثم فإنها نقضى بكم - لا محالة - إلى فساد حياتكم وذنك معيشتكم.

كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْهَوَاءَ هُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فسدت: صارت غير قادرة على توفير الحياة الطيبة (الصالحة) والتمتع بها.

فلو أطاعكم رسول الله، وأعلن الحرب على بنى المصطلق فقا تلتوهم؛ لأصابكم العنت، ولندمتم على ما فعلتم؛ لأنكم ستكونون - حينذاك - قد ظلمتم أبرياء واعتديتم وأسأتم إلى قوم مؤمنين طائعين ومسلمين. فواجب المؤمنين أن يطيعوا رسول الله ﷺ، ويضبطوا حياتهم بأحكام شريعة الله التى يبلغها إليهم رسول الله. ومعنى هذا أن يجتهد الإنسان فى اخضاع شهواته وأهوائه لأحكام شريعة الله ﷻ. وهو أمر عسير على النفس الإنسانية، ولا يمكن للإنسان تحقيقه إلا إذا إستمد القوة اللازمة من خالقه ﷻ الذى يمكنه من التغلب على أهوائه، والتخلص من الخصال المذمومة، وضبط شهواته بحدود الشريعة الإلهية. ومحال على الإنسان أن يقدر على ذلك إلا إذا أحب الإيمان، وأحس بجماله، وكره الكفر والنفاق والعصيان. ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانُ وَزَيْنَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمعنى: لو ترككم الله ﷻ لأنفسكم لركبتكم شهواتكم وأهواءكم، فساقتكم إلى

العنت وأوردتكم المهالك، ولكن الله ألقى في قلوبكم حب الإيمان، وجعلكم تشعرون بجماله، وجعلكم تبغضون الكفر والفسوق والعصيان، وتشعرون بقبح هذه الخطايا؛ من أجل أن ينقذكم من العذاب الأبدى ويمنحكم الخلود في رحمته. الحب: شعور عميق مضىء بالإنتماء إلى المحبوب، والتآلف معه، يبعث على التودد (التقرب) إليه من أجل التوحد معه، وهو ما يعنى إرادة الاندماج معه، أى أن يصبح الإثنين (المحب والمحبوب) واحداً كما كان الحال قبل التفرق. وفي كلمات أخرى: الحب إرادة العودة إلى حال الوحدة، التى تجمع بين المحب والمحبوب، يبعثها الشعور الحميم بوحدة الأصل والمصير، فتقضى إلى انجذاب القلب إلى المحبوب، انجذاباً لا يتوقف إلا بالاندماج والتوحد.

والإيمان هو التصديق برسالة الله، الذى يولد فى القلب إرادة الطاعة. وحب الإيمان يعنى حب رسالة الله؛ أى إرادة التوحد معها بالطاعة ويطلق لفظ "الإيمان" فى القرآن على رسالة الله، أعنى على القرآن نفسه، فى مثل قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥].

الإيمان:- القرآن، رسالة الله إلى الناس ورسول الله ﷺ هو الذى أتى لنا برسالة الله ﷻ ومحال فى الوجدان التفریق بين رسالة الله ورسوله. فلا يمكن أن تحب رسالة الله (الإيمان) وفى نفس الوقت تكره رسوله ﷺ الذى حمل إليك الرسالة. ولا يمكن أن تحب رسول الله ﷺ وفى نفس الوقت تكره رسالته، فبالنسبة إلى الوجدان الرسالة والرسول شيئاً واحداً. ونفهم من هذا أن حب الإيمان (رسالة الله) يعنى - فى النهاية أو البداية - حب رسول الله الذى أتى بالإيمان. ومن ثم فإن حب الإيمان يعنى انجذاب قلب المؤمن إلى رسول الله ﷺ بشعور الإنتماء (الرجوع إلى أصل واحد) والتآلف، الذى يولد إرادة التوحد معه عبر اتباعه، أى طاعته والاقتراء به. وهو ما يعنى اجتهد العبد المؤمن فى تمثّل رسول الله؛ فى حياته أعنى إجهاده فى أن يصبح صورة حية مشهودة من

رسول الله ﷺ من أجل أن يصير الإثنين رسول الله حامل الرسالة (الإيمان) والعبد المؤمن في يوم ما صورتين الإثنين: لكائن واحد، أو رسمين لحقيقة كلية جامعة واحدة، تضم الجميع ولا يزال يتوالى ظهورها في كافة الصور.

﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: وجعلكم ترون الإيمان جميلاً، وتتذوقون حلاوته. وقوله ﷺ: ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يحمل دلالة بالغة الوضوح على وجود حاسة (ذائقة) الجمال في بواطن (قلوب) النفوس الإنسانية، وأن الشعور بالجمال يتولد من تنبيه (إيقاظ) حاسة الجمال في قلب الإنسان، التي تستحسن وتحب الأشياء الجميلة، وتستقبح وتكره (تنفر من) الأشياء القبيحة، أي التي تفتقد الجمال في صورها. وقد ربط الله ﷻ بين الحب والشعور بالجمال بأداة العطف " الواو " فقال: حب إليكم الإيمان وزينه فعطف تزيين الإيمان في القلب، أي الشعور بجماله على حبه. فبين بهذا العطف أن الشيء الجميل هو الشيء الذي ينبه حاسة (ذائقة) الجمال في قلب الإنسان ويولد فيه الحب، أو أن حب الشيء هو الذي يولد في القلب الشعور بجماله. ومن ثم فيوجد ارتباط دائم، أو تلازم لا ينفك بين جمال الشيء وحبه. ونفهم من هذا أن الشيء الجميل هو الشيء الذي ينبه حاسة (ذائقة) الجمال في قلب الإنسان، ويجذبه بشعور الانتماء (الرجوع إلى أصل واحد) والتآلف إلى التوحد معه. وهذا هو التعريف الدقيق للشيء الجميل ولمعنى الإحساس بالجمال. ونحب أن نحيل القارئ إلى كتابينا نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن والجمال في القرآن الكريم.

*** **

﴿وَكُرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

الكراهية: نفور القلب من الشيء، يبعثه الإحساس بالخلاف وعدم التآلف معه، فيولد إرادة الانفصال والتباعد عنه.

الكُفْر: تكذيب برسالة الله، يولد إرادة المخالفة (المعصية).

الْفُسُوق: النفاق وهو إبطان (كتمان) الكفر في القلب وإعلان الإيمان، بإجراء أحكام الإسلام على الجوارح بالأفعال والأقوال التي يراها الناس. والفسوق إذن هو الارتداد عن الإيمان؛ لأن المنافق يكفر بقلبه، بعد إعلانه الإيمان ودخوله ظاهراً في الإسلام.

العَصِيَّان: مخالفة الأمر، وارتكاب المحذور (المحرم). فهو الاعتداء على حدود الله (أحكام الشريعة) بارتكاب الخطايا (الكبائر) رضوخاً للضعف البشري، وانسياقاً وراء الشهوات والآهواء، مع بقاء الإيمان (التصديق بالرسالة) كامناً في القلب، ضعيفاً غير قادر على توجيه وضبط السلوك. والعاصي مرتكب المعصية (الكبيرة) لا يعد كافراً بنص الآية، التي فرقت بين الكفر والعصيان. وذلك لبقاء الإيمان، وإن كان قليلاً ضعيفاً في قلبه. ولا يعلم ما في القلوب إلا الله سبحانه تعالى عالم الغيب، فمادام لم يعلن الإنسان الكفر صريحاً، وينكر (يرفض) أحكام الشريعة يجب اعتباره مسلماً وضمه في عداد المؤمنين.

ولا نعلم لماذا سودت الصفحات في الإجابة عن سؤال: هل مرتكب الكبيرة كافر (أ أم لا؟) واثارت الخلافات والمنازعات مع وجود هذه الآية الكريمة مكتوبة المصحف الشريف؟!!!

أولئك الذين يحبون الرسالة والرسول، ويكرهون الكفر والفسوق (النفاق) والعصيان ﴿هُمُ الرّٰشِدُونَ﴾، المتصفون بالحكمة الذي يجمعون في سلوكهم وعملهم بين العدل والرحمة والعلم.

﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ هذا الحب للإيمان، والشعور بجماله (تذوق حلاوته) وكرهية الكفر والفسوق والعصيان ليسا في حقيقتهما - بالنظر إلى أصلهما - الإلهي فضلاً من

الله: فيضاً من رحمة الله ﷻ جاد به على من اختار من عباده، دون عمل سبب منهم، فإن فضله عليهم سبق خلقهم.

﴿وَنِعْمَةً﴾: وحباً لهم؛ فأراد ﷻ أن يكشف لهم عن نفسه - جل جلاله - تكريماً لهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يتبين في وضوح تام حقيقة جميع مخلوقاته، ظواهرهم وبواطنهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ حكيم يتصرف في مخلوقاته بموجب عدله الذي لا يظلم مثقال ذرة، ورحمته التي وسعت كل شيء، وعلمه الذي أحاط بجميع الأشياء ظواهرها وبواطنها، وهو يعرف أين يضع فضله ولمن يبذل حبه ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا﴾.

تتوجه الآية إلى عموم المؤمنين بوجوب التدخل من أجل إيقاف القتال، الذي قد ينشب بين جماعتين منهم. والإصلاح الواجب بين الطائفتين المتقاتلتين يكون بنهيهما عن القتال، أي أمرهما بالكف عن القتال والبحث عن أسباب الخلاف، الذي أدى إلى التنازع والقتال. ومن ثم بيان الطائفة الظالمة وأمرها برد المظالم إلى أهلها واسترضاء المظلومين. وهذا النص القرآني الحكيم يدلنا على عدة حقائق:

١- إن القتال (الحرب) ينشب غالباً بين الجماعات البشرية لأسباب دنيوية؛ إذ ينشأ من التصارع على مصادر الثروة؛ ومناطق النفوذ والسيادة، وليس لأسباب دينية. فكلًا من الطائفتين المتقاتلتين المذكورتين في الآية وصفت بأنها من المؤمنين، فالقتال (الحرب) ليس بين مؤمنين (مسلمين) وكافرين، بل بين طائفتين من المؤمنين فسبب؛ الخلاف دنيوى وليس دينياً.

٢- لا يضع على وجه القتال (الحرب) قناعاً دينياً مقدساً إلا الذين يريدون إخفاء أطماعهم الدنيوية بغطاء دينى مقدس؛ من أجل أن يحشدوا الأتباع بدعاوى دينية فارغة وكاذبة، ويستثيروا حميتهم الدينية بتكفير وشيطة أعدائهم وخصومهم.

٣- الآية تقر بوجود طوائف متعددة من المؤمنين. يبلغ الخلاف بينها حد الاقتتال. ومن ثم فالآية تقر بوجود كيانات سياسية مختلفة للمؤمنين. وفي كلمات أخرى: (تقر بوجود دول مختلفة) للشعوب الإسلامية. وذلك في سياق تقسيم البشر إلى شعوب وقبائل؛ باعتباره عملاً إلهياً حكيماً يدير به الله ﷻ حركة التاريخ البشرى.

ومن ثم يتبين لنا وهم الذين يحملون أو يغامرون بالدعوة إلى تكوين وبناء دولة إسلامية واحدة يسمونها الخلافة الإسلامية، تجمع كل المسلمين تحت سلطانها.

لأن ذلك الحلم الأسطوري لم يتحقق في التاريخ منذ نزول القرآن الكريم حتى يوم الناس. فلم يحدث أن أنضم تحت سلطة دولة مركزية واحدة جميع المسلمين في شتى أرجاء الأرض. فإن أبكر دولة إسلامية من حيث عدد السكان - أية وهي إن ألا وهي إندونيسيا التي تقع في أقصى شرق الأرض لم يحدث أبداً أن خضع سكانها لدولة إسلامية مركزية تقع عاصمتها خارج جزر إندونيسيا. ومن ناحية أخرى فإن أكبر امبرطورية إسلامية - وهي الدولة العثمانية - التي بسطت سلطانها على أكبر مساحة من الأرض استطاعت سلطة إسلامية أن تسيطر عليها... هذه الدولة شاسعة المساحة مترامية الأطراف، لم تفرض سلطانها على كل المسلمين في جميع أنحاء الكرة الأرضية رغم بقائها طيلة خمسة قرون متطاولة.

إن أصحاب الشعارات الجوفاء الرنانة من تيار ما يسمى بالإسلام السياسى يعجزون عن قراءة التاريخ، ورؤية حقائقه التي تقول بأبلغ عبارة: إن كل محاولة لضم البشر كلهم في كيان سياسى واحد (دولة واحدة) ستبوء بالفشل؛ لأن حقيقة انقسام البشر إلى شعوب وقبائل وتنوعهم، ستفرض سلطانها وتدمر احتمالات نجاح مثل هذه المحاولات، التي لا يقوم بها إلا الساسة المغامرون الطامعون في نهب ثروات الشعوب الأخرى، متدربين ومخفين أطماعهم وراء شعار دينى براق.

كما يتعامل أصحاب الحلم الأسطوري عن إستحالة تحقيقه بالنظر إلى إنعدام الوسائل اللازمة لبلوغه، ويعجزون عن الإجابة عن أى سؤال هام يتعلق بتلك الدولة المركزية الموهومة... أين ستكون عاصمة تلك الخلافة المزعومة؟ وما هو نظامها السياسى؟ جمهورى أم ملكى؟ وكيف سيتم اقناع الرؤساء والملوك والأمراء بالتنازل عن سلطانهم للخليفة المنشود؟ وكيف سيتم اختياره؟ وهل سيتم تكوين تلك الدولة المنشودة بقوة السلاح أى بالقتال، الذى سينتهى - لا محالة - إلى المزيد من الخلاف والتنازع والتشردم.

وإذا كان الإسلام رسالة آلهية تخاطب جميع البشر على وجه الأرض، فهل يقبل العقل قيام دولة مركزية واحدة، يخضع لسلطانها كل البشر، وتفرض سيادتها على مجموع الكرة الأرضية!!؟

لقد دعا القرآن الكريم إلى وحدة الأمة الإسلامية. ولفظ " الأمة " فى القرآن الكريم يعطى معنى الثقافة، وليس معنى السلطة السياسية (الدولة) التى يسميها القرآن الملك.

قال الكافرون المشركون عباد تراث (ثقافة) الأسلاف.

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

أمة: طريقة فى الحياة أى ثقافة.

فالمطلوب دينياً توحيد ثقافة المسلمين، بإجراء التغييرات المطلوبة فى تراث شعوبهم؛ حتى يتوافق مع القيم التى يدعو إليها القرآن الكريم والسنة النبوية، وليس توحيد المسلمين فى دولة واحدة، فإن ذلك من المحال.

٤- ولكن الآية الكريمة تتوجه بخطابها إلى عامة المؤمنين؛ من أجل إنهاء القتال بين طائفتين منهم. ومن ثم فإن الآية تدعو إلى تكوين رأى عام إسلامى يشعر كل إنسان مؤمن بمسئوليته الدينية تجاه إخوته من أبناء الأمة الواحدة من أجل أن يجتهد فى منع الاقتتال بين المسلمين والإصلاح بين المتنازعين منهم.

وهكذا نفهم أن هذه الآية تكليف للحكام الذين بيدهم أمر الحرب والسلام. فهم الذين يملكون سلطة إصدار قرار الحرب، وهم الذين يتفاوضون من أجل الصلح، ويوقعون اتفاقات الهدنة وإقرار السلام.

ومن ثم يمكننا أن نرى - من خلال نص الآية - " قيادة عامة للأمة الإسلامية بكافة دولها "، تتوجه إليها الآية بالخطاب، داعية إلى العمل من أجل منع القتال والإصلاح بين المتنازعين ونزع فتيل الأزمات؛ حتى لا تتحول النزاعات إلى اقتتال.

تلك القيادة العامة التى تضم فى عضويتها رؤساء وملوك وأمراء كافة الدول الإسلامية هى منصب الخليفة الذى يمكن - فعلاً - الوصول إليه، والذى نستطيع من خلاله تحقيق وحدة الأمة الإسلامية على الأرض فى العالم الواقعى المشهود.

ولكن يجب أن توضع فى يد تلك القيادة العامة القدرات وأن تملك الصلاحيات التى تمكنها من إجراء الصلح بين الطوائف المتقاتلة، وفرض شروط الصلح المتفق عليه والقائم على العدل.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾.

(البغى): انكار الحقوق الشرعية الواجب احترامها للآخرين. فالبغى: لا يعنى مجرد الظلم. فالظلم اعتداء على حقوق الآخرين! إنه العدوان على الغير وإنتهاك حقوقهم، ربما يباعث من الطمع أو الانتقام، أو الغيرة أو غيرها من البواعث. أما البغى فإنه انكار أن يكون للآخرين حقوقاً شرعية يجب احترامها إنه عدم

الاعتراف بحقوق الآخرين الشرعية.

فعندما يحدث الاقتتال بين طائفتين متنازعتين من المؤمنين، ويقوم أولى الأمر وأصحاب الكلمة العليا عليهما بإجراء الإصلاح بينهما بعد منعهما من الاقتتال، فإن هذا الإصلاح الذى يفضى إلى وقف القتال، وعقد الصلح أو إبرام اتفاق السلام بينهما، لا يمكن أن يتحقق منه شىء إلا بالرجوع إلى الشريعة الآلهية، أى بالرجوع إلى العدل الذى يعنى حفظ حقوق الخلق، والذى يضمن عند الإلتزام به استقرار السلام بمنع الظلم، فلا إصلاح إلا بالعدل.

فإن رفضت إحدى الطائفتين شروط الصلح القائم على العدل، بعد أن تم الاتفاق عليها، واعتدت على الطائفة الأخرى، منكرة أن يكون لها حقوقاً شرعية يجب أداؤها إليها. ههنا نحن بإزاء جريمة "البغى"؛ لأننا بإزاء انكار الشريعة ورفض الخضوع لها. فالباغى لا يعتدى على المظلوم فقط منتهكاً حرمانه مغتصباً حقوقه، بل هو يعتدى على حقوق الله نفسه ﷻ بإنكار أن يكون له ﷻ حدوداً، يجب الإعراف بها حقوق والخضوع لها بالإذعان لمقتضاها. فالباغى يرى نفسه أكبر من الخضوع لحدود الله ﷻ فإنها لا تلزمه بشىء، ومن ثم لا يرى للآخرين حقوقاً عليه.

فما هو العمل الواجب القيام به ضد هذه الفئة الباغية، إنه القتال حتى ترضخ وتعود مذعنة إلى حكم الله.

﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾.

(حَتَّى) هنا ظرفية. والمعنى: استمروا فى قتال الفئة الباغية إلى أن ترجع إلى حكم الله، فلا يتوقف القتال إلا إذا فاءت الباغية مضطرة مذعنة إلى حكم الله، الذى تم بالصلح القائم على العدل (حفظ الحقوق).

فَإِنْ فَاءَتْ وَلَا بد أن تفىء؛ إذ ليس أمامها إلا استمرار القتال حتى تفىء.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾: فقوموا بإجراء الإصلاح بينهما مرة أخرى، لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، وإرجاعهم إلى حقيقة أنهم أخوة في الإسلام، أبناء أمة واحدة. من أجل تحقيق الصلح بينهما. ولا سبيل إلى الإصلاح إلا بالعدل. ولذلك قال: بِالْعَدْلِ. والعدل هو حكم الله الذى يحفظ حقوق الخلق.

وَأَقْسِطُوا: وحققوا العدل بإنفاذ حكمه.

العدل: إقرار الحقوق الشرعية. وفي كلمة أخرى: إصدار الخلق كما بيّنتها شريعة

الله ﷻ.

ولكن ليس المطلوب إصدار القرار فقط، بل المطلوب تنفيذه، أى إنقاذ حكمه على الأرض. وهذا هو الإقسط.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

هنا يرتفع القرآن الكريم بالناس من أرض الجسد إلى سماء الروح. فإذا كان قد بين للناس جميعاً أنهم أخوة: أبناء رجل (ذكر) واحد هو آدم (عليه الصلاة والسلام) وامرأة (أنثى) واحدة هى حواء، فى قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، فإنه هنا يبين للمؤمنين أنهم بالروح أبناء كائن واحد هو روح الله الذى وهب كل شىء حياته، فمن النفخات (النفثات) التى صدرت منه، أخذت كل نفس القوة التى خرجت بها من الغيب إلى الشهادة، فأصبحت حاضرة بعد أن كانت غائبة، مخفية فى ظلام الإستتار.

ورسول الله محمد ﷺ، فى حقيقته الآلهية، أعنى فى جوهر وجوده عند الله ﷻ هو

"روح الله" الذى وهب كل شىء "سر الحياة".

ومن ثم، فإن الذين آمنوا برسول الله ﷺ، حق الإيمان، هم وحدهم الذين سيتاح

لهم أن يعرفوا ويشهدوا هذه الحقيقة: إنهم بنفخة الروح أبناء روح الله، وأن رسول الله

محمد ﷺ هو روح الله. وقد أثار القرآن الكريم إلى تلك الحقيقة إشارة بالغة الوضوح لمن تدبر في الآيات، عندما قال: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. فهذه أمومه دينية روحية، لأن نساء النبي لم يلدن أو يرضعن أحداً من المؤمنين.

والإشارة إلى أبوة رسول الله ﷺ الدينية الروحية، إذ أن رسول الله محمد ﷺ لم يعيش له ابن جسدي، خرج من صلبه وطال به الزمن حتى يبلغ مبلغ الرجال فيكلف فيؤمن كما أخبر القرآن الكريم. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فإذا كان ﷺ ليس أباً جسدياً لأحد من الرجال؛ فإنه الأب الروحي لجميع المؤمنين، بل لجميع المخلوقات، بالنظر إلى حقيقته باعتباره روح الله، ولكن المؤمنين حق الإيمان وحدهم هم من سيتاح لهم معرفة هذه الحقيقة.

ولذلك تكلم عن المؤمنين في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ولا يصح أن يقاتل الأخوة بعضهم بعضاً، بل ينبغي أن يرحم ويحب بعضهم بعضاً.

وإذا استبانَت هذه الحقيقة بنور الآية، أفضى ذلك إلى وجوب التدخل للإصلاح، فبادر بالأمر ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولا تتركوا الأخوة يقاتل بعضهم بعضاً، ويؤذى بعضهم بعضاً، فإن تقاعسكم أو تكاسلكم عن القيام بهذا الواجب؛ يطردكم من نطاق الإيمان أو يخرجكم من جماعة المؤمنين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: احموا أنفسكم من عذاب الله بالقيام بأوامره وتجنب نواهيه راجين أن تنالوا رحمته ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

وإذا كانت أخوة الجسد الفاني سريع الزوال، تفرض على كل إنسان واجبات كثيرة نحو أخيه الجسدي ابن أبيه؛ ينبغي شرعاً احترامها وأداءها، فما بالك بالواجبات التي تفرضها أخوة الروح الباقي الذي لا يزول على المؤمنين تجاه بعضهم البعض باعتبارهم أخوة أبناء بالروح لرسول الله الذي هو روح الله ﷺ!!

إن تحقيق وحدة " الأمة " الإسلامية إنما يتم بضم الدول الإسلامية القائمة، وتوحيد جهودها في برنامج عمل، يتعاونون فيه من أجل تحقيق الأهداف العليا للأمة الإسلامية، وليس تضييع الأموال وإهلاك الأنفس في صراع دموى من أجل السيادة ومغانم الدنيا بزعم السعى من أجل بناء دولة واحدة للخلافة الإسلامية المزعومة. إن المطلوب وحدة الهدف والعمل، وليس وحدة الصف والنظام السياسى.

وإن الذين يؤجلون القيام بأى جهد من أجل تحقيق أهداف الأمة الإسلامية، ومواجهة التحديات التى تعترض طريقها للنهوض، بزعم الانتظار حتى نقيم دولة الخلافة الإسلامية فإنهم - فى الحقيقة - لم يفعلوا شيئاً سوى اختيار الراحة والنوم فى ظل الشعارات الجوفاء.

(٩٨) تراجع تفاصيل قصة حادثة الإفك فى كتب السيرة وتفسير سورة النور (الآيات ١١ - ٢٠).

(٩٩) نسجنا هذا المشهد من مختلف الروايات التى أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للحديثين رقم ٣١١٣، ٦٣١٨ فى كتاب " فتح البارى بشرح صحيح البخارى " والروايات التى ذكرها الإمام محمد بن يوسف الصالحى فى كتابه " سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد " - الجزء الحادى عشر: ص ٤٩١ - ٤٩٢.

ونذكر مرة أخرى بأن إقرار رسول الله ﷺ للرق (استعباد وبيع البشر) كان أمراً تاريخياً (زمنياً) مؤقتاً، يتوافق مع الأوضاع القانونية والاجتماعية والسياسية السائدة فى ذلك العصر الذى شهد تنزيل الرسالة الإلهية. ولكن شريعة الإسلام، أعنى القواعد العامة المستنبطة من التدبر فى آيات القرآن الكريم والسنة النبوية، والتى تصلح لكل زمان ومكان، والتى ينبغى للمؤمنين فى كل جيل أن يستلهموها عند التشريع؛ من أجل ضبط حياتهم طبقاً لمقتضيات " القيم الإسلامية " لا تسمح باستمرار الرق.

بل على النقيض من هذا، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أوجبا على المؤمنين السعى والاجتهاد من أجل تحرير الرقاب ومحو عار الرق من حياة الإنسان. وندعو قارئنا إلى مطالعة كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية في القرآن والسنة" ليرى كيف حاربت شريعة الإسلام الرق وسعت إلى تحرير العبيد. (١٠٠) أوردنا في هذا السياق، نص الحديث النبوي الذي تناثرت أطرافه في مختلف الروايات التي ذكرها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٦٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٦٠٢٥، ٦١٢٥، ٦١٢٨ في كتابه "فتح الباري بشرح صحيح البخاري".

قوله: لا تزرموه يعني: لا تقطعوا بوله، لا تمنعوه من إتمام بوله.

السجل: الدلو الكبيرة الواسعة وهي بنفس معنى الذنوب.

قوله فإنما بعثتم معناه أن الأمة الإسلامية (جماعة المسلمين المؤمنين) مكلفة بإبلاغ رسالة الله إلى الناس. وإنها مأمورة عند قيامها بهذا الواجب بالتيشير على الناس وتبشيرهم. ومنهية عن التعسير على الناس وتنفيرهم.

والتيسير يعني التخفيف وتجنب التشدد (التعسير). والتبشير يعني إشاعة الرجاء في نيل رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء، وتجنب المبالغة في تخويف الناس. إذ أن المبالغة في التخويف تؤدي إلى تبييس الناس من رحمة الله فيدعوهم ذلك إلى النفور من طاعة ذلك الإله القاسي المحب للتعذيب، الذي يدعو إليه هؤلاء المتشددون المنفرين، فيؤدي ذلك إلى الإيغال في المعصية، والبعد عن الله ﷻ!!

ونسجنا هذا المشهد بمختلف التفاصيل التي أوردتها الإمام محمد بن يوسف الصالحى في كتاب "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" - الجزء السادس: ص ٤٠٤ - ٤٠٩، والروايات التي أوردتها الإمام القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام

القرآن " عند تفسيره للآية (١٤) من سورة الحجرات: ص ٦١٦٨، وترجمة حضرمي بن عامر في كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" - الجزء الثاني: ص ٣٠ - ٣١.

نتدرع الليل البهيم: نتخذ من الليل شديد الظلام، الذي يضل فيه السائرون، درعاً نحتمى به من البرد، ومن أذى الوحوش الضارية. والتعبير كناية عن الفقر والجوع وقلة الزاد في سنة شهباء: في سنة جدباء ذات قحط لقلة المطر. ولفظ شهباء يعنى بيضاء والمقصود لا خضرة فيها كناية ودلالة على الجوع.

الزنية (بالفتح) أو الزنية (بالكسر) أى الزنا أو السفاح. فهو يريد أن يقول لهم: أنتم أبناء الزنا أو نسل السفاح. وكان هذا اللقب يعاير به بعض بنى أسد بن خزيمة وهم بنو مالك بن مالك بن ثعلبة، والزنية لقب أمه.

الرشدة (بالفتح) أو الرشدة (بالكسر) بمعنى الرشاد. وهو الإهتداء إلى الطريق المستقيم والسير فيه وهو نقيض الطريق السيئ المعوج الذي يفضي إلى أسوأ مصير، والذي إستعمل تعبيراً أو كناية عن الزنا، كما قال القرآن الكريم ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

(١٠١) الآيات ١٤ - ١٨ من سورة الحجرات.

ميز القرآن الكريم بين الإيمان والإسلام، إذ أنكر على وفد بنى أسد أن يصفوا أنفسهم بالمؤمنين ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا﴾ وأمر نبيه ﷺ أن يعلمهم علانية أنهم غير مؤمنين. ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾.

ونسب إليهم الإسلام، وأمر نبيه ﷺ أن يعلمهم أنهم مسلمون ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

والإيمان تصديق القلب (باطن الإنسان) برسالة الله (وحى الله) أى القرآن. وهو عمل قلبى (باطنى) ينتج من دخول (نفاذ) نور الله ﷻ في قلب الإنسان.

ولذلك قال واصفاً أعراب بنى أسد ومن هم على شاكلتهم ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فالإيمان - فى حقيقته - نور يقذفه الله ﷻ فى قلب الإنسان. فمن لم يدخل فى قلبه ذلك النور لا يعد عند الله مؤمناً.

وإن كان يحسب على ما يظهر منه فى عداد المسلمين. ولذلك قال: ﴿وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا﴾ فأنتم مسلمون ولكنكم غير مؤمنين.

ومن ثم، فإن الإسلام هو قبول علنى لأحكام شريعة الله، وإجرائها على الجوارح (ظاهر الإنسان) بالأقوال والأفعال.

ولكن الإنسان قد يعلن الدخول فى الإسلام، ويدعن فى الظاهر لأحكام شريعته؛ على سبيل الخداع؛ إرادة منه لتحصيل بعض المنافع الدنيوية، ويخفى فى قلبه الكفر (التكذيب برسالة الله). وبكلمات أخرى: يخشى الإنسان - إن أعلن كفره - أن يتعرض لبعض الخسائر والأضرار الدنيوية؛ ولذلك فهو يختار أن يظهر الإسلام ويبطن الكفر. وهذا هو المنافق.

المنافق مسلم فى ظاهره، يدعى الإيمان ويبطن الكفر. إذن، فالمسلمون طائفتان: إما صادقون يوافق ظاهرهم باطنهم، وأولئك هم المؤمنون حقاً أى الصادقون.

وأما كاذبون يخالف ظاهرهم باطنهم، فهم يظهرون الإيمان بإجراء أحكام شريعة الإسلام على أقوالهم وأفعالهم، ولكن يبطنون الكفر فى قلوبهم. وأولئك هم المنافقون.

وهكذا يتبين لنا أن الإسلام فى حالة الصدق هو الإيمان. فالمؤمن حقاً يطيع الله ﷻ فى أفعاله وأقواله؛ فهو مسلم فى ظاهره، مؤمن فى باطنه (قلبه) والإسلام والإيمان وجهان لحقيقة واحدة هى التصديق برسالة الله.

ولذلك وصف الله ﷻ إنقاذه لنبى الله لوط عليه الصلاة والسلام بأيدى الملائكة، من العذاب الذى وقع على الكافرين بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَأَوْحَيْنَا فِيهَا عِزِّيَّتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الذاريات: ٣٥-٣٦].

يخبرنا أنه ﷺ قد أخرج من تلك القرية الظالم أهلها ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قبل نزول العذاب الذي أرسل على الكافرين في ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿[الذاريات: ٣٣-٣٤].

وكان هؤلاء المؤمنين الناجين في بيت واحد هو بيت لوط عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فعندما جاء الحديث على "الظاهر" الذي أشار إليه بلفظ (بيت) وهو المكان الظاهر المشهود الذي يأوى إليه الناس ويبيتون فيه، كان الكلام عن ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين هم أنفسهم كانوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ معناه أن الإيمان لم يدخل "بعد" في القلوب، وأنه قد يدخل فيما بعد في القلوب. ويصور لنا هذا التعبير الإيمان واقفاً على أبواب القلوب يطرقها، يريد أن يدخل فيها القلوب لكن لحظة الدخول لم تأت بعد. والمقصود بيان أن الإسلام هو طريق الإيمان للدخول في القلب. وهو ما يعنى أن الإذعان لأحكام الإسلام في الأعمال (الأقوال والأفعال) هو السبيل الذي يسير عليه الإيمان ليفتح باب القلب ويدخل فيه. وبكلمات أخرى: إن طاعة الله ﷻ هي التي تفتح باب القلب ليدخل الإيمان فيه.

ولذلك قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فإذا أردتم أن تكونوا مؤمنين حقاً، إذا أردتم أن تكونوا صادقين في ادعائكم الإيمان، فعليكم بطاعة الله ورسوله، فإن الطاعة هي السبيل لدخول الإيمان في قلوبكم، وطاعة الله ورسوله هي الاسلام.

ولكن الإنسان يخاف أن تقف ذنوبه السابقة عقبة كؤوداً في طريق الإيمان، تحول دون دخوله في القلب، وتحول دون حصول الإنسان على رحمة الله ودخول الجنة، ويخاف ألا ينال أجره كاملاً على الطاعة بسبب ذنوبه. ولذلك طمأننا الله ﷻ على أنه لا

ينقص من أجور طاعاتنا شيئاً ﴿لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ فهو ﷺ يسجل في صحائف أعمالنا؛ كل صغيرة وكبيرة ويحصى كل شيء ولا يهمل أى شيء، فهو يحصى جميع الأعمال ليحاسب عليها يوم القيامة، فاجتهدوا في الإكثار من الطاعات؛ حتى يستقر الإيمان في قلوبكم، وتنالوا الثواب العظيم عليها. كأنه قال: هيا أقبلوا على الطاعات؛ لتظفروا بالإيمان الصادق الحقيقي، وتحصدوا ثمرات أعمالكم الصالحة.

واعملوا أن الله "غفور": يمحو آثار ذنوبكم من نفسه جل جلاله وينساها (يتجاهلها) فتصبح كأنها لم تكن. فلن تكون ذنوبكم حائلاً يمنع رحمته عنكم؛ لأنه ﷺ "رحيم": دائم الرحمة بعباده المؤمنين؛ فلن تكون ذنوبكم سبباً في طردكم من رحمته مادمتم تستغفرونه (تطلبون مغفرته) وتسترحونه (تطلبون رحمته) بالإكثار من طاعته.

ثم بين للاعراب من بنى أسد بن خزيمة، ولكل البشر من بعدهم معنى الإيمان الصادق الحقيقي فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. والمعنى: لا يحق لأحد من الناس أن يوصف بالإيمان ويقول عن نفسه أنه مؤمن إلا إذا صدق بقلبه رسالة الله أى: إلا إذا دخل نور التصديق في قلبه. فمن نفذ نور الإيمان في قلوبهم، أولئك فقط من يحق لهم وصف المؤمنين ثم زال الشك من قلوبهم واستقر الإيمان (التصديق) فيها. والمعنى: إن الإيمان (التصديق) لا بد أن يشوبه في بداية الدخول في القلب في بداية السير إلى الله - الارتياح (الشك) لوجود كثير من الأسئلة المملغة المحيرة، التي يعجز العقل عن الوصول إلى إجابة قاطعة شافية لها. فتتولد الشبهات التي تهز وتزعزع الإيمان في القلب.

ولابد أن يخوض الإنسان الابتلاءات، ويمضى على طريق الزمن حتى يستقر الإيمان في القلب ويزول الارتياح. حينئذ فقط يصبح الإنسان مؤمناً صادقاً.

والحرف (ثم) يفيد مرور الزمن، بين بدء دخول الإيمان في القلب حتى استقراره وتمكنه من القلب، بإزاحة الارتياح وكشف الشهاب. ولا يتحقق هذا إلا بخوض العبد

ابتلاء البقاء على الطاعة، وإدراكه لحدود علمه، وأن الحقيقة الكاملة تتجاوز قدرة عقله على الفهم، وأنه لا يمكنه الفصل في قضايا الغيب التي لم يؤهل العقل البشرى لإدراكها، ويمتنح الإنسان بإلإيان بها. ومن ثم يسلم الإنسان بعجزه عن الوصول إلى الحقيقة ونيل الرحمة، بالاعتماد على علمه وعمله. ويفوض أمره في كل ذلك إلى خالقه ﷻ.

ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه الغاية إلا عبر مرور الزمن، الذي أشار إليه القرآن الكريم بحرف (ثم) يأتي البرهان الساطع على استقرار الإييان في القلب، وزوال الارتياب. ألا وهو الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

سبيل الله: الإسلام.

والجهاد: بذل الجهد، أي بذل أقصى ما في الوسع. ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: بذلوا ما في وسعهم من أجل نصره الإسلام، ونشره في الناس، بالتضحية بالأموال وبالأنفس في القتال دفاعاً عن الإسلام.

الجهاد بالمال والنفس من أجل نصر الإسلام هو الآية المشهودة، التي تشهد لأصحابها على استقرار الإييان في قلوبهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ المؤمنون حقاً، الذين تحقق الإييان في قلوبهم، فثبت واستقر وأصبح في مأمن من الاهتزاز والزوال.

ثم يعيب الله ﷻ على الذين يزكون أنفسهم، ويحسنون الظن بها دون حق، زاعمين أنهم مؤمنون، مع أن الإييان لم يدخل قلوبهم. ولا يعلم ما في القلوب إلا الله ﷻ فيسألهم على سبيل الذم ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾. أسألهم يأنى الله: هل بلغت بكم الغفلة والجرأة أن تبينوا الله ما تحتويه قلوبكم من إييان، فتزعمون أنكم مؤمنون، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله ﷻ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء (في السماوات والأرض) يتبين ظاهره وباطنه.

ثم عاب على أعراب بنى أسد، وكل من على شاكلتهم من المدعين، أنهم يحسبون أن إعلانهم الدخول في الإسلام فضل منهم على رسول الله، متوهمين أنه مجرد رجل باحث عن الملك، راغب في زيادة الأتباع وتكثير الأنصار والجنود؛ ولذلك يطلبون منه ثمنًا لإسلامهم: بعض المال والمغانم الدنيوية!! فقد قالوا بلسان الحال: اعطنا ثمن دخولنا في الإسلام.

ولذلك أمر رسوله أن يهدم هذا الوهم. ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ﴾، فلست في حاجة إلى إسلامكم، بل أنتم الفقراء إلى الدخول في الإسلام من أجل منافعكم في الدنيا، ونيل رحمة الله في الآخرة. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إدعائكم الإسلام، فإنكم إن صدقتم تكونون مؤمنين، والإيمان منة من الله يهبها الإنسان، إذ يقذف في قلبه نور التصديق بوحيه. ومن ثم، فإن الله هو الذى يمن عليكم أن هداكم إلى الإيمان إن كنتم صادقين في إدعاء الإسلام إن الإيمان محض فضل من الله يهبه الإنسان؛ ليظفر بالحياة الطيبة في الدنيا، والخلود في رحمة الله في الآخرة.

فهو النعمة الكبرى التى يمن بها الله ﷻ على عبده، ليضئ له طريقه في ظلمات حياة الابتلاء، فينقذه من الشقاء في الدنيا والآخرة.

فالإيمان والإسلام شئ واحد أو وجهان لحقيقة واحدة في الإنسان الصادق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكل ما غاب عن شهودكم، وخفى عليكم سواء أكان في السموات أم كان في الأرض، فإن الله يعلمه. ومن ذلك ما احتوته القلوب من إيمان. ﴿وَاللَّهُ بِصِرْطِ مَا تَعْمَلُونَ﴾ يرى حقيقة أعمالكم، ظواهرها وبواطنها ويرى إن كنتم صادقين أم كنتم كاذبين تظهرون بأعمالكم خلاف ما تبطنون في قلوبكم؛ فاحذروا غضبه عليكم.

(١٠٢) أوردنا في هذا السياق نص الحديث النبوي الذي تناثرت أطرافه في عشرات الروايات بمختلف كتب الحديث النبوي. وأورده الأستاذ محمد ناصر الدين الألباني في كتاب " صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير " في الأحاديث رقم: ٥٢٢٦، ٥٤٣٥، ٥٩٣٩، ٥٩٤٠، ٥٩٤٢، ٦٠٧٤.

تطير: مارس العيافة واعتقد بصحتها، فتوسل بملاحظة حركة الطير إلى ادعاء معرفة أنباء المستقبل.

تطير له: طلب من العائف أن يمارس العيافة من أجله، أعنى أن يزجر له الطير، ويعرف بحركة الطير ما يحبّه المستقبل، مصداقاً للعائف فيما يقول (معتقداً صحة ما قال العائف) ويأخذ بتطيره (بعيافته) فيحجم عن العمل إذا أنبأ بالفشل، ويقبل على العمل مستبشراً خيراً إذا أخبره بالنجاح.

تكهن: مارس الكهانة، أى ادعى معرفة الغيب دون سند من العلم. ويكون ذلك غالباً بادعاء الاستدلال بأوضاع النجوم والكواكب في السماء على ما سوف يقع على الأرض من أحداث. وهو ما يعرف بالتنجيم ويسميه العوام الدهماء "علم الفلك"!! وقد تكون الكهانة بإدعاء تلقى الوحي من شياطين الجن، بزعم أنهم يعلمون أنباء المستقبل وقد بين رسول الله ﷺ في حديثه إلى معاوية بن الحكم كيف يحدث هذا.

ويبقى أن نقول أن الأنبياء يعلمون الغيب وما سيقع في المستقبل بوحي من الله ﷻ - وكذلك يعلم سائر الناس ما سيقع في المستقبل " بالرؤيا الصادقة " التي تعد صورة من صور الوحي المباح لغير الأنبياء، وهى من العلم لصاحبها الذى هو أهل لها وأهل بتأويلها.

تسحر: مارس السحر، فهو الساحر. والسحر إدعاء تغيير صفات الأشياء بوسائل خرافية.

فالساحر يدعى كذباً أنه يستطيع تغيير صفات الأشياء على نحو ما يريد؛ بإجراء بعض الأعمال (الأقوال والأفعال) التي يتوهم ويوهم الناس أن لها قوة غيبية.

تسحر له: سأل الساحر أن ينفعه بسحره.

اقتبس علماً من النجوم: ادعى الحصول على علم ما يقع في المستقبل بالإطلاع على أوضاع النجوم والكواكب.

استقسم: طلب معرفة المقسوم (المقدور) المخبوء في قبضة الغيب بضرب (تحريك) الأزام.

وهى الأقلام أو الأقداح (الأعواد الخشبية) التي كان الكاهن يحركها في وعاء وهو يتلو التعويذات الوثنية الجاهلية. ثم يخرج الزلم (القلم أو القدح) ويقرأ المكتوب عليه فيعرف - بزعمه - ما يخبئه القدر.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمُ دَرَجَتُهُ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣].

هم: جميع الناس: المؤمنون الذين إبتعوا رضوان الله، والكافرون الذين باؤوا بسخط من الله.

درجات عند الله: ينزلون في درجات مختلفة متفاوتة عند الله يوم القيامة، عندما يتجلى لخلقة مستويًا على عرشه. ولما كان عرش الله هو أعلى المخلوقات أو أرفع الدرجات، فإن المخلوقات جميعها تتفاوت درجاتها حسب قربهم أو بعدهم من عرش الله.

والمؤمنون هم أصحاب الدرجات العلا، والأقرب إلى عرش الله، والكافرون هم أصحاب الدرجات السفلى الأبعد عن عرش الله. فالمؤمنون فوق الكافرين كما أخبر الله ﷻ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

فوقهم يوم القيامة: أعلى منهم درجة يوم القيامة وخط حساب الدرجات، أو

نقطة الصفر، إن صح التعبير - هو الصراط المنصوب فوق على ظهر جهنم فالذين كفروا يسقطون من فوق الصراط ويقعون في جهنم ويترتبون في الدرجات السفلى، بدءاً من جهنم التي هي الطبقة العليا أو الأولى من نار الآخرة نزولاً أو هبوطاً إلى الحميم التي هي أسفل درجات النار أو مركزها أي قلبها المتقد بغضب الله ﷻ.

والذين آمنوا يتمكنون بفضل أعمالهم الصالحة (الطاعات، من السي فوق الصراط الذي يفضي بهم إلى الدخول في الجنة، فيصبحون في الدرجات حتى الفردوس التي هي أعلى الجنة أو مركزها المتصل بعرش الله.

درجات العلاء إذن درجات النعيم وفي الجنة.

قال سحرة فرعون، عندما آمنوا، فأصدر فلاعون أمره بإعدامهم صلباً على جذوع النخل، لكنهم لم يتراجعوا عن إيمانهم وقالوا عن لقاء الله ﷻ يوم القيامة بفضل ما وهبهم الله من العلم عند سجودهم ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ [طه: ٧٥].

فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى: فأولئك يدخلون ويظفرون بالخلود.

وعندما يقول رسول الله ﷺ (لن يلج الدرجات العلاء) فإنه يعني: لن يدخل الجنة ولن يظفر بالخلود في رحمة الله).

لنلاحظ أولاً أن رسول الله قد فرق بين "من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول" وبين "من أتى عرافاً فسأله" فجعل جزاء الأول (الذي صدق أي آمن بما يقول العراف أو الكاهن) الحرمان من الإيمان، ومن ثم الحرمان من الجنة. وجعل جزاء الثاني (الذي أتى وسأل ولكن لم يؤمن بما يقول العراف أو الكاهن) الحرمان من قبول صلاته مدة أربعين ليلة. فلم يحرم الثاني من الإيمان؛ لأنه لم يؤمن بما يقول العراف أو الكاهن، بمعنى أنه لم يكفر بما أنزل على النبي ﷺ.

ولنلاحظ ثانياً أن رسول الله ﷺ قد ذكر في سياق تحريمه للكهانة وسائر الطقوس الخرافية التي تتوخى استجلاء الغيب خطيئتين أخريين هما: جماع المرأة أثناء الحيض، وإيلاج العضو الذكري في دبر المرأة (فتحة الشرج).

والإشارة إلى أن هاتين الخطيئتين كانتا مشهورتين في بنى أسد وغيرهم من الأعراب، وأنها من الممارسات الشيطانية التي تنتشر في الذين يمارسون أعمال الدجل والشعوذة التي يوحىها ويغري بها الشياطين (أشرار الجن).

(١٠٣) نسجنا هذا المشهد من الروايات المختلفة التي أوردها الإمام محمد بن يوسف الصالحى في قصة وفد بنى أسد إلى رسول الله ﷺ في الجزء السادس من كتابه " سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ": ص ٤٠٥ - ٤٠٩. والروايات التي أوردها الإمام ابن الأثير في ترجمة حضر مى بنى عامر الجزء الثانى من كتاب " أسد الغابة في معرفة الصحابة ": ص ٢٠، ٢١ وترجمة سنان بن ظهير (الجزء الثانى: ص ٤٠٣ في نفس المصدر). وترجمة ضرار بن الأزورد الجزء الثالث: ص ٣٩ في نفس المصدر وترجمة نقادة الأسدى (الجزء الخامس: ص ١٧٢ في نفس المصدر).

حلبانة: تُحلب وهى غزيرة اللبن. ركبانة: ذلول تركب بسهولة.

لا تولها على ولد: لا تسبب لها الوله، بمعنى لا تجعلها والهة بسبب فقد ولدها. والوله فقد العقل بسبب حزن شديد مباغت، أى نتيجة فاجعة مباغتة.

دع داعى اللبن لا تجهد: اترك بقية من اللبن فى الضرع ولا تحلب اللبن حتى تستنفده؛ لأن تلك البقية القليلة المتروكة تستدعى ما وراءها من اللبن فى الضرع، فإنها هى التى تستدعى ما وراءها البقية المتروكة فى الضرع هى موضع نزول بركة يد النبى ﷺ التى زادت البن. وفى هذه الوصية أمر بالرفق فى كل شىء يتناوله الإنسان.

السؤر: ما يبقى من الشراب فى الوعاء بعد الشرب منه.

(١٠٤) نسجنا هذا المشهد من مختلف الروايات التي أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للحديثين: ٣١١٣، ٦٣١٨ في كتاب "فتح الباري" بشرح صحيح البخاري ". والأحاديث: ٢٦١٦، ٢٩١١، ٣٢٣٠ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير ". من إعداد الأستاذ / محمد ناصر الدين الألباني، والروايات التي أوردها الإمام محمد بن يوسف الصالحى في كتاب " سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد " (الجزء الحادى عشر: ص ٤٩٢)

"أنت الأول فليس قبلك شيء": محال أن يوجد شيء يسبق وجوده (حضوره) وجودك (حضورك) لأنك أنت سبحانه من وهبت كل شيء بدايته، إذا يحضر كل شيء بنفخه من روحك، محمولاً على قبسه من النور الذى يخرج به من الغيب إلى الشهادة. فأنت سبحانه من وهبت كل شيء بدايته أنت، سبحانه بداية جميع الأشياء. "وأنت الآخر فليس بعدك شيء": ومحال أن يوجد شيء غيرك بعد تجليك (إتمام ظهورك)؛ لأنك سبحانه بتجليك تعيد كل شيء إلى ما كان عليه عندك قبل ظهوره، فأنت سبحانه نهاية. آخر كل شيء فلا يوجد بعدك شيء " وأنت الظاهر فليس فوقك شيء": ومحال أن يوجد شيء يمكنه أن يخفيك فأنت سبحانه الظاهر فى صور كل الأشياء.

وأنت الباطن فليس دونك (تحتك) شيء: وأنت سبحانه الباطن فى صور (ظواهر) كل الأشياء، فأنت سبحانه لا تخفى غيرك، فلا يوجد وراءك شيء.

(١٠٥) نسجنا هذا المشهد من الروايات المختلفة التي أوردها الإمام محمد بن يوسف الصالحى فى قصة وفد بنى تميم، فى الجزء السادس من كتابه " سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ": ص ٤٣٨ - ٤٤٩. والروايات التي أوردها القرطبي وابن كثير فى تفسير سورة الحجرات. والروايات التي أوردها ابن هشام فى كتابه " سيرة النبى " - الجزء الرابع - ص: ١٧١ - ١٧٨.

ومن حكمة رسول الله ﷺ البالغة أنه لم يقارنهم ويفضل عليهم أحداً من العرب، فلم يقل مثلاً: وقريش أفضل وأكرم منكم، بل قارنهم وفضل عليهم نبياً من غير العرب؛ حتى لا يثير حمية العصبية القبلية، وليوسع مفهوم الناس عند الأقرع بن حابس وغيره من العرب؛ ليشمل غير العرب، لأنهم كانوا يعتبرون العرب هم الناس، وليبين أن الكرامة عند الله بالتقوى.

والعرش في كلام العرب هو سرير الملك أى المقعد أو الأريكة الوثيرة التى يستوى (يستقر) ويتكىء عليها الملك عد خروجه (ظهوره) للناس فى قصر ملكه.

والكرسى هو موضع القدمين من سرير الملك أى من العرش. فعندما يستوى (يستقر) الملك على عرشه؛ فإنه يتمكن من وضع قدميه على الكرسى. ومن ثم يصبح لفظ "الكرسى" تعبيراً مجازياً أو رمزياً عن تمام الملك أو استقرار السلطان.

وعندما يقول الله ﷻ عن نفسه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالمقصود: اتسع ملكه ليشمل السماوات والأرض، وكل ما فيهن من مخلوقات، فلا شىء يخرج عن نطاق ملكه (سلطانه) والجميع يخضع لحكمه وينفذ أمره. ولذلك قال بعدها مباشرة ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ والمعنى: ولا يثقل عليه الامساك بزمامهما، وابقائهما فى قبضة ملكه، فهو وحده المتصرف فى كل شىء، ولا شىء فيهن يمكنه الإفلات مما تقتضيه إرادته ﷻ. الجميع تحت كرسيه (ملكه) وعندما يقول خطيب رسول الله ﷺ ثابت بن قيس: "وسع كرسيه علمه" فإنه يعنى اتسع علمه ليحيط بكل ما تحت كرسيه، أى بكل ما فى السماوات والأرض من مخلوقات، فلا يخرج عن علمه شىء، فى السماوات والأرض التى هى نطاق ملكه كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] ولا يخفى على أحد من ذوى العقول الطابع الدعائى السياسى فى هذه الخطبة التى ألقاها ثابت بن قيس رضي الله عنه. ومن ثم فإن قوله: نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله، فمن أمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً لا ينبغي أن يؤخذ على سبيل التشريع، فلا يقال: إن الإسلام يأمر بقتال الناس من أجل أن يدخلوه فيه عنوة، ويخضعوا لحكمه كرها، فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا تترك ظلاً من شك فى أن الإيمان اختيار إنسانى حر فإن القرآن صرح بأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأعلن بكل وضوح: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ونريد أن نلفت الانتباه - هنا - إلى خطورة ما أسماه علماء السنة النبوية والفقه "إقرار" رسول الله صلى الله عليه وسلم، باعتباره مصدراً للتشريع أو دليلاً على إباحة الشيء، فإنهم يعتبرون أن مجرد عدم "ورود" أى انكار أو معارضة منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمل وقع أثناء حياته، دليلاً على إباحة ذلك العمل. وذلك انطلاقاً من "توهم" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بد أن يعطى حكماً أو يعقب على كل شيء حدث أثناء حياته أو فى عصره، متغافلين عن أنه صلى الله عليه وسلم قد يسكت عن أشياء لا يرضاها؛ مراعاة لظروف العصر وأعراف الناس؛ تجنباً لحدوث فتنة لا تحمد عقبائها بسبب عدم قدره "عقول" الناس فى عصره على الفهم. والمثال الأوضح على ذلك "سكوته" عن قصور بناء الكعبة الذى قامت به قريش ومخالفته للمواصفات التى كانت فى بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وقد صرح بعدم رضاه عما قامت به قريش لعائشة وعلل عدم قيامه بهدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم بأن العرب حديثو عهد بكفر وجاهلية، وأن هدم الكعبة سوف يثير فيهم فتنة كبرى، قد تخرجهم عن الإسلام، حتى إذا كان الهدم من أجل إعادة البناء على أسس صحيحة.

ومن ثم نخلص إلى أن رسول الله - باعتباره بشراً - لم يكن مطلعاً على كل ما يجري في عصره، ولم يكن مكلفاً بالتعقيب والتعليق على كل شيء يحدث أثناء حياته، وأنه ﷺ قد يسكت عن أشياء لا يرضاها مراعاة لعقول الناس. فالسكوت ليس - دائماً - تعبيراً عن الرضى.

وبذلك الفهم، نعلم أن رسول الله ﷺ قد سكت عما احتوته خطبة ثابت بن قيس من أقوال تعبر عن نزعة عدوانية ورغبة في القتال؛ لأن تلك الأقوال قد تثمر خوفاً وإرهاباً في قلوب بنى تميم الذين كانوا معروفين بالعدوان وقطع الطرق على القوافل، وكانوا مصدر خطر على من يجاورهم من القبائل، مستندين إلى حماية الفرس لهم. وليس من الحكمة في شيء أن يعلن رسول الله عن معارضته عما قد يحتويه كلام خطيبه من أخطاء ومغالطات تبعث عليها الحماسة وإرادة إرهاب بنى تميم وردعهم عن العدوان.

(١٠٦) يمكن للقارئ أن يطالع نصوص القصائد التي ألفت في هذه المفاخرة وكذلك نص خطبة ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخطبة عطارد بن حاجب، في الجزء السادس من كتاب "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" - ص ٤٣٨ - ٤٤٩ "وسيرة النبي" لابن هشام - الجزء الرابع: ص ١٧١ - ١٧٨.

فهر: الجد العاشر للنبي محمد ﷺ. وهو أحد الأصول الذين تنتمي إليهم قبيلة قريش. والشاعر يريد أن يقول: إن القمم السامية من ذرية فهر، ويقصد المهاجرين مع أخوتهم الأنصار - أهل المدينة المنورة - قد هدوا الناس إلى طرق حكيمة يجب اتباعها. صنع: ماهر حاذق.

شمعوا: لعبوا وضحكوا، أى هزلوا فالشمع نقيض الجد.

ويعبر الشاعر عن أن مدحه لرسول الله وأصحابه من المهاجرين والأنصار قد بعثه حب صادق نابع من القلب، وساعده على إجادة التعبير وبلاغته لسان ماهر حاذق

يحيد صياغة الكلمات كأنه يحيك ثوباً جميلاً. وأن النبي وأصحابه هم أفضل الناس في الجد أو اللعب واللهو.

(١٠٧) هذا هو نص الحديث النبوي الذي تناثرت أطرافه في الروايات المختلفة التي أوردها أو أشار إليها الإمام ابن حجر في شرحه للأحاديث: ٣١٩٠، ٣١٩١، ٤٣٦٥، ٤٣٦٨، ٧٤١٨ في كتابه "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" والروايات التي أشار إلى تخريجها في مختلف كتب الحديث النبوي الأستاذ / محمد ناصر الدين الألباني في الحديثين: ٤٣٨٠، ٤٤٧٤ في كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير.

ولقد اختلط الأمر على الإمام البخاري وشارحه ابن حجر، فلم يميزا بين وفود أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) مع بعض أهل اليمن، في شهر المحرم من السنة السابعة بعد الهجرة، وبين وفود نافع بن زيد على رأس وفد من قبائل حمير من أهل اليمن، في مطلع العام التاسع بعد الهجرة الذي نحن بصدد الان.

ومما يجب لفت الأنظار إليه أن عمران بن حصين رضي الله عنه الذي روى جزء من حديث وفد بني تميم وبعض أهل اليمن، يذكر أنه بينما كان يستمع إلى حديث رسول الله، وهو يتحاور مع وفد بني تميم ووفد أهل اليمن وشرع يحيب عن سؤال نافع بن زيد رضي الله عنه عن كيف بدا الخلق؟ إذا برجل يجيء إلى المسجد ويصرخ: أدرك ناقتك يا بن حصين... لقد تفلتت من عقالها وشردت. وكان عمران بن حصين رضي الله عنه قد ربطها في باب المسجد.

فانتفض عمران وقام مسرعاً يجرى؛ ليدرك ناقتة قبل أن تشرد وتضيع في الصحراء، فوجد أن الناقة قد ابتعدت كثيراً، وصار يقطع دونها السراب. فقام عمران رضي الله عنه، حائراً، بين أن يجرى وراءها ليمسكها قبل أن تضيع، وبين أن يرجع إلى المسجد ليواصل الاستماع إلى حديث رسول الله ﷺ الذي جذب فؤاده، وهو يحكى كيف بدا خلق هذا الكون.

وأخيراً حسم أمره واندفع وراء ناقته الشاردة. إن الناقة كانت هى معيشة الإنسان العربى فى ذلك العصر. ولا شك أن استرداده لناقته - التى ابتعدت كثيراً - قد استغرق وقتاً طويلاً، انتهى رسول الله ﷺ فيه من حديثه، وغادر المسجد. وهو ما حدث بالفعل؛ لأن عمران بن حصين لما جرى وراء ناقته حتى أمسك بها وعاد إلى المسجد، وجد أن الرسول قد غادره. فظل طوال حياته رضي الله عنه نادماً يتمنى لو أنه كان قد ترك ناقته تضيع، وبقي فى المسجد ليستمع إلى حديث رسول الله.

ومن عجيب أمر ابن حجر شارح صحيح البخارى أنه قد أجهد نفسه وجادل كثيراً ليثبت أن عمران بن حصين رضي الله عنه لم يفقه شىء من حديث رسول الله ﷺ!! وما كان ذلك إلا لأن علماء الحديث النبوى لا يريدون الاعتراف بأن ما وصل إلينا من أحاديث نبوية ليس - فى الحقيقة - إلا روايات لأطراف (أجزاء) من أحاديث نبوية أكبر، كانت خطباً أو مواعظ ألقى بها رسول الله فى حوادث معلومة من حياته.

ومن المؤكد أن عمران بن حصين رضي الله عنه قد سأل أصحابه عما فاتته من حديث رسول الله ﷺ. ولا شك أيضاً فى أن بعضهم قد أخبره عما سمعه بقدر ما أسعفته ذكراته، وقدرته على التعبير عن المعانى التى فهمها من حديث رسول الله.

إن هذه الحادثة الموثقة فى صحيح البخارى تبين لنا " السر " فى اختلاف وتعدد روايات الحديث النبوى الواحد؛ لأن كل واحد من أصحاب النبى قد قدر له أن يتذكر ويروى جزء من الحديث النبوى الواحد. وأن تلك الأجزاء (الأطراف) التى رويت بألفاظ مختلفة، حسب قدرة الرواة على الفهم والتذكر والتعبير هى ما تكون مايسمى عندنا "الأحاديث النبوية " التى يجب علينا نحن أن نعيد كتابتها على نحو جديد، نضم فيه الأجزاء أو الأطراف المتناثرة تحت مختلف أبواب الفقه، ونوحد فيه الروايات المختلفة والمضطربة فى رواية واحدة تعبر قدر الإمكان - عن الحديث النبوى الكامل الذى خرج من فم رسول الله ﷺ فى حادثة معلومة من سيرته. وهو العمل الذى نجتهد فى انجازه.

ومن عجيب أمر علماء الحديث النبوى أنهم أهملوا رواية نافع بن زيد رضي الله عنه مع أنه كان الإنسان الذى سأل الرسول ﷺ وكان الحديث النبوى إجابة عن سؤاله. فتأمل وانظر ترجمة نافع بن زيد فى كتاب "أسد الغابة فى معرفة الصحابة" الجزء الخامس: ص ١٣٤.

ونحب أن نلفت الانتباه إلى أثر منسوب لابن عباس يقول نصه: وخلق اللوح المحفوظ مسيرة خمسمائة عام، أو هو كتاب أستغرق تدوينه خمسمائة عام ونعتقد صحة رفعه إلى رسول الله ﷺ. وهو نص يعبر عن ضخامة اللوح المحفوظ (كتاب العلم الإلهى) الذى يبلغ طوله المسافة التى يمكن أن تقطعها الإبل فى خمسمائة عام أو هو كتاب استغرق تدوينه خمسمائة عام فتأمل!!

(١٠٨) نص الحديث النبوى الذى تناثرت أطرافه فى الأحاديث: ٥١٤٦، ٥٧٦٧، ٦١٤٥ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" لابن حجر، والأحاديث: ٢٢١٥، ٢٢١٦، ٢٢١٩ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير، من اعداد الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى.

ومعنى قول ابن الأهمم فى وصف الزبرقان بأنه:

لشديد العارضة: رجل حاد اللسان، قوى الحجة.

مانع لجانبه: مرهوب الجانب، عزيز لا يعتدى عليه أحد مستهيناً بشأنه.

مطاع فى أذنيه: لا يسمع كلامه إلا أذناه فهو غير مطاع فى قومه.

وتم تصحيف كلمة (أذنيه) فقيل (أذنيه) وقيل (أدانيه). والمقصود أنه لا يطيعه إلا أقاربه وأصحابه الملتصقون به، ولكن لا طاعة له على سائر قومه.

انظر شرح ابن حجر للحديث رقم ٥٧٦٧ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" وترجمة عمرو بن الأهمم فى كتاب "أسد الغابة فى معرفة الصحابة" الجزء الرابع: ص ١٣٨، ١٣٩ وكتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" الجزء السادس: ص ٤٤٤.

وقد هجا ابن الأهم قيس بن عاصم هجاء مقذعاً بسبب ما قاله في حقه عند النبي ﷺ. انظر نص الأبيات في ترجمة عمر وبن الأهم في كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة". وكان شاعراً بليغاً حكيماً وهو القائل مخاطباً امرأته التي كانت تنهيه عن الانفاق.

ذريني فإن البخل يا أم هيثم * * * لصالح أخلاق الرجال سروق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها * * * ولكن أخلاق الرجال تضيق
وقد ارتد واتبع سجاح التميمية لما ادعت النبوة ولكن عاد بعد ذلك إلى الإسلام.

(١٠٩) وكان الزبرقان أميناً فولاه رسول الله صدقات قومه بنى عوف (أحد فروع بنى تميم) وبقي ثابتاً على الإسلام، ولم يرتد كما ارتد أغلب بنى تميم وتبعوا سجاح: المرأة التميمية التي ادعت النبوة. وأدى الزكاة إلى أبي بكر أثناء الردة فأقره أبو بكر على ولاية الصدقة. وكذلك عمر بن الخطاب بعد وفاة أبي بكر - رضى الله عنهم جميعاً.

(١١٠) هذا مضمون الأحاديث التي وردت في كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" تحت الأرقام: ٤٣٦٧، ٤٨٤٥، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢.

(١١١) الآيات ١ - ٥ من سورة الحجرات.

﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تبادر وا رسول الله ﷺ وتتعجلوه لإصدار أمر من الأمور التي يجب أن يتولاها بنفسه باعتباره الرسول النبي الذي يتلقى الوحي وباعتباره الحاكم الذي يتولى شئون الأمة، بل الواجب عليكم أن تنتظروا صدور أمره لتطيعوه، أو لتشاؤروا فيه معه إن بدالكم رأى آخر، يخالف أمره (رأيه) في الشئون الدنيوية. فإن واجب الذين آمنوا أن يقوموا من رسول الله ﷺ مقام السمع والطاعة، أعنى مقام انتظار صدور الأمر منه ﷺ والتهيؤ لطاعته، باعتبارها واجباً شرعياً على كل

مؤمن، سواء كان الأمر يتعلق بالدين (الشريعة) أو بالدنيا، لأنه ﷺ ديناً رسول الله ﷺ، ودينياً الحاكم.

وَاتَّقُوا اللَّهَ بِحِفْظِ الْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْإِتِّبَاهِ إِلَى أَنَّهُ الْوَسِيلَةُ الَّتِي تَصِلُكُمْ بِرَبِّكُمْ فَهُوَ الَّذِي يَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ وَبِطَاعَتِهِ تَنَالُونَ رَحْمَةَ رَبِّكُمْ. فَلَا تَغْفُلُوا عَنْ أَنَّ حُضُورَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَكُمْ مَعْنَاهُ أَنَّكُمْ قَائِمُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاللَّهُ الَّذِي يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَيَعْلَمُ ظَوَاهِرَكُمْ وَبِوَاطِنِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إن جوهر الإيمان يكمن في الاعتقاد الجازم بارتفاع " النبي " فوق غيره من البشر؛ بمحض اصطفاء إلهي، جعل قلب النبي منزلاً جديراً بتلقى كلام الله ﷻ، فأصبح النبي في ذلك المقام " أذنًا " إلهية تسمع كلام الله ﷻ خالق السماوات والأرض.

وبموجب الإيمان، فإن المؤمن الصادق محال عليه أن ينظر إلى النبي باعتباره مجرد واحد من البشر، يتساوى مع غيره من أبناء آدم. إن ارتفاع مقام النبي فوق سائر البشر حقيقة إيمانية لا يمكن محوها أو التغاضي عنها أو تجاهلها. ويترتب عليها مجموعة من الأداب التي يجب على كل مؤمن أن يتحلى بها. ويأتي على رأس هذه الأداب خفض الصوت في حضور النبي كتعبير عن الخشوع بين يدي الله ﷻ، بنظر القلب إلى قيام النبي بين يدي الله الذي يجب الخشوع عنده. فمحال على المؤمن الصادق أن يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ في هذا النص الإلهي توجيه إلى الخطأ الذي وقع فيه كل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولا يجب على المؤمنين أن ينادوا النبي كما ينادى بعضهم على بعض أو يكلموه كما يكلم بعضهم بعضاً دون توقير ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾. وفي هذا تنبيه إلى الخطيئة التي وقع فيها الأقرع بن حابس إذ نادى بصوت عال: " يا محمد يا محمد إخرج إلينا ".

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لكى لا تفشل طاعاتكم، وتسقط من الحساب بين يدى الله عند ميزان الأعمال بسبب ضياع الإيمان من قلوبكم.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بزوال الإيمان من قلوبكم عندما تساوون أنفسكم بالنبي الذى رفعه الله ﷺ فوقكم بمحض اصطفائه عليكم؛ إذ جعله موضعاً لتنزل وحى الله أو أذنًا إلهية تسمع كلام الله.

إن الإيمان هو الذى يعطى الأعمال قيمتها عند الحساب بين يدى الله ﷺ، ويمنحها جواز القبول، لتوضع على الميزان. ولذلك لا تقبل أعمال المنافقين، رغم أنها فى ظاهرها طاعات لأنها لا تحمل باطنها (قلبها) إيماناً بالله ورسوله.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

الآية تقول إن المنافقين قد أنفقوا أى بذلوا أموالهم فى المصارف التى يأمر بها الله ﷺ، إلا أن نفقاتهم لن تقبل عند الله، ولن توضع لهم على الميزان يوم القيامة؛ لأنهم قد فقدوا الإيمان بالله ورسوله ولم ينفقوا ﴿إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ لا يحبون الانفاق طلباً ورغبة فى رضى الله ﷺ، بل أنفقوا وهم مضطرون مر غمون على الانفاق من أجل الظهور فى أعين الناس فى صورة المؤمنين.

وكذلك تضيع أعمال الكافرين التى تبدو فى الدنيا أعمالاً صالحة، لأن أصحابها لم يريدوا بها وجه الله. ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَى مَاعِمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

والمعنى: وأحضرنا أعمال الكافرين عند الميزان الذى يقدر الصالحات، فزالت الأعمال وضاعت كأنها تراب ضربته عاصفة شديدة، فتناثر ولم يعد له وجود.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰةُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾: لا يستطيعون الإمساك بأى شىء من أعمالهم ليوزن لهم على ميزان الصالحات، وهو ما يعنى أنهم لا يقدرّون على عمل أى شىء من أجل انقاذ أنفسهم من العذاب بسبب ما كسبوا من السيئات.

ولذلك تنبأ رسول الله يقوم يكثرّون من الطاعات (قراءة القرآن، والصلاة والصيام) ورغم ذلك فإنهم (يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية).

إن من أخفى وأخطر مواضع الزلل التى يسقط الإنسان منها إلى الكفر - دون أن يتبين - ثم يكون مصيره إلى جهنم أن يتوهم أنه قد صار مساوياً للنبي. ومن ثم يستبيح لنفسه مخاطبة ومعاملة النبي كغيره من البشر ناظراً إليه باعتباره مجرد أحد الرجال.

إن كثرة العبادة والاجتهاد الشديد فى الطاعة لا يرفع العبد أبداً إلى مكانه النبي ﷺ، لأنه إن توهم ذلك فإنه يفقد الإيمان - كما بينا - ومن ثم تصبح أعماله الصالحة فى الظاهر غير مقبولة عند الله، فلا توزن له يوم القيامة. ومن ثم لا توضع فى حساب حسناته. وبذلك تصير معدومة القيمة والجدوى، إذ لا تفضى به - كما يتمنى إلى الجنة بل تسوقه إلى النار.

ولاشك فى أن هذا الخطر يتهدد على وجه خاص الذين يبالغون فى إظهار التمسك بشريعة الله، ويجتهدون فى الطاعات، كما كان الخوارج الذين ظهرُوا فى نهاية عهد الخلافة الراشدة وما زالوا يظهرون فى كل عصر فى صور جديدة. ولذلك يجب التادب مع رسول الله ﷺ. بمراعاة علو مكانته فوق سائر البشر، فلا يصح أن ينادى باسمه مجرداً مثل بقية الناس، ولا أن ينادى بكذبتة. بل يجب توقيره ومخاطبته بلفظ: يارسول الله أو "يابنى الله". والصلاة عليه كلما جاء ذكره فى الحديث وخفض الصوت عند مخاطبته. وهذا هو سلوك المؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَمْرَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾: اختبر الله طاعة قلوبهم بأوامره ونواهيه، من أجل أن يمنحهم "التقوى" إن ثبتوا على الطاعة بالقيام بالأوامر واجتناب النواهي. والتقوى تعنى الحماية من العذاب. إنها إتقاء عذاب الله بطاعته.

﴿مَغْفِرَةٌ﴾: نسيان لذنوبهم، واعتبارها كأن لم تكن.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: ثواب يتضاءل إزاءه أى جزاء دنيوى. إن كل أجر حصل عليه العبد فى الدنيا نظير قيامه بعمل، لا يمكن أن يوازن بالأجر الذى يحصل عليه فى الآخرة مقابل أعماله الصالحة. فكل أجور الدنيا تعد حقيرة بالغة التفاهة إذا وزنت بالجنة.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد غاب بجسده عن شهادة هذه الحياة الدنيا، عندما انتقل بالموت إلى الرفيق الأعلى، فإنه باق حاضر فى الأجيال المتعاقبة من البشر حتى قيام الساعة بالقرآن الذى أوحاه الله ﷻ إليه، وبالحكمة التى حملتها أحاديثه.

إن أحاديث النبى ﷺ هى صوته الباقى فى الناس حتى يضع العلم من الدنيا قبيل قيام الساعة.

وغض الصوت عند رسول الله ﷺ فى كل الأزمان التى تأتى بعد وفاته، إنما يعنى ألا تعلق آراء العلماء والمجتهدين فوق الأحاديث النبوية الصحيحة، التى ثبتت نسبتها إلى رسول الله ﷺ، وألا يسارع بعض أذعياء العلم بتكذيب أحاديث (صوت) رسول الله ﷺ؛ لأنها لا تروق لهم أو لا توافق أهواءهم وأوهامهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

سئل رسول الله ﷺ عن القوم المقصودين فى هذه الآية فقال: (هم جفاة بنى تميم، ولو لا أنهم أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم فأهلكهم).

ويحمل هذا الحديث النبوى نبوءة باهرة تقول: إن من ذرية بنى تميم الذين أتى وفدهم إلى رسول الله ﷺ فى العام التاسع بعد الهجرة سيخرج رجال يقاتلون المسيح الدجال حين يخرج بدعوته قبيل الساعة. وعلمه ﷺ بذلك هو الذى منعه من الدعوة على بنى تميم، الذين نزلت فيهم هذه الآية بالهلاك.

وهو ما يفصح عن أن هذا الجيل الذى عاصر رسول الله ﷺ كان من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر طلباً لثواب الدنيا. ولذلك سرعان ما نكصوا على أعقابهم بعد وفاة النبى ﷺ، وأنضموا مع أغلب القبائل العربية إلى حركة منع الزكاة والارتداد عن الإسلام وظهرت فيهم امرأة اسمها سجاح ادعت النبوة وتزوجت مسلمة الكذاب وتبعها أغلب بنى تميم.

وقال شاعرهم عطار بن حاجب.

أمست نبينا أنثى نطيف بها * وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا
ولذلك قال أبوهريرة رضي الله عنه: لا أزال أحب بنى تميم، وما كان قوم من الأحياء أبغض إلى منهم بعد ثلاث سمعتهم من رسول يقول فيهم: هم أشد أمتى على الدجال.

وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال رضي الله عنه لها: أعتقها فإنها من ولد إسماعيل.

وقد ذكرنا قصتها فى هذه الرواية.

وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قومنا؛ ناسباً بنى تميم على سبيل المدح والإقرار بفضلهم إلى نفسه ﷺ.

ولقد قال رسول الله ﷺ هذا الحديث: " هذه صدقات قومنا " عندما جاءه قيس بن عاصم فى شهر المحرم من العام التالى (العاشر بعد الهجرة) مع وفد صغير من بنى تميم يسوق زكاة أموالهم؛ فأدهش رسول الله ﷺ من كثرة الأموال ونفاستها، وأعجب بأمانتهم وصدقهم.

انظر شرح الحديثين: ٥٤٣، ٤٦٦ في "كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري".
وقوله ﷺ: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بيان واضح الدلالة على أن الحرمان من العلم أى الجهل هو الصفة الغالبة على أكثر بنى تميم الذين عاصروا رسول الله ﷺ في حياته الدنيا. ثم هو بيان أن الجهل سمة كل من يسلك هذا السلوك على مر العصور.

وبيان هذا أن تأخر رسول الله ﷺ داخل إحدى حجرات نسائه عن الخروج إلى الناس في المسجد لإمامتهم في الصلاة، لا بد أنه كان لسبب قهرى، أو لانشغاله بأمر هام؛ لأن حرص رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وهى عماد الدين، وحرصه على ما ينفع الأمة أمر لا يشك فيه إنسان مؤمن. فإن ذلك من حقائق الإيمان التى يحفظها كل من له علم بأحكام الدين، أى كل من له عقل؛ لأن العقل هو حفظ العلم فى الصدر (الوعى) وفى السلوك (العمل). وهو ما يعنى الانتباه (عدم الغفلة) عن حقائق العلم عند التصرف فى المواقف والقضايا التى تواجه الإنسان، بحيث يكون عمله موافقاً للعلم ولا يتضارب معه. وهذا هو معنى العقل.

ومن ثم فإن استعجال رسول الله ﷺ للخروج والنداء الغليظ عليه باسمه مجرداً (إخراج إلينا يا محمد) يعد من آيات.

فقد العقل، أى الغفلة عن العلم بحقائق الدين وتجاهلها.

ومن أدب القرآن العظيم أنه قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ ليستثنى قلة منهم. ومن ثم يظن كل واحد منهم أنه من أهل الاستثناء، فيدفعه هذا الظن إلى تنزيه نفسه عن الجهل أو الغفلة عن حقائق العلم الواردة فى كلام الله، ولا يتجاهلها فى عمله.

والتعبير بصيغة المضارع ﴿يُنَادُونَكَ﴾ إشارة إلى دوام الأمر بالتأدب مع رسول الله ﷺ على مر العصور، فإنه ﷺ لم يقل نادوك.

والتأدب بالمأمور به يعنى الاجتهاد فى حفظ سنة رسول الله ﷺ والتدبر فيها

والتحلى بالتأني والتخلى عن العجلة حتى تخرج (تظهر) الحقيقة من وراء جدران الألفاظ والروايات المختلفة. والتخلى عن التعجل والتحلى بالتأني من آيات الصبر الذى يشمر لمن يتصف به ظهور (خروج) الحقيقة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

" الصبر " إلزام النفس بما لا تحب من أوامر الله الشرعية (الدينية) والكونية (القدرية) دون شكوى. فهو إكراه النفس على قبول ما تكره من أمر الله مع بحسب اللسان عن الشكوى.

وأصل لفظ " الصبر " يدور معناه حول الحيس.

ومن ثم فالصبر يعنى منع الإنسان نفسه من التعبير أو التنفيس عن ضيقه من أحكام الله ﷻ الشرعية والكونية باللسان (بالقول) أو بالفعل.

وبذلك يفهم أن الصبر يعنى التخلى عن التعجل فى إزالة المكروه، والتحلى بالتأني حتى يزيله الله ﷻ بمقتضى حكمته. وفى كلمة واحدة: انتظار الفرج من الله ﷻ دون إساءة الأدب بالشكوى إلى غير الله جل فى علاه.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ يعنى - هنا - ولو أنهم تحلوا بالتأني، وتحلوا عن التعجل فانظروا على مضض ولم يسيئوا الأدب باستعجالك والمناداة عليك ﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ من تلقاء نفسك ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فى الدنيا والآخرة؛ لأنك حينذاك تخرج إليهم مرتاحاً، متهيئاً منشرح الصدر للقائهم. ومن ثم تكون أكثر استعداداً للاستماع إليهم، وإجابتهم إلى ما يطلبون، بل وإعطائهم أكثر مما يسألون.

فربما كان من الممكن أن يمن عليهم رسول الله بتحرير أسراهم، ودفع الفدية كلها من بيت مال المسلمين إلى أصحاب السبى وليس النصف فقط. هذا فى الدنيا. ويحصلون فى الآخرة على رحمة الله ﷻ ورضاه؛ لأنهم وقروا رسوله وتأدبوا معه ﷺ.

ثم وعدهم بالمغفرة والرحمة حتى لا يصيبهم اليأس بسبب ذنوبهم فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلن يؤاخذهم على تعجلهم وسوء أدبهم، بل سيديم رحمته بهم ماحياً أثر ذنوبهم من نفسه ﷻ.

(١١٢) انظر الأحاديث رقم: ٤٣٦٧، ٤٨٤٥، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢ في كتاب "فتح الباري بشرح صحيح البخارى".

أخى السرار: صاحب السر الذى يهمس به فى أذن صاحبه، ولا يرفع صوته حتى لا يكشف عما يقولون.

(١١٣) ولذلك قال عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان - بعد نزول هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ لا يسمع رسول الله ﷺ حين يكلمه حتى يستفهمه عما يقول من شدة خفض صوته.

(١١٤) تناثرت أجزاء هذه الخطبة النبوية فى مختلف الروايات التى أوردتها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى كتابه "فتح الباري بشرح صحيح البخارى" عند شرحه للأحاديث: ٨٦، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ١٠٣٧، ١١٨٨، ١١٩٢، ١١٩٥، ١١٩٧، ١٨٦٤، ٣٢٧٢، ٣٢٧٣، ٣٢٧٩، ٣٣٠١، ٣٣٠٢، ٣٤٩٨، ٣٤٩٩، ٣٥١١، ٤١٨٦، ٤١٨٧، ٤٣٨٧، ٤٣٨٨، ٤٣٨٩، ٤٣٩٠، ٥٣٠٣، ٧٠٩٢، ٧٠٩٣، ٧٠٩٤.

ميز رسول الله ﷺ بين القلب والفؤاد متبعاً فى هذا القرآن الكريم. والقلب هو الكيان الباطن للإنسان، القائم فى الغيب بين يدى الله ﷻ فى مقابل الجسم أى الصورة الظاهرة للإنسان.

أما الفؤاد فيعنى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ما نسميه نحن - فى لغتنا الدارجة - "العقل" وهو آلة تحصيل العلم. ولا نحتاج إلى أن نقول أن الفقهاء

والمفسرين والمفكرين - قديماً وحديثاً - لم يميزوا بين القلب والفؤاد، بل اعتبروا اللفظين مجرد مرادفين لمعنى (كيان) واحد. ونحيل القارئ إلى كتابنا " نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن: ص ٦٧ - ١٠٧؛ للتعرف على المعانى الدقيقة للألفاظ التى استعملها القرآن الكريم فى التعريف والتعبير عن شخصية الإنسان. والفؤاد هو لب القلب أو مركز نواته.

ولين القلب يعنى سهولة تأثره واستجابته للوعظ. وهو نقيض قسوة القلب أو غلظته.

وقوله ﷺ عن أهل اليمن " هم ألين قلوباً " يعنى أنهم أكثر قابلية للتأثر والاستجابة للوعظ، فهم أكثر تهيأ لقبول الإيمان؛ ولذلك قال " الإيمان يمان: " مشيراً إلى أن أصل الإيمان فى أهل اليمن كأنه قال: أهل اليمن هم أهل الإيمان، بمعنى أنهم الجديرون بقبول الإيمان. وفى هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن نوح عليه الصلاة والسلام كان من أهل اليمن، وأن رسالته الأولى - قبل الطوفان - كانت فى اليمن. كأنه قال لقد جاءت رسالة الله تحمل الإيمان من اليمن. ونوح عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه، الذين ركبوا السفينة ونجوا من الغرق فى الطوفان هم آباء هذه الأجيال البشرية التى لم تزل تعمّر الأرض بعد الطوفان.

ولذلك خاطبنا الله ﷻ بقوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] يعنى: يا ذرية من حملنا مع نوح.

والإيمان (تصديق الرسالة والاستجابة لدعوة الله) هو ثمرة لين القلب الذى يطهر الإنسان من الكبر. والكبر هو أصل الكفر وجذر الشجرة التى تثمر كل الخطايا. ولين القلب يثمر التواضع لأحكام الله الخالق وحسن معاملة الخلق بالتعاطف معهم ومواساتهم وبذل الخير لهم.

ورقة الفؤاد تعنى حسن الفهم، أعنى قدره العقل على الوصول إلى المعنى المقصود من الكلام أو الأفعال - وهذا هو الفقه - وكشف غموض المسائل المتشابهة التى تحمل دلالات مختلفة - وهذا هو التأويل الصحيح - من أجل اكتشاف الحقيقة الكامنة أو المختفية وراء الألفاظ والأشكال الظاهرة وهو ما يعنى الوصول إلى " لب " المسألة أو القضية المعروضة على العقل.

وقوله ﷺ عن أهل اليمن أنهم " أرق أفئدة " يعنى أنهم أصحاب عقول أكثر قدرة على الفهم (الفقه والتأويل).

والحكمة هى ثمرة رقة الفؤاد. ولذلك قال: " الحكمة يمانية ".

" والفخر " هو مدح الذات، فيثنى الإنسان على نفسه بذكر محاسنه وصفاته الجميلة.

" والخيلاء " إرادة الإنسان أن يجذب إلى نفسه نظرات الإعجاب من الآخرين حوله، وهو ما يعنى أنه يريد أن يفرض خياله (ظله أو صورته) على أبصار وأفئدة غيره من الخلق.

والفخر والخيلاء من ثمرات الكبر، فالتكبر يبالغ فى مدح نفسه، ويريد من الآخرين أن ينظروا إليه بإعجاب وأن يمدحوه.

والكبر من حق الله ﷻ وحده، فالتكبر من أسمائه الحسنى - جل جلاله - والتكبر من الناس الذى يفخر بنفسه ويختال عليهم هو من يحاول التآله.

وقوله ﷺ: " والفخر والخيلاء فى أهل الخيل والإبل " يعنى أن أصحاب الخيل والإبل الذين تقوم معيشتهم على هذين الصنفين من المال، والذين يعتادون ركوبها يغلب عليهم الكبر وتكثر فيهم صفتا الفخر والخيلاء.

وفى هذا إشارة بليغة إلى أن خلق الإنسان يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها، والمهنة التى

يارسها. ولا شك في أن الفخر والخيلاً - بالمعنى الذى ذكرناه - من الصفات المذمومة شرعاً، فهل يعد كلام رسول الله ﷺ إدانة لكل يحترف تربية الخيول والإبل بالكبر المحرم؟

والإجابة القاطعة: لا. لأن مقصوده ﷺ بيان الحقائق " العلمية " والإرشاد إلى الطريق المستقيم. ومن ثم فإنه يدعو أهل الخيل والإبل إلى التخلص من هاتين الخصلتين المذمومتين، وأن يجتهدوا فى ضبط سلوكهم بما يتوافق مع قيم الرسالة الإلهية. وإذا كان بنو تميم المقصودين بكلامه ﷺ فى ذلك اليوم، فإنه من حسن أدبه لم يذكرهم بالإسم، أعنى لم يواجههم بما فيهم من خصال مذمومة، حتى لا يدفعهم الكبر إلى العناد والإصرار على الخصال المذمومة، ورفض الإرشاد والوعظ.

والسكينة نور يقذفه الله ﷻ فى قلوب المؤمنين من أجل تثبيت الإيمان (التصديق بالرسالة) فى قلوبهم بإزالة الشكوك ورفع الشبهات فتقتلع من القلوب نية المعصية والرغبة فى التمرد والعناد؛ بالحث على البقاء على الطاعة والاستسلام (القنوت) لحكم الله، ومن أجل محو الخوف حتى يقبلوا على الطاعة واثقين من نصر الله ﷻ لهم. فتقضى السكينة على اليأس بتقوية الرجاء فى نصر (إعانة) الله للمؤمنين. ومن أجل نسيان (ترك) الحزن على ما فات بمنح العزاء وتخفيف البلاء بالإعانة على الصبر.

والوقار هو الثمرة النهائية لبقاء (لاستمرار) السكينة فى القلب ويفضى إلى الوصول على الطمأنينة. ويؤدى الوقار إلى:

(١) الخشوع فى القيام بالعبادة، ويتحقق برعاية فروض وآداب الطاعات، وتوقير (احترام) المعبود، والإنابة الدائم إلى الحضور بين يديه، والوقوف أمامه للحساب.

(٢) دوام محاسبة النفس، وتنتج من مراقبة الله، وتؤدى إلى الإحسان إلى الخلق والتودد إليهم وملاطقتهم؛ لأنك تريد منهم أن يعاملوك بالمثل. والمعاملة بالمثل هى قانون المحاسبة.

(٣) الرضى بالمقسوم الذى قدره الله ﷻ، ويفضى إلى التزام الأدب مع الله جل جلاله بالتطهر من السخط، والتزام الأدب مع الخلق بحسن الخلق.

وقوله ﷻ: "والسكينة والوقار فى أهل الغنم" لا يعنى حصر هاتين الخصلتين فى رعاة الغنم. بل يعنى إن رعى الغنم مهنة تفيض على نفس الإنسان الراعى بالتواضع والصبر والرحمة بال مخلوقات.

وهذه الصفات هى التى تهىء القلب لقبول الإيمان وتثبيته، ومن ثم فإنها تثمر السكينة والوقار. ولذلك كان من حكمة الله ﷻ أن أدب أنبياءه فى صباهم وشبابهم بحرفة رعى الغنم ليعدهم بذلك لتلقى الرسالة الإلهية والقيام بدعوة الناس إليها. قال رسول الله ﷺ: ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، وأنا كنت أرهاها لأهل مكة بالقراريط يعنى مقابل مقادير من المال.

والجفاء: سوء الخلق المؤدى إلى إساءة معاملة الناس.

وغلظ القلوب: قسوتها التى تعنى قلة تأثرها برسالة الله ﷻ، وانعدام التعاطف مع الآخرين والامتناع عن مواساتهم ومساعدتهم.

الفدايين: أصحاب الأصوات العالية الغليظة.

أهل الوبر: من يقومون برعى الإبل.

عند أصول أذنان الإبل والبقر: الذين يقضون حياتهم فى السعى وراء قطعاتهم من الإبل والبقر. يمضون أغلب أوقاتهم فى النظر إلى مؤخرات مواشيهم، يريدون أن تزداد سمنة وأن يكثر عددها، ويطلبون بسط نفوذهم على الأرض، ليجدوا لمواشيهم المراعى الواسعة. فهم لا يرون من الحياة الدنيا إلا أسوأ ما فيها: مؤخرات المواشى التى يهلكون حياتهم فى السعى وراءها يطلبون وفرة المراعى وكثرة المال والسيادة على الأرض. فالحياة بالنسبة إليهم ليست إلا ميداناً للتكاثر والتفاخر والتنافس والصراع.

" القرن " فى النص القرآنى الحكيم هو الأمة أى الجماعة من الناس .

يقول القرآن الكريم: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٢٦]. وانظر أيضاً سورة مريم (الآية ٧٤، والآية ٩٨) وسورة ص (الآية ٣) وسورة ق (الآية ٣٦) ففى كل هذه المواضع وغيرها يستعمل القرآن لفظ " قرن " بمعنى أمة، أى جماعة من الناس يجمع بين أفرادها ويوحدتهم ثقافة واحدة، أعنى يشتركون فى طريقة واحدة مميزة لممارسة الحياة. وقد ينتسبون إلى أصل (أب) واحد.

واستعمل القرآن الكريم لفظ " قرون " بمعنى الأمم. فقال على سبيل المثال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧].

القرون: الأمم.

وقوله ﷺ فى هذا الحديث: " قرنا الشيطان فى ربيعة ومضر " يعنى الجماعتين من الناس أى القبيلتين الذين يعود أصلهما إلى ربيعة بن نزار وأخيه مضر بن نزار. ومضر بن نزار هو الجد الثامن عشر للنبي محمد ﷺ ونزار هو ابن معد بن عدنان: وربيعة ومضر هما والدان لكثير من القبائل العربية العدنانية، الذين يقال لهم العرب المستعربة، الذين يعود أصلهم إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

إذن، فالرسول ﷺ يقصد قبيلتين من قبائل ربيعة ومضر. ونسبتهما أو إضافتهما إلى الشيطان بقوله: قرنا الشيطان يعنى أن الشيطان يستولى ويستحوذ على عقولهما، ويتمكن منا إضلالهما. والإشارة إلى حركة الارتداد عن الإسلام والعودة إلى الكفر بمنع الزكاة وادعاء النبوة. تلك الحركة التى أعقبت وفاة رسول الله ﷺ وأشعلت الفتن فى بناء الأمة الإسلامية ولا تزال تفعل حتى يومنا هذا " من ههنا جاءت الفتن.... من ههنا جاءت الفتن".

وقوله ﷺ: " هناك تكون الزلازل والفتن " يعنى فى شرق الجزيرة العربية وفى هضبة نجد ستقع الزلازل التى ستكون بمثابة إرهابات لقرب الساعة وتعد من أشراتها.

والمقصود بالفتن الصراع على السلطة المفضى إلى التقاتل وانتهاك الحرمات.
حاجب الشمس: الجزء الظاهر من قرص الشمس عند الأفق، في وقت الشروق ووقت الغروب، والذي يشبه الحاجب فوق العين.

والحديث النبوى ينهى عن تعمد اختيار وقت بدء الشروق ووقت بدء الغروب للصلاة: صلاة الصبح وصلاة العصر. لأن الشمس فى هذين الوقتين تكون فى أجمل وأجل صورها. ومن ثم فقد يتسرب الشك فى ألوهيتها إلى قلب الإنسان، فى ظلام غفلته عن الله الواحد القهار ﷻ.

ونلاحظ أنه ﷺ قد قال هذا الحديث فى حضور وفد أهل اليمن. وكان أهل اليمن قديماً يعبدون الشمس التى تبدو فى أعظم صورها عند الشروق وعند الغروب.

قال الهدهد لنبى الله سليمان (عليه الصلاة والسلام) عن أهل اليمن (سباً) وملكتهم بلقيس: ﴿ وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

ولا شك فى أن عبادة الشمس كانت من أعرق الضلالات فى تاريخ الحضارات الإنسانية القديمة.

ولعلنا نلتفت إلى أن ملك مصر فى العصور القديمة كان يلقب بابن الشمس، باعتبارها الإله بل كبير الآلهة. وكان تاج الملك فى مصر القديمة ترسم عليه الشمس مرفوعة بين قرنين، فى تعبير رمزى عن أن الملك الجالس على عرش مصر، والذي يضع ذلك التاج على رأسه هو ابن الشمس الإله حقاً!!

وأرى أن إبليس (الشيطان) يتخذ وضعاً وهيئة عند الشروق وعند الغروب، بحيث يبدو فى نظر قلوب عباده من الجن والإنسان، كما لو كان يحمل الشمس فوق رأسه بين قرنين على تاجه. وتلك الصورة الإبليسية هى التى أوحى للفنانين المصريين القدامى برسم تاج الملك على مثالها.

(١١٥) نص الحديث النبوى الذى تناثرت أطرافه فى الروايات التى أوردتها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث: ٥٩٩٧، ٥٩٩٨، ٦٠١٣، ٧٣٧٦ فى كتابه "فتح البارى بشرح صحيح البخارى". والروايات التى أوردتها الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى فى الأحاديث: ٨٩٦، ٢٥٣٤، ٦٥٩٧، ٦٥٩٨، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠، ٦٦٠١ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته".

(١١٦) جمعنا نص هذا الحديث النبوى من الروايات المختلفة التى أوردتها أو أشار إليها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث: ٣١٩٤، ٦٠٠٠، ٦٤٦٩، ٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤. والروايات التى أخرجها الأستاذ / محمد ناصر الدين الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته - الفتح الكبير فى الأحاديث: ١٧٦٣، ١٧٦٥، ١٧٦٦، ١٧٦٧.

قوله ﷺ: " لما قضى الله الخلق " معناه: عندما ظهرت الإرادة الإلهية بالكشف عن الكائنات وإخراجها من الغيب، فصدر الحكم الإلهى بكتابة علمه، فنزلت الكائنات فى ذلك الكتاب وصارت كلمات مسطورة فيه.

" كتب على نفسه فى كتابه ": ألزم نفسه بمحض اختياره (مشيئته) وإراداته وسجل (دون) ذلك الإلزام فى كتابه الحاوى لعلمه.

قوله: " إن رحمتى سبقت غضبى " يصور الرحمة الإلهية والغضب (العذاب) الإلهى فى هيئة إثنين من المتنافسين فى سباق، يحاول كل واحد منها أن يسبق صاحبه، أى أن يصل قبل الآخر فى نهاية السباق. وهو ما يعنى أن كلاً من الرحمة والغضب يسعى للفوز أى الغلبة على صاحبه (منافسه). وينتهى السباق (التنافس) بغلبة (فوز) الرحمة على العذاب. ولذلك جاءت بعض الروايات بلفظ: إن رحمتى غلبت غضبى ".

ومن معنى الغلبة أن الله لا يسارع بإنزال العذاب المعبر عن غضبه على عبده العاصى، بل يتمهل ويمهل؛ لأن رحمته تغلب غضبه وتحول دون ظهوره. وهذا هو

معنى اسمه (الحليم) جل جلاله. ويفضى هذا إلى أن غضب الله ﷻ الممثل (المتجسم) في جهنم (نار الآخرة) سيزول يوماً ما. ولا يبقى في النهاية إلا رحمته الممتلئة في الجنة؛ فإن الرحمة تمحو الغضب كما يمحو النور الظلام.

وحينذاك تصير جهنم مثل سجن بناه السلطان وحبس فيه من عصاه. ثم هدمه وأفرج عن كل المحبوسين فيه؛ لأن رحمته غلبت غضبه ﷻ.

ولذلك قال الله ﷻ في وصف عذاب الكافرين بعد الحساب يوم القيامة ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّغْيَيْنِ مَتَابًا ﴿١٢﴾ لَّيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٣﴾﴾ [النبا: ٢١-٢٣]: مكاناً يرجعون (يؤوبون) إليه، فقد كانوا فيها قبل خلقهم في هذه الحياة الدنيا.

ولكنهم لن يبقوا فيها على الدوام، بل سيأتى عليهم يوم يخرجون فيه منها كما يخرج المسجون بعد قضاء مدة عقوبته. صحيح أنهم سيقون فيها أزماناً طويلة، بل بالغة الطول فإنه قال: ﴿لَّيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٣﴾﴾ والأحقاب هى الأزمان بالغة الطول. لكنها فى النهاية ستنتهى مهما طالت

والنهاية هى العودة إلى البداية. ومن هنا نفهم أن الرحمة سبقت أى كانت قبل الغضب وستكون بعد زواله ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٩-٤٢].

إلى ربك الرحمن الرحيم ينتهى سير الخلائق بعد نيلهم الجزاء الأوفى بالجنة أو النار.

الكاتب فى سطور

الاسم: توحيد عبد الفتاح حواش الزهيرى

تاريخ الميلاد: ١٦ فبراير ١٩٥٣ م.

المهنة: طبيب

عضو عامل باتحاد الكتاب المصريين.

العنوان: جمهورية مصر العربية - محافظة القليوبية - طوخ - منزل رقم ١٩ الطريق السريع - أمام نقطة المرور.

تليفون: ٠١٣ / ٢٤٦١٩٢٦

محمول: ٠١٢٨٣٢٢٤١٢٥

البريد الإلكتروني: tawhiedelzohery@gmail.com

صفحة الفيسبوك:

<https://www.facebook.com/TawhiedElZohery/>

عنوانها: الصفحة الرسمية للدكتور توحيد الزهيرى

*** ** *

المؤلفات المنشورة:

- (١) كلمة من الله - رواية تاريخية تتناول حياة المسيح عيسى ابن مريم، في سياق عرض تاريخي للعصر الذي عاش فيه - صدرت في نوفمبر ١٩٩٣.
- (٢) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن - دراسة تؤسس لموقف إسلامي أصيل في ميدان فلسفة الفن والجمال. صدرت عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، عن دار القلم ٣٦ شارع القصر العيني، القاهرة. ص ب: ٦٥ مجلس الشعب. تطلب من مكتبة الوفاء بدرج الأتراك بالأزهر ومكتبات أخبار اليوم ومكتبات الهيئة العامة للكتاب.
- (٣) القرآن معجزة كل العصور - مدخل إلى فهم النص القرآني، دار الشعب، القاهرة (٩٢ شارع القصر العيني) عام ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.
- (٤) الماء في القرآن والسنة والعلوم الحديثة - دراسة في الإعجاز العلمي للقرآن صدرت عن مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة (شارع عبدالله العربي، الحى السابع، مدينة نصر) عام ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م.
- (٥) التحديات التي تواجه العالم الإسلامى. البحث الفائز بجائزة الدكتور/ محمد شوقي الفنجري لخدمة الدعوة والفقة الإسلامى، الناشر دار الجميل، القاهرة، عام ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣.
- (٦) لمحات من حياة نبي الرحمة ﷺ - سلسلة دراسات إسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
- (٧) الحريات العامة والحقوق السياسية في القرآن والسنة، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (٣٦ شارع القصر العيني، ص ب: ٦٥ مجلس الشعب)، عام ١٤٣٢ هـ = ٢٠١١ م. يطلب من مكتبة دار الوفاء بدرج الأتراك بالأزهر ومكتبات أخبار اليوم ومكتبات الهيئة العامة للكتاب.



(٨) شرعية الأحزاب السياسية في القرآن والسنة، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة (٣٦ شارع قصر العيني، ص.ب: ٦٥ مجلس الشعب)، عام ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م. يطلب من مكتبة دار الوفاء بدرب الأتراك بالأزهر ومكتبات أخبار اليوم ومكتبات الهيئة العامة للكتاب.

(٩) الطريق إلى غار حراء - رواية تقص حياة النبي قبل نزول الوحي عليه، تطلب من مكتبة الوفاء (١ درب الأتراك بالأزهر)، ومكتبات أخبار اليوم ومكتبات الهيئة العامة للكتاب.

(١٠) في غار حراء عندما عانقت الأرض السماء، رواية تقص مشهد الوحي في غار حراء، صدرت عن دار النشر للجامعات، والوادي للثقافة والإعلام، ٢٠١٤.

(١١) أول الطريق - رواية ورؤية لنشأة الكون ونهايته، صدرت عن الوادي للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، ٢٠١٥. تطلب من مكتبات الهيئة العامة للكتاب ومكتبات أخبار اليوم ومكتبة دار الوفاء بالأزهر.

(١٢) الجمال في القرآن الكريم، دراسة لمفهوم الجمال ومدخل لقراءة النص القرآني، الوادي للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، ٢٠١٦. يطلب من مكتبات الهيئة العامة للكتاب، ومكتبات أخبار اليوم، ومكتبة دار الوفاء بالأزهر.

(١٣) حقيقة المعراج - تأويل جديد، دار النشر للجامعات. يطلب من مكتبات الهيئة العامة للكتاب، ومكتبات أخبار اليوم، ومكتبة دار الوفاء بالأزهر.

(١٤) عند الغروب ولمن الملك؟ - روايتان قصيرتان، دار النشر للجامعات، ٢٠١٦. تطلب من مكتبات الهيئة العامة للكتاب، ومكتبات أخبار اليوم، ومكتبة دار الوفاء بالأزهر.



- (١٥) سر القدر - رواية ورؤية: دار النشر للجامعات، والوادي للثقافة والأعلام، ٢٠١٦م. تطلب من مكتبات الهيئة العامة للكتاب، ومكتبات أخبار اليوم، ومكتبة دار الوفاء بالأزهر.
- (١٦) ما معنى تجديد الخطاب الديني؟ رسالة لمن يهمه الأمر... دار النشر للجامعات، والوادي للثقافة والإعلام ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م. يطلب من مكتبات الهيئة العامة للكتاب، ومكتبات أخبار اليوم، ومكتبة دار الوفاء بالأزهر.
- (١٧) فنتة الخوارج - ما أشبه الليلة بالبارحة!!... ٢٠١٧-١٤٣٨هـ.
- (١٨) الزكاة طريق العودة إلى حقيقة الإسلام - دار الإيمان للطبع والنشر. يطلب من المكتبة ١ درب الأتراك بالأزهر.





فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	١ - تقديم
٩	(١) خَوْلَة بنت حكيم
٣٢	(٢) أبورهم الغفارى
٣٨	(٣) حكيم بن حزام
٤٦	(٤) عبد الله بن ذى الخويرة التميمى
٥٣	(٥) معتب بن قشير
٦٤	(٦) زهير بن صُرْد
٧١	(٧) عيينة بن حصن
٧٥	(٨) مالك بن عوف
٨٢	(٩) كعب بن زهير بن أبى سُلَمَى
١٠١	(١٠) فاطمة بنت النبي
١١٥	(١١) بنو تميم
١٢٣	(١٢) معاوية بن الحكم



الموضوع	الصفحة
(١٣) الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٣٥
(١٤) حضرمي بن عامر	١٤٤
(١٥) الأقرع بن حابس	١٥٦
الكاتب في سطور	٣٧١
فهرس الكتاب	٣٧٥

*** ** *